

روبرتو ميشال



الاحزاب السياسية

دراسة
سيولوجية

نقله الى العربية

مدير مطلق



الاحزاب
السياسية

الأحزاب السياسية

روبرتو ميشال

نقله إلى العربية

منير مخلوف

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

دار إحياء التراث العربى
بيروت - ج. ب. - ١٠٤٢ / ١٤٢٢ هـ

تصميم الغلاف: سامي جرّس

هذا الكتاب

صدر هذا الكتاب عشية الحرب العالمية الأولى، وهو دراسة حول الأحزاب السياسية، هي إحدى أول الدراسات حول ظاهرة سياسية كانت لا تزال آنذاك في بداية ظهورها. لم يكتب الكاتب بعرض هذه الظاهرة (الأحزاب السياسية) وإنما تعداها إلى دراسة أسبابها، وغاص في دراسة سوسيولوجية لتركيبية الأحزاب السياسية ودور قيادتها. ارتكز في هذه الدراسة على عاملين أساسيين:

- التنظيم (اعتماد مثل الدولة، ومثل الجيوش).
- علم النفس الاجتماعي.

من هنا، يحتوي الكتاب على قسم أول يتكلم فيه الكاتب عن الزعماء في التنظيمات الديمقراطية، بينما يشير في القسم الثاني إلى طابع السيطرة لدى هؤلاء الزعماء. أما القسم الثالث فهو يتكلم عن ممارسة السلطة وتأثيراتها النفسية على الزعماء. ويشكل القسم الرابع تحليلاً اجتماعياً للزعماء. ومنه إلى محاولة الحد من سلطة الزعماء في الأحزاب. فينتهي الكتاب في القسم السادس الذي يشكل النتيجة النهائية لهذه الدراسة، ألا وهي: الزعامة الأوليفرشيّة للتنظيم.

روبرتو ميشال

رجل اجتماع واقتصاد ايطالي. من اصل ألماني (كولوني ١٨٧٦) (توفي في روما ١٩٣٦).

- الأحزاب السياسية، دراسة النزعات الاوليغارشية في الديمقراطيات (١٩١١). وهي موضوع الكتاب.

- الاشتراكية والفاشية كتابين سياسيين.

- تاريخ الماركسية ١٩٢٥ في ايطاليا ومحاضرات في علم الاجتماع السياسي ١٩٢٧.

هذه الدراسات جعلت منه احد مؤسسي علم الاجتماع السياسي.

• تأثر في بداية عهده بالماركسية، ومن ثم بالفاشية.

تقديم

هل الديمقراطية مشروع ممكن، ام سراب يحتمل التأجيل الى اجيال لاحقة ؟
هل الديمقراطية احتراف للمستحيل الذي لن يتحقق، ام هي مثال، يقارب
المثل الافلاطونية، الاكثر تجريدًا، والمفارقة للواقع، والعاجزة عن التجسد
والتمثل.

انها اللعبة التاريخية المخيفة والمحزنة في آن واحد.

انها الامل السياسي الوحيد، التراجيديا الأكثر بحثة في تاريخ البشر. كنوام
والحرية، ولكن، بين الامل وترجته، مسافة لا نهائية، واعتماد زمني مأساوي
واخلاقي، اذ ان كل ترجمة عملية للديمقراطية، وما تمثله يستبجها حتماً، في كل
المراحل التاريخية، نشوء الاوليفرشية.

ان الاوليفرشية، غاية غير مقصودة، وغير مستهدفة، من كل بناء
ديمقراطي، وكل تأسيس ديمقراطي.. فالبدية المتفائلة للديمقراطية، تتحول الى
اوليفرشية مستبدة، ويقفل المستقبل عينه، عندما يرى، ان الديمقراطية، ليست
الا رهينة جييلة في قفص الاوليفرشية التي تصنع سجنها داخل قلعة
الديمقراطية.

والجواهر، لن تصبح سيدة أبداً الا بطريقة مجردة.. وفكرة تمثيل مصالح

الشعب، ليست سوى وهم وسراب؛

إن الأوليفرشة هي الوريث الطبيعي والشرعي للديمقراطية، بحكم تطور القوانين الاجتماعية - السياسية - التنظيمية. إنها ظاهرة عضوية، تنشأ داخل كل تنظيم، يسمى إلى تحقيق المساواة، والعدالة، والحرية، ويحافظ على مبدأ التمثيل الشعبي. أو كل تنظيم يبدأ بالحلم الديمقراطي. حتى الأحزاب، التي تقدّس هذا المبدأ، وتدعو إليه، مستحرفاً عنها، لأن كل تنظيم، يعمل من حيث أنه تنظيم، بذرة الأوليفرشة.

ففي كل تنظيم حتى في التنظيم الذي يعتمد ويتأسس على مبدأ الالتزام أو الانتساب الآخر ويقوم على قاعدة ديمقراطية يتحول الالتزام إلى الزام، والانتساب الحر إلى قيود استثنائية من قبل القيادة وتصبح الديمقراطية قضية للزعماء، ففي كل مكان يوجد ناخبون ومنتخبون... ولكننا نجد أيضاً، في أي مكان، سلطة لا محدودة للمتخين على الناخبين الذين ينتخبونهم... فالتنظيم هو المصدر الأساسي الذي تولد منه سيطرة المنتخبين على الناخبين والمفوضين على المفوضين... فمن يقول بالتنظيم يقول حقاً أوليفرشة، من دون أن يقصد، وفي كثير من الأحوال من دون أن يدرك ذلك... وتنتهي اللعبة التارجية المخيفة، بعودة سيزيف إلى قعر الوادي، لحمل الصخرة التي لن تعمل أبداً. فالديمقراطية تبدو سيزيفية، ولكنها تبقى إلى جانب ذلك، الصخرة التي تحملها البشرية، إلى قعر الأوليفرشة.

هذا هو القانون الذي يحكم ويخضع له كل تنظيم أو حزب سياسي، مهما كانت أبديولوجيته، حتى تلك التي تؤسس وجودها على قاعدة الديمقراطية المطلقة.

هل في ذلك تناقض؟ وكيف تم السيرة - المعجزة؟ وكيف تصبح الديمقراطية أوليفرشة؟ وما هي القوانين العلمية والموضوعية لهذه السيرة؟ على هذه الأسئلة الكثيرة، يجيب روبرتو ميشال، رجل الاجتماع والاقتصاد الإيطالي، والألماني الاصل، مؤلف هذا الكتاب: «الأحزاب السياسية» الذي

يعتبر اولى الدراسات العلمية للزعات الاوليغارشية في الديمقراطيات.

يعتبر روبرتو ميشال، ان النضال السياسي، لا يمكن ان ينتظم، ويصبح ذا فعالية وقوة، الا اذا اعتمد مبدأ التنظيم، ذلك ان هذا الامر، يعد في الدرجة الاولى، المبدأ الاساسي الاول، لتأسيس قوة ملموسة، للجماهير الطامحة الى تغيير وضعها، او الى الحصول على تشكيل آخر للدولة، يعتمد على مبدأ النظام الديمقراطي مهما كان تفسيرها، للديمقراطية: اكانت الديمقراطية الشعبية، او الاشتراكية، او حتى دكتاتورية البروليتاريا.

وهكذا، يكون التنظيم الشرط المطلق للنضال السياسي... فلا نضال من دون تنظيم الجماهير.

تلك نعمة ام محنة؟

والتنظيم، خطوة نحو الامام، ام خطأ نحو الخطورة؟

لعل الجواب، يكمن في آلية التنظيم ذاته. فالجماهير لا تستطيع ان تحكم بأسلوب مباشر. ولئن كان المثل الاعلى في تطبيق الديمقراطية يكمن في ان تحكم الجماهير بنفسها وبموجب قرارات الجمعيات الشعبية. فان تطبيق هذا المثل الاعلى لا يكتب له الحظ، فمنذ البداية، لا بد من التخلص من الكثرة، فالكثرة الكثيرة، تعطل اتخاذ القرارات، والكثرة تمحو وجود الفرد وشخصيته. الكثرة لا تتأور، انها تشبه ضوضاء لا تفكر، او هي كذلك لانها بهذا الحجم... ولا نجاح عملية التنظيم، لا مندوحة من اختيار ممثلين او مفوضين من الجماعات، تكون في البداية، نظرياً على الاقل، قادرة على تمثيل الجماهير وتحقيق ارادتها. ذلك ان المجموعة الصغيرة من الممثلين، قادرة، بحكم عددها، ان تتحاور وتسمع، وتنقد، وتوجه، وتتخذ القرارات المناسبة، بشأن المسيرة التي ستلتزم بها، لتلتزم فيما بعد الجماهير المريضة بها.

وهكذا، تكون الجماهير، من دون قصد منها، ومن دونما قصد من قياداتها، بدأت تطيح، وتنفذ وتسير، حسب المشية التي ارتأتها الاقلية المنتخبة، التي مثلت نظرياً، مصلحة الجماهير الشعبية.

وآلياً، يتم اختيار القائد، أو الزعيم، من هذه المجموعة الصغيرة، تحت شعار، أن ! لزعيم ليس سوى خادم للجماهير، منطلقة في هذا التعريف من فكرة المساواة المطلقة، بين أعضاء الحزب أو التنظيم.

أن مفهوم الزعامة، لا ينبع من حدود الشخص المنتخب لهذا المنصب فمعايير الخير والشر تبقى نسبية. ليس هناك قائد أو زعيم صالح، أو قائد أو زعيم غير صالح. أن مبدأ القيادة الفردية، المنتخبة في القاعدة، غير مصاف متعددة، في التنظيمات الديمقراطية، هو الذي، سيقود ألياً، وموضوعياً، يجعل الزعامة، سلطة أوليغرشية مطلقة، مسترة بالخطب والبيانات والشعارات.

ويحدث أن تكبر المنظمة، وتتضخم عدد المنتسبين إليها، فيصبح حق الرقابة من الجماهير على الزعيم أو القائد وهما وقليل الفاعلية والتأثير. وطبعي جداً، أن التضخم التنظيمي، سيقود حتماً إلى تقسيم العمل والاختصاصات والمصالح أكثر فأكثر فينشأ نظام بيروقراطي، داخل التنظيم، يعيش وبقياص من صندوق مالية الحزب أو المؤسسة. فنشوء الزعماء طبيعة يفرضها التنظيم الديمقراطي، إلا أن مجرد وجود الزعماء في هذه التنظيمات الديمقراطية يتنافى وديمقراطيتها. فالزعامة نقي للديمقراطية.

إذا كانت الزعامة قد أصبحت كذلك، فإن تكريسها يصبح أكثر خطورة فيها بعد، خاصة عندما تتحول القيادة، إلى احتراف. فالزعيم المنتخب في البداية، يعمل في وظيفته العامة إلى جانب عمله السياسي، ولا يتقاضى راتباً، ولكن طبيعة النضال السياسي، وكثرة المناصرين والمؤيدين، رتضخه عدد الجماهير المنتسبة للتنظيم، تستدعي أن يترك الزعيم أو القائد أي عمل خاص يقوم به، ليحترف العمل السياسي، وليعيش من مالية الحزب أو التنظيم.

وهكذا يتحول الزعيم، من منتخب ليقدم مؤقتاً، ولمدة معينة، مصالح الجماهير، إلى محترف سياسي هدفه المحافظة على مكانته ومركزه.

لذلك يقول روبرتو ميشال: «أن القيادة المحترفة تؤدي إلى نهاية الديمقراطية، وممارسة الحق الانتخابي تنازل عن السيادة، وليس النظام البرلماني

الا نوعاً من الاختلاس المتواصل لحق الجباهير ، فلا فرق اذ ذاك ، بين الديمقراطية والملكية .

وبعد سلسلة طويلة من التجريدات ، تنسج الحوة بين الجباهير وقيادتها ، وذلك دون ارادة مسبقة ، « فينتج عن ذلك ان سلطة القرار التي تمتير احدى الصفات الخاصة للارادة تحب شيئا فشيئا من ايدي الجباهير وتحصّر فقط بين ايدي الزعماء » . وهذا يستتبع استقلال الزعماء عن الجباهير ، وانفصالهم عن امانيتهم ورغباتهم ونظلماتهم ومشكلاتهم .

فالتنظيم اذاً ، يؤدي في كل حزب او في كل هيئة سياسية ، الى اقلية حاكمة تنحكم بأكثرية ، خاضعة بارادتها لهذه الاقلية .

وقد اعترف كل من ماركس وأنجلز بعدد من الاخطار التي تنتج عن التمثيل . لعلنا لهذا السبب نجد ان عمر الزعماء في الاحزاب الديمقراطية ، يتأخر عمر الملوك ، .. والفرق بين النظامين ، الديمقراطي والملكي ، ان الديمقراطية بدل ان تمنح الجباهير ملكاً واحداً ، تمنحها حشداً كبيراً من الملوك ، « ويسبقى الشعب لنفسه حقاً متقلّباً يدعو الى السخرية باختياره اسبأداً جديداً من وقت لآخر » .

وقد يحتج البعض ، ان الحزب الكفاحي ، وخاصة اثناء صراعه ونضاله لا يستطيع ان يكون ديمقراطياً ، ويتم التأكيد ، على ضرورة الحكم الاستبدادي ، ولكن بشكل مؤقت ، ولا يلبث المؤقت ان يدخل في النسيج النفسي للجباهير ، فيصبح المؤقت دائماً .

يقول فرديناند لاسال وان على الميليشيات ان تتبع زعيمها ، كما ان على الجمعية كلها ان تكون كالطريقة بين يديه .

وبهذه ! لطريقة يصير الخوض قانوناً مستمداً من الاستبداد ولكنه اكد : فروع الديمقراطية الى سلعة دعائية صالحة للتصدير فقط . فهي لا تطبق داخل الحزب .

لكن السؤال الذي يطرح، ما هو موقف الجباهير من عملية تغريبها وسلبها
سلطتها وقراراتها؟

هنا يقف المؤلف، موقف السلب من الجباهير. فهي لا تفكر، استقالت من
مسؤوليتها. وأولتها الى قيادتها. انها مستعدة لان تندesh فقط، لان تسير خلف
القيادة، انها استعداد دائم لان تُحكّم، وهي بهذا الشكل فقط، تشعر بقيوتها اي
قوتها مستمدة من استقالتها من القرار. ويرافق هذا الشعور، عبر الولاء الذي
توليه للزعامة، ويرافق معها عبادة حقيقة للزعاء الذين نسيغ عليهم كل
صفات البطولة.

ولعل هذا الامر هو اكبر برهان على عجز الجباهير، الى جانب مجموعة من
البراهين الاخرى، فاعتقال الزعراء يجعل الجباهير مزعزعة، هاربة، وانشاء
الاحتفالات يخرج الهوس المجنون للجباهير، فتنهال الطلبات الى مراكز
الحزب، ارسلوا لنا هذا الخطيب، لا ذاك.. الخ..

وتتحول الزعامة الى «ألوهية زمنية»، الى تايو، من يوجه نقداً الى الزعامة
يواجه بعنف من قبل الجباهير المؤمنة به، وتستمر عبادة الزعيم الى ما بعد موته،
وتسمى الجباهير صبياتها بأسماء زعمائها.

فالجباهير، حسب المؤلف، طيبة النفس، نزيهة بريئة، مصدقة، ولذا تؤمن
بالخطباء اكثر من المفكرين. الخطباء في الحزب هم المتقدمون، هم زعراء
المستقبل، كذلك الصحفيون، اما المفكرون والنقاد، فيبقون في الخطوط
الخلفية، وحظوظهم في الزعامة قليلة، ان لم نقل معدومة.

وليس من الضروري ان يكون الخطيب عالماً، مفكراً، بل قد يكون ذهنه
بسيطاً، المهم ان يكون ساحراً، ولا بأس اذا كان دماغه جوعياً، شرطه الوحيد ان
يلهب الجباهير، المؤمنة الطيبة والغبية.

واذا ما حدث ان صراعاً ما نشأ بين الجباهير المنتظمة والزعراء في الحزب،
فان الغلبة دائماً للزعراء، لانهم يعتمدون الفضلكات الذهنية، والكذب،
والتفسير، والتبرير، بشكل لا يقنع، ولكن الجباهير، وبسبب عدم نضجها

السياسي، وقلة معرفيتها، تتراجع، اذ لا تستطيع ان تفرض من بينها، زعامة جديدة، فالزعامة انفصلت عنها. وهم لا يستطيعون تخريج الزعماء منهم، لقد شكل الزعماء طبقتهم، وجردوا الجماهير من كل قدرة على قيادة نفسها، او اختبار واحد منهم بقيادتها.

وتحى الديمقراطية..

تتحول الى حكم النخبة المنفصلة عن قاعدتها. وتستمر اللعبة: التجديد للزعماء، وتصور العملية الانتخابية عملية روتين سلطوية... والزعامة التي كانت عبئاً تتحول الى منصب دائم، بحيث «تتجاوز مدة اشغالهم لوظائفهم في الحزب متوسط اشغال الوزراء لجماهير في الدول الملكية».

ولكن الانتخابات، على الرغم من انها روتين سلطوي، فهي قد تثير في بعض الاحيان، الشكوك حول القيادة، ولذلك، فهي عملية غير مرغوب فيها. ولهذا يضطر الزعماء الى اصطناع الموالي، والمؤيدين، فيحيطون انفسهم بمجموعة من الموظفين الذي يسخون عليهم بالتعويضات المالية، حتى ولو كانت مؤهلاتهم معدومة، ولكنها تقوي سلطة الزعامة، وتمنع عنها كل هجوم قريب، وهكذا تبدأ سلسلة التبعية من القيادة حتى القاعدة مع بعض الاستثناءات. ازاء عجز الجماهير، تتحول الديمقراطية الى اوليغارشية. يقول برودون: «يود الجنس البشري ان يكون محكوماً، فسيكون له ذلك، انني اخجل من بني جنسي».

اين الحل؟

لا حل نهائي. هناك امكانية قليلة، بتقييد الاوليغارشية، ويكون هذا التقييد دائماً لصالح الديمقراطية.. ويعطرح المؤلف بعض الملاحظات، وبعض التوجهات تصب كلها في خاتمة تربية الجماهير، لتصبح قادرة على النقد والتوجيه، فعمل التربية يرفع مستوى الجماهير، لمعارضة الزعامة الاوليغارشية. اذا، الديمقراطية تبقى المطلب الاسمي، رغم تهموها اوليغارشية، فهي اهمون الشرور.

ان تعريب هذا الكتاب، وإطلاع القراء العرب عليه، سيجعلهم قادرين،
على النظر الى الاحزاب، نظرة نقدية علمية، كما ان الاحزاب العربية، مدعوة
لان تقف امام النقد والعلم، لتكون اكثر ديمقراطية.. وفي ظل انعدام الحد
الادنى من الديمقراطية . نحن نحوج ما نكون، الى هذا المستحيل: الديمقراطية.
الناشر

مقدمة

تستأثر دراسة الاحزاب السياسية في عالم اليوم باهتمام بالغ ناتج، بالطبع، عن الدور الذي تلعبه والاحزاب السياسية داخل تركيبة الدولة الحديثة.

فالدولة، بمعناها المطلق، تعني السلطة. والسلطة، او الحكم، بالمعنى السياسي للكلمة، تشكل المادة الاساسية التي تدور حولها، وتتمحور مؤسسات الدولة على اختلافها. من هنا، انبثقت فكرة التنظيم، اساس البنيان في توجيه مسيرة الحكم، اي حكم، نحو تأكيد تطلعات الشعوب وترجمتها الى افعال عبر الممارسات اليومية المستمرة، التي تستند الى سن التشريعات القانونية الحديثة وتطبيقها، بهدف تأمين الرخاء والسعادة لكل فرد من افراد المجتمع.

من هذا المنطلق، تعددت الافكار، وبالتالي، الاساليب. فكانت التنظيمات المختلفة ذات الاتجاهات المتنوعة على كل صعيد. ومن هذه التنظيمات، برزت والاحزاب السياسية. كأحد اهم هذه التنظيمات في دراسة علم السياسة ومنها الى تهيئة الارضية الشعبية بغية الوصول الى

السلطة، والامساك بزمام الحكم، والبدء بتنفيذ البرامج الخاصة
الموضوعة مسبقاً لإدارة مؤسسات الدولة.

حول كل ذلك وما يتبعه، تدور دراسة روبرتو ميشال في كتابه
«الاحزاب السياسية» الذي نشر عشية الحرب العالمية الاولى، والذي
يشكّل دراسة حول النزعات الاوليغارشية في الاحزاب. الى ذلك، فإن
الكاتب لم يكتف بعرض مسألة التنظيم (وهو يركّز عليها كثيراً)، بل
انه تعدّاهما الى دراسة اجتماعية - سياسية عميقة تناول فيها الشؤون
الخاصة لرؤساء الاحزاب وقادتها آنذاك، وتأثيرات هذه الشؤون على
نصرفاتهم داخل صفوف احزابهم، وحتى على القرارات المتخذة، سواء
في المؤتمرات الحزبية العامة او في اجتماعات اللجان التنفيذية.

لن ادخل اكثر من ذلك في صلب موضوع المؤلف، تاركاً التفسير
الكامل لمحتويات الكتاب الذي يتضمن ستة اقسام، والذي كان الهدف
من نقله الى العربية، هولقاء الضوء على هذا الموضوع الهام، خاصة
وان ما كتب حوله قليل جداً، اذ ليس هناك من دراسة وافية سوى
كتاب «الاحزاب السياسية» لموريس دوفرجييه الذي يستشهد، هو
نفسه، بدراسة روبرتو ميشال، موضوع كتابنا.

كلمة اخيرة اوجهها الى الباحثين والطلاب والقراء العرب، وهي
اني امل ان اكون قد ساهمت، عبر تعريب هذا الكتاب، بوضعه في
متناول الجميع، خدمة لتعميم الفائدة منه، كونه مرجعاً مهماً لطلاب
العلوم السياسية في دراستهم لمادة الاحزاب السياسية.

منير مخلوف

اهدن - صيف ١٩٨٣

القسم الاول
الزعماء في التنظيمات
الديموقراطية

الباب الأول
الأسباب الموجبة فنياً وادارياً

الفصل الأول

مدخل:

ضرورة التنظيم

لا يمكن أن توجد ديموقراطية دون تنظيم. ان تبيان هذا البحث يمكن أن يتم بتقليل من الكلمات: ان طبقة ترفع في وجه المجتمع علم المطالبة بحقوق محددة وتبني تحقيق مجموعة من الأفكار أو من «المثل العليا» الناتجة عن اللجان الاقتصادية التي تمارس، انما هي بحاجة الى تنظيم. ويظهر هذا التنظيم سواء عنى المطالبة بحقوق اقتصادية أو سياسية، وكأنه الاسلوب الوحيد لخلق ارادة جماعية. فهو يقدر ما يستند على مبدأ الجهد الاقل، أي توفير أكبر قدر من القوى، سلاح كفاح بين أيدي الضعفاء ضد الاقوياء.

لا يمكن أن يكون لنزاع ما حظ في النجاح، إلا في حدود حدوته على أرضية من التضامن بين افراد ذي مصالح متائلة. يوضع الاشتراكيون اذاً، وهم المناصرون الاكثر تعصباً لفكرة التنظيم، حجة تتوافق تماماً مع نتائج الدراسة العلمية لطبيعة الاحزاب، وذلك عندما يمتعضون على النظريات الفوضوية والفردية حيث رؤية القوى العمالية مشتتة ومجزأة تشكل، لأولياء الشأن، أكبر متعة ممكنة.

اننا نعيش في عصر رسخت فيه فكرة التعاون جذوراً عميقة في النفوس، الى حد أن أصحاب الملايين أنفسهم، باتوا يرون الحاجة ماسة لعمل مشترك.

كذلك نعي ان يصبح التنظيم المبدأ الجمهوري في حياة الطبقة العاملة، اذ يستحيل كل نجاح من دونه. ان رفض العامل الاشتراك في الحياة الجماعية لطبقته، لا يمكن ان يكون له سوى نتائج مشؤومة بالنسبة اليه. ان البروليتاري هو العنصر الاكثر ضعفاً في مجتمعنا، وذلك بسبب درجة ثقافته وظروفه الاقتصادية والجسدية والفيزيولوجية. فالعامل المنعزل يجد نفسه فعلاً ودون أي دفاع، متروكاً لاستغلال هؤلاء الذين هم أقوى منه اقتصادياً. لذا لا يكتسب البروليتاريون قدرة المقاومة السياسية، ولا الأهلية الاجتماعية إلا اذا تجمعوا وأعطوا تجمعهم هذا، البنية التي يتطلبها. ان أهمية الطبقة العاملة وتأثيرها يعودان مباشرة لعدد الافراد الذين ينتمون اليها، هذا العدد يقضي بالانتظام والتلاحم من أجل تشكيل قوة ملمومة. ويجب بالتالي اعتبار مبدأ التنظيم وكأنه الشرط المطلق للنضال السياسي الذي تقوده الجماهير.

ولكن مبدأ التنظيم الذي يشكل ضرورة سياسية، يُخفي في طياته أخطاراً أخرى، ولو أنه يسمح بتجنب تشتيت القوى الذي يلائم الاخصام أفضل ملامة. أي انه لا نسلم من زيد حتى نقع بين يدي عمرو. هذا يعني ان التنظيم يشكل بالتحديد البنيوع الذي تتدفق منه التيارات المحافظة، لتصب في سهل الديمقراطية وتسبب فيضانات مدمرة تجعل من هذا السهل بوراً لا رجاء فيه.

الفصل الثاني

استحالة حكم الجماهير المباشر آلياً وفنياً

ان المثل الاعلى في تطبيق الديمقراطية يكمن في الحكم الذاتي للجماهير، وبموجب قرارات الجمعيات الشعبية. ولكن اذا صح أن هذا الاسلوب يحذ من تعميم مبدأ التفويض، فانه في المقابل، لا يقدم أية ضمانة ضد نشوء هيئة عليا اوليغارشية، كما انه ينزع، دون شك، كل صفة وظيفية عن الزعماء الطبيعيين، لان الجماهير نفسها هي التي ستملأ الفراغ الذي سوف يحدث عن ذلك فهي تنجز بسهولة تامة ببلاغة خطباء الشعب القادرين، من جهة، ومن جهة ثانية، يسهل حكم الشعب المباشر بأسلوبه الذي لا يقبل مناقشات جدية ولا مداولات مدروسة للمخاطر التي يمكن ان توقع في التجربة رجلاً قَلَّ نظيرهم، وهم من الحساسة والنشاط والفتنة بمكان.

أن تحكم جهوراً وتسيطر عليه هو أسهل من السيطرة على مجموعة صغيرة من المستمعين، لأن اتحادها هو بالفعل اتحاد تسوده الضوضاء، وغير متكامل ولا يلتزم بأي شرط. وما ان ينجز الجمهور حتى لا يعود يقبل طوعاً أية طروحات مناقضة لتلك التي اعتمدها، خاصة اذا ما أتته من قبل أفراد متزولين. ان مجموعة كبيرة من الاشخاص المجتمعين في مكان ضيق هي، بلا منازع، أسرع بالوصول الى حالة من الخوف غير المرز أو الحساسة ذي العواقب الخطيرة، من

اجتماع مصغرّ يتمكن حاضروه من ان يتحاوروا فيما بينهم ويناقشوا المواضيع المطروحة بكل هدوء وسكينة.

ان الاختبارات اليومية التي يتعرض لها المواطن، تدل على ان اجتماعات شعبية هائلة توافق، بشكل عام، بالهتاف أم بالاعتراض الجماهي على قرارات، تحفظ كثيراً في اعطاء موافقتها عليها، لو أن هذه الاجتماعات وُزعت الى مجموعة أقسام من خسين شخصاً مثلاً.

هكذا تصرف الاحزاب الكبيرة في مؤتمراتها العامة، حيث لا تجتمع سوى النخبة من الملتزمين بها. ان الحشد المتجمع لا يقيس الاعمال والكلمات التي تلقى على مسامحه أكثر مما يفعل الافراد او المجموعات الصغيرة التي يتألف منها. ان في هذا عمل مسلم به لا خلاف حوله، وهو احدى المظاهر المرضية التي يعاني منها الجمهور الحاشد. فالكثرة تحجب وجود الفرد، وتمحو معه شخصيته وشعوره بالمسؤولية، ولا يعود له من دور يؤديه سوى إثبات الوجود واكمال العدد.

لكن أعظم برهان يُطرح ضد الإقرار بسيادة الجماهير، انما هو مأخوذ من الاستحالة الآلية والفنية لتحقيقها. فإذا اردنا ان نتعرض لأكبر المصاعب في تعيين المكان والزمان، فما علينا سوى دعوة جمعيات عمومية من الف عضو، وبشكل منتظم، للتداول في الآراء والشؤون المستجدة؛ وتصبح المسألة مستحيلة تماماً، من وجهة النظر الطبوغرافية، اذا بلغ العدد مثلاً عشرة آلاف شخص. فكيف يمكننا اذاً ان نجتمع حشوداً كهذه في مكان معين وفي ساعة محددة، اذا ما أخذنا في الاعتبار تكرار مثل هذه الاجتماعات الذي تفرضه متطلبات الحياة الحزبية؟ ان هذا لن يحدث حتى ولو تصورتنا سبلاً للمواصلات أفضل بكثير من تلك التي نستفيد منها في الوقت الحاضر.

وهناك أيضاً أسباب أخرى فنية وإدارية، تجعل من الحكم المباشر للجتماعات الواسعة أمراً غير ممكن التحقيق. فإذا ما أخطأ جاك بحق بيار مثلاً، فإنه

يستحيل على باقي المواطنين ان يبدروا، والحالة هذه، لإجراء تحقيق حول القضية ويتخذوا موقفاً مسانداً ليبار ضد جاك. هذا هو ما يحصل، فضلاً عن ذلك، في الاحزاب الديمقراطية الحديثة، حيث يبقى العمل الجماهيري دون امكانية حلّ الخلافات التي تبرز داخل صفوفها بشكل مباشر.

هكذا اذاً، وبناء على ما تقدم، تبرز الحاجة الى اختيار ممثلين مفوضين عن الجماعات، قادرين على تمثيل الجماهير وتأمين تحقيق ارادتها، وفرض نفسها. وتقضي الضرورة، حتى داخل الجماعات الاكثر اخلاصاً وتقيداً بالديمقراطية، بأن نوكّل الى أفراد منها مهمة تسيير الشؤون العادية وتحضير المناجز الاعمال الاكثر أهمية.

ليس الزعم في الاصل سوى خادم الجماهير، والتنظيم مبني على المساواة المطلقة بين كل افراده. فالقصد، في البداية، هو المساواة النوعية في ما بين أمثال هؤلاء الرجال. وفي كثير من البلدان، في ايطاليا مثالية، مثلاً، (وفي بعض مناطق ألمانيا حيث الحركة الاشتراكية لا تزال في بداية عهدها)، تظهر هذه المساواة باستعمال مشترك ومتبادل للغة المخاطبة في ما بين أعضاء الحزب: فالعامل المألوم الاكثر بؤساً يستطيع ان يخاطب أي رجل فكر شهر بلفه المخاطب كما لو انه يخاطب زميلاً له أثناء العمل.

ان المساواة بين رفاق التنظيم الواحد الذين يتمتعون بالحقوق نفسها محل رويدا رويدا محل المساواة النوعية، لان المبدأ الديمقراطي يضمن للجميع مساواة في التأثير وفي المشاركة في ادارة المصالح المشتركة. وبموجب هذه الحقوق التي يتمتعون بها، فانهم جميعاً ناخبون وذو اهلية للترشيح. من هنا، تنبثق كل الاعياء وتجد الشريعة الاساسية ولاعلان حقوق النساء تطبيقها العلمي. وما دام الموظفون يشكلون العناصر التنفيذية للارادة العامة، فانهم لا يلعبون سوى دور مرتبط، ويخضعون، على الدوام، للإدارة الجماهيرية، وهم في كل حين يتعرضون للمزق والتفجير. ولذلك، يتمتع جمهور الحزب بسلطة لا متناهية تجاه قادته.

يتم السعي بادىء ذي بدء للابتعاد أقل قدر ممكن عن الديمقراطية الصرفة وذلك عن طريق إخضاع المفوضين خضوعاً تاماً لإرادة الجمهور. ففي أساس حركة العمال الزراعيين الإيطاليين لم يكن زعيمها لينتخب إلا بأكثرية أربعة أخماس الاصوات على الأقل. وفي حال تباين الاتجاهات واختلاف الآراء التي تسببها مسائل الاجور، وجب على ممثل التنظيم وقبل الشروع في المفاوضات، ان يتزود بتفويض وفقاً للأصول الموعبة. ان هذا التفويض، وبعد ان يتم التوقيع عليه من قبل اعضاء الهيئة المنظمة كلهم فرداً فرداً، يسهل مسيرة الممثل وتحركه في سبيل البت بالأمور العالقة.

لقد كانت محاسبة الممثلين كلها، وفي الوقت نفسه، تحت تصرف الرفاق جميعاً، حتى يتمكن كل منهم، وفي أية لحظة، من ان يتم بها ويطلع على نتائجها. وقد كان هناك سببان ينصان على هذا الاجراء: في الدرجة الاولى، لم يكن يراد ان ينتشر عدم الثقة بين الجمهور لأنه سم يهدم رويداً رويداً كل شيء حتى الهيكلية الأكثر قوة، وفي الدرجة الثانية، كان يسمح هذا التصرف لكل رفيق مشارك بأن يكون على علم بكل ما يتعلق بامور الجمهور وأن يحصل نتيجة سلك عمل المنظمة، على المعلومات القادرة ان تجعل منه، والحالة هذه، أهلاً لتحمل مسؤولية قيادة التجمع أو المنظمة بدوره.

وبدئي القول ان اجراءات ديمقراطية من هذا النوع ليست قابلة للتطبيق، الا اذا ما قيست على مجموعة صغيرة جداً. ان ممثلي أكبر عدد من الجمعيات التجارية، لحظة انشاق الحركة التنظيمية الانكليزية، كانوا مقيدين بالتناوب من قبل زملائهم او مسحوبة اسماؤهم بالقرعة. ولكن عمل الممثلين يعتقد رويداً رويداً. فهو يتطلب ثمة لحظة فردية، وموهبة اختطابة ومعلومات موضوعية كثيرة. هكذا لن يعود من الممكن ابداً اختيار الممثلين طبقاً لصدقة عمية في الخلافة بالتناوب او بالاقدمية. ويجب بالتالي على هؤلاء الممثلين ان يملكوا كفاءات شخصية خصوصية من اجل ان يقوموا بالمهمة الموكولة اليهم احسن قيام.

تلك هي الطرق التي كان يتم بواسطتها السعي لاشراك الجماهير في ادارة الحزب والنتخابات عند بداية ظهور الحركة العمالية. وقد باتت هذه الطرق عديمة الاستعمال في ايامنا هذه، اذ انه يتطلب من الزعماء في الاحزاب السياسية الحديثة نوع من الشكرى الرسمي، ويشدد على ضرورة تشكيل طبقة من سياسيين محترفين ومن متخصصين بالسياسة ذوي خبرة وامتنياز.

فهناك بين الاشتراكيين من يؤيد قيام المؤسسة على اساس تسمية مرشحي الحزب للانتخابات وكذلك اثناء هذا الحزب وتحت رقابته المستندة على امتحانات منتظمة في هذا الشأن. أما البعض الآخر فيذهب الى أبعد من ذلك بكثير، ويدعي ان الجمعيات الكبيرة المحترفة لا يمكنها ان تدوم طويلاً اذا ما أصرّت على تفويض ادارة شؤونها الى أفراد يخرجون حتى من صفوف الاحتراف. يذكر في هذا الصدد وعلى سبيل المثال، الاتحادات النموذجية التي تدار في قسم كبير منها بواسطة جهاز بشري جامعي من خارج صفوفها. وهناك من يشترط أيضاً ان التنظيمات العمالية، وفي مستقبل قريب جداً، ستضطر بدورها لرفض الادارة البروليتارية الخاصة واعطاء الافضلية في ذلك الى افراد يتمتعون بدرجة عالية جداً من التنقيف الاقتصادي والقانوني والفني والتجاري.

وقد بدأ في ايامنا هذه، اخضاع المرشحين لمركز امانة سر رقابة ما لامتحان مخصص لتثبيت وتقوية خيراتهم ومعلوماتهم القانونية وطاقاتهم الملائمة للعمل الذي سوف يقومون به. فالتنظيمات الاشتراكية ذات الاتجاهات السياسية تتم هي أيضاً، وبشكل حيوي، بتدريب مباشر لموظفيها.

لذلك، وبعدها أصبح هذا الاسلوب في اختيار وتدريب الموظفين الاداريين للاحزاب والتجمعات السياسية منها خاصة، معتمداً بشكل ملحوظ، بتا نرى ظهور أشكال من «مدارس لتحضير النشء»، تتيج تزويد المنظمات، وبالسرية اللازمة، بموظفين يتمتعون ببعض «الثقافة العلمية». ففي برلين مثلاً، توجد «مدرسة حزبية» Parteischule منذ العام ١٩٠٦ تعطي دروساً خاصة بمتناول

الذين يودون ان يصبحوا مستخدمين في حزب أو في نقابات عمالية. وتُدفع رواتب أعضاء الهيئة التعليمية في هذه المدرسة من الصندوق المركزي للحزب الاشتراكي الذي يعود له الفضل في تأسيسها. أما فيما يخص رعاية الطلاب وباقي المصاريف التي يستدعيها سير العمل في المدرسة، فإن الحزب والاتحادات العمالية المعنية والمستفيدة تشارك في تحملها. وفضلاً عن ذلك، فإن عائلات الطلاب التي تبقى دون مساعدة ودعم، تحصل على مساعدة مالية تدفع من التنظيمات الإقليمية أو الاتحادات المحلية التي ينتمي إليها الطلاب.

تقوم هذه المدرسة بثلاث دورات دراسية: لقد تردّد الى الدورة الثالثة التي بدأت من أول تشرين أول ١٩٠٨ ولغاية ٣ نيسان ١٩٠٩، ستة وعشرون طالباً، مقابل واحد وثلاثين في الدورة الاولى وثلاثة وثلاثين في الدورة الثانية. أما فيما يخص قبول الطلاب لاحدى هذه الدورات، فإن للرفاق الذين يشغلون عملاً في الحزب أو في أية جمعية متحرقة، أفضلية بالنسبة لغيرهم. والطلاب الذين لا ينتمون الى ادارة أو نظام المكاتب العمالية لحظة قبولهم في المدرسة، فانهم يقدمون أنفسهم اذن للدخول ويعززون الامل بأنهم، في تردهم الى المدرسة، سيتمكنون من تحقيق نواياهم بالسهولة القصوى. أما اولئك الذين لم يخالفهم الحظ بالتجّاح فقد حلوا نوعاً من الغضب والتأفف من الحزب الذي أعادهم الى مزاوله أعمالهم اليومية بعد ان كان قد أقرن لهم الدراسة، وقد توزع المئة والواحد والاربعون طالباً للسنة الدراسية ١٩١٠ - ١٩١١ الى ثلاث فئات:

الاولى: المستخدمون القدامى المجربون والمنتمون الى مختلف فروع الحركة العمالية وعددهم اثنان وخمسون شخصاً.

الثانية: الذين ارتبطوا بخدمة الحزب أو النقابات لحظة خروجهم من المدرسة وعددهم تسعة وأربعون شخصاً.

الثالثة: الذين لم يجدوا بعد عملاً فكرياً وعددهم أربعون شخصاً.

وفي إيطاليا، أسست الجمعية الخيرية L'Unitaria التي هي بين أيدي الاشتراكيين. المدرسة التطبيقية للتشريع الاجتماعي وذلك في العام ١٩٠٥ وفي مدينة ميلان. وقد اشتمل هدف هذه المدرسة على تزويد عدد معين من العمال بالمعلومات التي تجعلهم أهلاً لممارسة الوظائف الخاصة بمراقبة العمل، ولإدارة أعمال الاتحادات وجميعيات المساعدة المتبادلة ومكاتب الاستخدام والإشراف على النفقات المالية التي تنفق في هذا السبيل.

وقد كانت الدراسة في هذه المدرسة تتطلب مدة سنتين، ينال على إثرها الطلاب المنتسبون إليها شهادة يحمل صاحبها عن جدارة لقب وخبر عمل، وتردد إلى هذه المدرسة في العام ١٩٠٨ مئتان وطالبان بينهم سبعة وثلاثون مستخدماً في المنظمات العمالية والتعاونيات وأربعة أمناء سر لمكاتب الاستخدام العمالية وخسة وأربعون مستخدماً تابعين لمن حرية، ومائة وأثنا عشر عاملاً.

لقد تردد في البداية، معظم الطلاب إلى المدرسة المذكورة، بدافع رغبة شخصية أو بنية أن يؤمنوا لأنفسهم، في المستقبل وبواسطة الشهادة (الدبلوم)، أعمالاً خاصة أكثر كسباً من غيرها من الأعمال. ولكن الإدارة قرّرت مؤخراً إلغاء الشهادة واللقب الناتج عنها للشخص الذي يستحقه وأضافته دراسة تكميلية على المنهج السابق يكون فقط، وبشكل خاص، للذين يشغلون حالياً أعمالاً في منظمات عمالية أو هم مخصصون لهذه الأعمال. وسوف ترتب هذه الدراسة الإضافية الخاصة نفقات مالية بقيمة مائتي فرنك للدورة الواحدة، تتحمل قسمًا منها جمعية L'Unitaria والقسم الآخر، المنظمات التي تود إرسال بعض مستخدميها للتأهيل منها.

وفي العام ١٩٠٩، تأسست في تورين مدرسة مشابهة وفق النموذج نفسه وكذلك وفي سبيل الهدف ذاته، وذلك بعناية وإهتمام مكتب عمل هذه المدينة. وحملت اسم المدرسة التطبيقية للثقافة والتشريع الاجتماعي، التي، وعلى الرغم من ذلك، لم تدم طويلاً.

وفي انكلترا أيضاً استخدمت الجمعيات المحترقة والتعاونيات مؤسسة ومعهد روسكين التابعة لجامعة اوكسفورد، وذلك بأن ارسلت اليها أمتابها الذين اخبروا من بين الاكثر قدرة وامكانية، ويتقنون بالتالي الى وظائف ادارية في التنظيمات العمالية.

واتفقت النية أخيراً، في النمسا، على تأسيس مدرسة للحزب وفق النموذج الألماني.

في هذه الاثناء، لم يكن ممكناً نكران أن كل هذه المؤسسات التعليمية المخصصة لتزويد الحزب والتنظيمات العمالية بالموظفين اللازمين لها، قد ساهمت وقبل كل شيء في خلق نخبة عالية بطريقة اصطناعية غير طبيعية من الراغبين في قيادة الجماعات البروليتارية، وهي طبقة حقيقية من الصف الثاني. وهكذا اتسعت الهوة التي نفرق ما بين قياديي الجماهير أكثر فأكثر ودون أية ارادة مسبقة.

ان التخصص التقني، وهو النتيجة التي لا مفر منها لاية منظمة مهما كان حجمها يجعل ما يسمى بادارة الشؤون أمراً ضرورياً لها. ينتج عن ذلك، ان سلطة القرار التي تعتبر احدى الصفات الخاصة للادارة، تسحب شيئاً فشيئاً من أيدي الجماهير لتحصر فقط بين أيدي الزعماء. ولا يتأخر هؤلاء في أن يصبحوا مستقلين عن الجماهير ويخرجوا من نطاق رقابتهم وهم الذين لم يكونوا في البداية سوى العناصر التنفيذية للادارة الجماعية.

ان من يقول بالتنظيم، يقول بالنزعة الى الاوليغارشية. ففي كل منظمة، أكان المقصود حزباً أم اتحاداً لحرف... يظهر الميل الاستقراطي بطريقة واضحة جداً. ان التركيب الداخلي للمنظمة يثير في الجماهير المنظمة تغييرات خطيرة في الوقت الذي يعطي هذا التركيب للمنظمة بنية قوية متاسكة. وبالعكس تماماً مواقف الزعماء والجماهير فيما يخص قضية الاحترام والعلاقات المتبادلة فيما بينهم. من هنا، نرى ان للتنظيم مفعولاً مؤثراً في تقسيم كل حزب أو كل نقابة مهنية الى أقلية حاكمة وأغلبية محكومة.

ان كل منظمة قوية البنية، سواء كان المقصود دولة ديموقراطية أو حزباً سياسياً أو تحالفاً من المقاومة البروليتارية، تستطيع ان تقدم أرضية ملائمة للغاية في تمييز العناصر والوظائف. وبقدر ما تتعقد آلية منظمة ما، أي بقدر ما تشهد مضاعفة عدد اتباعها، وتضخم صناديقها المالية وانتشار صحافتها، بقدر ما يخسر حكم الجماهير المباشر من رصيده الفعلي، وتقوم مقامه سلطة اللجان المتنامية والمضطردة.

يسمح كل حزب بادخال النظام الانتخابي غير المباشر داخل صفوفه، في الوقت الذي يجاربه بحدة لا تقابلها حدة في الحياة العامة. ومع ذلك، يجب على النظام الانتخابي ان يمارس تأثيراً أكثر قوة في المحيط الضيق لحياة حزب ما، منه في تلك الدولة ذات المدى اللامتناهي. اننا نرى، حتى في المؤتمرات التي تمثل، في هذه الاثناء، خلاصة أعضاء الحزب بعد مرورهم عبر سبعة اختبارات قاسية، كيف ان اعادة المسائل الهامة المطروحة على جدول البحث الى اللجان التي تتداولها في جلسات سرية تعود فتتظم أكثر فأكثر.

ان نمو المنظمة واتساع نشاطها يجعلان من مهمة الادارة فيها أكثر صعوبة وتعقيداً من ذي قبل: فنظم واجباتها وتكثر بحيث تحتاج فعلاً لأن تقسم الى اختصاصات معينة، الى حد يصبح معه مستحيلاً أمر الاحاطة بها كلها دفعة واحدة وبرمشة عين. ففي نطاق حركة ما في طور التقدم السريع، ليس العدد المطرد للاتباع فقط هو الذي يفاضل ويستعجل في التمييز والفصل بين الوظائف، انما نوعية هؤلاء تلعب أيضاً دوراً مهماً في ذلك. ان كل افعال الزعماء ونصرفاتهم خاضعة للمراقبة المستمرة من قبل الرؤوسين، وهي بالتالي مغلقة حسب النصوص القانونية. فالزعماء، من الناحية النظرية، ليس سوى مستخدم مرتبط بالتعليقات والامور التي يستقيها من الجماهير، وعليه، تشتمل وظيفته على قبول وتنفيذ أوامرها، اذ انه ليس سوى عضو تنفيذي بسيط.

لكن، في الحقيقة، بقدر ما تكبر المنظمة وتنمو، بقدر ما يصبح حق الرقابة المعترف به للجماهير وهمياً أكثر، وقليل الفاعلية والتأثير. لذلك يستوجب على

الاتباع ان يتنازلوا عن القيادة أو حتى عن مراقبة كل الشؤون الإدارية. ويرون أنفسهم، نتيجة لذلك، مضطرين الى ان يوكّلوا هذه المهمة الى أشخاص يؤمنون عليها، وهم، لهذا الغرض، معينين بشكل خاص، أو الى موظفين يقبضون رواتبهم من المنظمة. وهكذا يتم تحميل دور الجاهل الى حد الاكتفاء ببيانات مكتوبة مختصرة جداً عن أوضاع منظماتهم، أو اللجوء الى لجان مراقبة تشكل خصيصاً لذلك.

ان هذا التحول لا يصدر عن اعتقادات خاصة ولا حتى عن تغييرات قانونية. فبقوة الامور، يستطيع مستخدم عادي ان يرتفع الى صفة زعيم، وان يكسب حرية الحركة التي لم يكن يحق له الحصول عليها. ويعتاد الزعيم عندئذ اغياز معظم الشؤون الهامة وحل عدد متزايد من المسائل المتعلقة ببقاء الحزب. كل هذا يتم بمبادرة شخصية منه، دون أن يأخذ رأي الجاهل ودون أن يطلب مشاركتها ومساعدتها.

هكذا إذن، تضيق تدريجياً دائرة الرقابة الديمقراطية لتجد نفسها أخيراً قد انحسرت عند الحد الأدنى الذي لا يعتد به. ان عدد الوظائف المأخوذة من الجمعيات الانتخابية والمحوّلة الى مجالس الإدارة يتضاعف باستمرار في كل الاحزاب الاشتراكية. ويرتفع بهذه الطريقة بناء قادر جبار، ذو بنية معقدة التركيب. وبما ان مبدا تقسيم العمل يفرض نفسه أكثر فأكثر، فإن الاختصاصات تنقسم هي الاخرى وتجزأ، وبشكل هكذا، وبشكل دقيق للغاية، نظام مكثفي (بيروقراطية) تتوزع فيه الوظائف حسب تسلسل اداري منظم. وتصبح الملاحظة الدقيقة للقواعد الادارية التسلسلية، المادة الاولى في ملف المعلومات والسنن الذي يبين ويمجد بدقة واجبات الحزب. ان هذا التسلسل الاداري هو من فصل الحاجات التقنية، وهو الى ذلك، الشرط الاساسي لعمل ماكينات الحزب المنظم.

لقد وُجد الزعماء في كل الأزمنة، وفي كل مراحل تنمو وفي كل فروع النشاط الانساني. صحيح ان بعض المناضلين، خاصة بين الماركسيين المستقيمين في الاشتراكية الالمانية، يحاولون اليوم اقناعنا بأن ليس للاشتراكية زعماء وإنما لها، وفي أقصى حد، مستخدمون، لأنها حزب ديموقراطي. وإن وجود الزعماء يتنافى والديموقراطية. ولكن اثباتاً مشابهاً، يتعارض والحقيقة، لا يتوافق والقانون الاجتماعي، وإنما له بالعكس، غرض، ألا وهو تقوية سيطرة الزعماء، ينفي عن الجماهير، خطراً يهدد الديموقراطية قمعاً.

لقد كان الرجل الذي يتمتع بالثقة، في بداية عهد الاشتراكية الالمانية، يستمر في ممارسة عمله أو مهنته العادية بالإضافة الى المهمة التي توكل اليه داخل الحزب. وكان تمويضه، عندما يتقاضاه من جراء مهنته هذه، تمويضاً متواضعاً جداً، لا يُمنح له الا لفترة مؤقتة، ولم تكن وظيفته تلك، بالنسبة اليه مورد كسب ورزق. وكان المستخدم في المنظمة رفيق عمل عادي لزملائه الذين يشاركونهم ويقسمون اياهم طريقة الحياة والحالة الاجتماعية. وقد استبدل اليوم، وفي غالب الاحيان، بالسياسي المحترف.

كلما تطور الحزب الحديث نحو شكل من التنظيم أكثر قوة وتماسكاً، كلما ازداد الاقرار بالاتجاه نحو استبدال الزعماء العرضيين بأخرين محترفين. فكل تنظيم حزبي، مهما قلت تعقيداته، يتطلب عدداً معيناً من الاشخاص الذين يكونون له كل نشاطهم وتحركاتهم. وينتدب الجمهور عندئذ الممثلين الضروريين ليقوموا عنه بالاعمال والمهام المطلوبة، بشكل مستمر، ويتفنون الى شؤونه بعد ان يتزودوا بتفويض قانوني لذلك.

ولكن الانطلاقة الاولى لقيادة محترفة، تشير لبداية نهاية الديموقراطية، وذلك، وبشكل خاص جداً، بسبب عدم القدرة المنطقية للنظام التمثيلي نفسه، أكان المقصود بذلك النظام البرلماني أو النظام التفويضي للحزب. لم يكن يملك اصحاب النظريات الديموقراطية من الترداد انه اذا كان الشعب يمارس حقاً في السيادة وهو يقوم بحقه الانتخابي، فانه يتنازل، وفي الوقت

نفسه، عن سيادته. ولقد افضى المطاف بالديموقراطي الكبير Ledru Rollin، اب الرأي العام والمساواة في فرنسا، الى القول بأنه يُفترض إبطال مركز الرئيس والمجلس النيابي، والاعتراف بالجمعية الشعبية كمضو تشريعي وحيد. وكان يبرز اقتراحه هذا قائلاً ان الشعب الذي يدير في كل سنة قدراً كبيراً من الوقت في الاعياد، والعطل والبطالة، يستطيع ان يقوم خلاله بعمل اكثر فائدة مكرسا اياه « لتوطيد استقلالة وعظمته وازدهاره ».

لقد حارب فيكتور كونسيديران Victor Considérant، بشكل اساسي، ومتهمة القدرة، نظرية السيادة الشعبية وان كانت مضمونة من قبل النظام التمثيلي. وكان يقول انه حتى ولو قبلنا نظرياً وبشكل مجرد بأن النظام البرلماني يجسد بالفعل حكم الجماهير، فانه لن يكون عند التطبيق، سوى نوع من الاختلاس المتواصل لحق هذه الجماهير الذي يمارسه رجال السلطة. ولن يبقى آنئذ بين الديموقراطية والملكية، ولكليهما جذور في النظام التمثيلي، سوى فرق بسيط لا يذكر، يطال فقط وزن النظامين لا طبيعتهما. وبدل أن يكون للشعب ملك واحد، فانه يُعطى حشداً من الملوك. وهكذا يجرد الشعب نفسه، بسهولة ووداعة، من حقه الاساسي، وذلك كونه لا يتمتع بالحرية والاستقلال الضروريين لقيادة وتوجيه حياة الدولة، ويستبقى لنفسه « حقاً متقلباً يدعو الى السخرية » باختياره اسبأداً جديداً من وقت لآخر.

ان الملاحظة السياسية التالية لبرودون Proudhon يمكن ان تنسب نقد النظام التمثيلي. يقول برودون: « لم يتغلب، بالأحرى ممثلو الشعب على السلطة التي وضعوا انفسهم في سبيل تعزيزها وتقوية قدرتهم من خلالها. فهم يحيطون موافقهم دائماً، ودون انقطاع، بجنادق دفاعية جديدة، الى ان ينجحوا في التخلص تماماً من الرقابة الشعبية بحق تصرفاتهم. انها لدورة طبيعية محتازها كل سلطة: هذه السلطة المنبثقة من الشعب تنتهي بالارتقاء الى ما فوق الشعب ».

لقد كانت هذه الافكار، حوالي العام ١٨٤٠ منشورة جداً ومقبولة عالمياً تقريباً. ففي فرنسا، بشكل خاص، كان اولئك الذين يهتمون بالعلوم

الاجتماعية والسياسيون المهتمون بالأفكار والآراء الديمقراطية، مقتنعين، الى حد بعيد، بحقيقة تلك الأفكار. كما ان رجال الاكليروس انفسهم ضموا اصواتهم الى الاصوات التي كانت تدعين النظام التمثيلي. وكان الكاثوليكي لويس فيو Louis Veuillot يقول: « عندما انتُخبتُ، وقعتُ مسلواقي وورقة التصويت في الصندوق، وتواريا معاً ».

تدرس هذه النظرية، في ايامنا هذه، في مختلف المدارس الفرضية التي تدافع عنها بكثير من القوة والبلاغة. وقد اعترف ماركس وانكلز بالآخطار التي تنتج عن التمثيل، في الوقت الذي ينشئ فيه هذا الاخير من الرأي العام العالمي. وهذا لم يمنع الماركسيين من ان يستخدموا، بشكل واسع النظام البرلماني حيث تجد نظريتهم سلاحاً جديداً من بين اسلحة عديدة اخرى، في الوقت الذي يشكل لهم في الحقيقة اسلوب التحرك الواحد والفريد. والجدير بالذكر، انه وفي كل مرة ينوّه فيها الماركسيون بآخطار النظام التمثيلي، فانهم يبادرون فوراً الى القول أن ليس على الحزب الاشتراكي التخوف منها.

لقد أخضع فعل السيادة الشعبية الى انتقاد شديد، في ايامنا هذه، من قبل مجموعة من علماء ايطاليين ذوي اتجاهات محافظة: غابيتانو موسكا Gaetano Mosca تكلم على « بئتان الاسطورة البرلمانية » وقال إن هذه الطريقة في فهم وإدراك قضية تمثيل الشعب وكأنها تنازل حر وتلقائي عن سيادة الناخبين. (أغلبية الشعب) لعدد معين من المنتخبين (أقلية)، هذه الطريقة تستند الى برهان سخيف غير معقول: تفترض هذه النظرية، بالفعل، ان بإمكان الأقلية ان ترتبط بإرادة الأكثرية بواسطة روابط متأسكة لا يمكن حل بعضها عن البعض الآخر. ولن يكون هناك مطلقاً، والحالة هذه، أي بئتان او رياء، فما ان ينتهي التصويت حتى تنتهي معه سلطة الناخبين على ممثلهم. ويعتبر الممثل نفسه، عندئذ، وكأنه الحكم المفوض للفصل في الحالة الراهنة؛ ويكون هو بالفعل هذا الحكم. وإذا ما وجد أيضاً بين الجباهير أفراد قادرون على ممارسة بعض التأثير والتفوذ على ممثل الشعب، فانهم دائماً قليلو العدد، وهم الذين

يُسمّون بالناخبين الكبار أو بالمفاتيح الانتخابية للدائرة أو لمكتب الحزب المحلي. بتعبير آخر، ان هؤلاء هم الافراد الذين، وان شكلوا قسماً من الجماهير بفضل موقعهم وحالتهم الاجتماعية، لا يدرون كيف السبيل للتهرب من الانزلاق بين الجماعات الاوليغارشية التي تُبقي سيادة الجماهير تحت نيرها وسلطانها.

ان هذا النقد الموجه ضد النظام التمثيلي يمكن توجيهه أيضاً، وبشكل خاص، ضد الحياة الحديثة التي ترتدي كل يوم أشكالاً أكثر تعقيداً. وكلمياً تعقّدت هذه الاشكال، كلما اصبحت سخيّة ودون جدوى، الرغبة في «تمثيل» جمهور غير متجانس أو متقارب بالنسبة للمسائل العديدة التي بئرها الاختلاف المتصاعد لحياتنا السياسية والاقتصادية. وبما ان كلمة تمثيل تجسد ارادة الجماهير، فانها تعني جعل كل ما هو فردي يرضى بهذه الارادة. ففي بعض الحالات الخاصة والمنفردة، يمكن ان يكون هناك تمثيل، عندما يُقصد مثلاً حل مسائل ذي مواضيع واضحة ومرنة، وعندما تكون، بالاضافة الى ذلك، مدة التفويض قصيرة محدودة، ذلك ان تمثيلاً مستمراً ولفترة طويلة يوازي دائماً زعامة الممثلين على الممثلين.

الفصل الثالث

الحزب الديموقراطي الحديث كحزب مناضل «النضال»

ان الحزب الحديث هو تنظم كفاح بالمعنى السياسي للكلمة. وبما انه كذلك، وجب عليه ان يخضع لقوانين التكتيك أي للقوانين التي تحكم أساليب وطرق التحرك، حسباً يقتضيه الوضع الذي يكافح أو يحارب، لان هذا التكتيك يتطلب سهولة في تجنيد وتجنيد كل الطاقات قبل أي شيء آخر. وهذا ما كان قد أقرز به فريدريش لاسال الكبير F. Lassalle الذي أسس حزباً عمالياً ثورياً. وكان لاسال قد أكد، على الاخص، ان من الواجب اعتبار الديكتاتورية التي كانت توجد آنذاك بالفعل وفي المجتمع الخاضع لادارتها وقيادتها، وكأنها مبررة نظرياً وانه لا بد منها على الصعيد التطبيقي. وكان يقول ان على المليشيات ان تتبع زعيمها بكل وداعة وخضوع، كما ان على الجمعية كلها ان تكون كالمطرفة بين يديه.

لقد كانت هذه الطريقة في رؤية الامور تتجاوب وضرورة سياسية معينة، خاصة اذا ما فكرنا بأن الحركة العمالية، في هذا العصر، لم تكن بعد الا في بداية مسيرتها وفي حالة عسبانية خالية من أية خبرة وتجربة. فكان على الحزب العمالي آنذاك، ان يتبع اسلوباً صارماً في فرض النظام داخل صفوفه، لان ذلك يشكل، بالنسبة اليه الاسلوب الوحيد في أن يفرض احترام وتقدير واعتبار

الاحزاب البورجوازية له. من هنا، كانت المركزية ولا تزال تضمن ابداء السرعة في إيجاد الحلول للمشاكل المطروحة، أو التي تستجد على الساحة. ان تنظيماً واسعاً هو يجد ذاته تركيب ثقل من الصعب تحريكه الى الامام. فعندما يُرغب باستشارة جمهور موزع على مساحة شاسعة، بشأن أية مسألة، أو اذا رغبتنا بدعونه لابداء رأي ما، قلن يكون هذا الرأي، والظروف تلك، إلا مختصراً، تشوبه الريبة والشك. ونكون بذلك قد تعرضنا لمضيق وقت عظيم نحن بأمرس الحاجة اليه.

ان ثمة درجة واحدة من النظام المطلق أو الدكتاتوري تؤمن سرعة توزيع الأوامر المعطاة في معركة الكفاح اليومي ودقة في تنفيذها. ولقد أعلن Van Kol الاشتراكي الهولندي بصراحة، ان تأسيس الديمقراطية الحقيقية لن يكون ممكناً الا في الوقت الذي ينتهي فيه النزاع. ولكن، طالما يدوم هذا النزاع، فان أية ادارة ستحتاج، وان تكن اشتراكية، الى سلطة وقوة كافيتين لان يقرضا. ويصبح اذاً الحكم الاستبدادي المؤقت ضرورياً. فتضطر الحرية نفسها ان تنحني امام الحاجة الى عمل ما سريع الحدوث وبشكل مباشر. وهكذا يصبح خضوع الجماهير لارادة بعض الافراد احدى أكبر الفضائل الديمقراطية وأسماها. اننا نعد هؤلاء الذين دُعوا لقيادتنا بالاخلاص والرضوخ، ونقول لهم: ايها الرجال الذين شرقتكم اختيار الشعب لكم ورفع من شأنكم، يبتوأ لنا الطريق وسوف نتمكم.

ان أفكاراً من هذا النوع هي التي تظهر لنا الطبيعة الحقيقية للحزب الحديث فالديموقراطية المتعمدة في حزب، وفي حزب سياسي مكافح خصوصاً، لا تطبق على الصعيد الداخلي. انها بالاحرى مادة للتصدير. هذا يعني ان كل تنظيم سياسي بحاجة لجهاز بشري محدود لا يعيق التحركات ولا يجعلها دون الفائدة المرجوة منها. هذا، ولا تتنافى الديمقراطية مطلقاً مع السرعة في اتخاذ المواقف الاستراتيجية، كما لا تنسرع قواتها في خوض الحملات والمعارك. من

هنا كانت معاداة الحزب السياسي، وحتى الديمقراطية، للاستثناء، ولبيعة الإجراءات ذات الصلة الديمقراطية. ومن هنا أيضاً كانت الحاجة الى دستور لا يكون أقل صوتاً للمركزية والاوليغارشية وان جاءت ولادته قصيرة بالمعنى المطلق للكلمة.

لقد أكمل م. لاغارديل M. Lagardelle الوصف مضيفاً اليه إلامانات التالية: «ولقد استحدثوا من جديد أساليب سيطرة الرأسماليين ووضعوها تحت تصرف البروليتاريين، وأسسوا حكماً عالياً صارماً كالحكم البورجوازي، وبيروقراطية عالية ثقيلة الظل، كالبيروقراطية البورجوازية، وسلطة مركزية تلغز العمال ما يستطيعون وما لا يستطيعون فعله، وتحطم كل استقلال داخل النقابات وكل مبادرة لدى النقابيين، كما انها توهم أحياناً أصحابها انها تأسف لنابذ وطرق السيطرة الرأسمالية».

يجد وجه الشبه الضيق الذي يتواجد بين الحزب الديمقراطي المكافح والتنظيم العسكري، صداه تماماً في الاصطلاحات اللغوية المأخوذة، في قسم كبير منها وفي المانيا خاصة، من العلوم العسكرية. فما من تعبير واحد وما فيها خص التكتيك العسكري، والاستراتيجية العسكرية والتكتات العسكرية وباختصار فما خص اللغة العسكرية بكاملها، إلا ويتواجد في المواد الاساسية لقاسوس الصحافة والادب الاشتراكي.

وتشهد الرغبة العامة التي بواسطتها ينهمك بعض زعماء الاشتراكية الالمانية الاكثر شهرة، بالمسائل العسكرية، على صحة الرابط الحميم الذي يوجد بين الحزب والجيش.

بينما كان فردريك انجلز F. Engels يقطن في انكلترا، كان يفرح، وهو الناجر الالمانى الذي أمضى خدمته العسكرية حارساً لمدة سنة وبصفة متطوع، بأن يكون، في اوقات فراغه، منظرّاً للاشتراكية والعلم العسكري في الوقت نفسه. بالإضافة الى ذلك، يجب الاعتراف بفضل بابل Bebel، وهو ابن أحد ضباط الصف البروسيين، الذي قدم عدداً كبيراً من المشاريع الاصلاحية ذات

الصفة الفنية (التقنية) والتي لم تكن تحوي أي قاسم مشترك مع النظرية الاشتراكية المضادة للعسكريتاريا. ويمكن أيضاً اعتبار بابل وانجلز خاصة، كاتبين عسكريين بصفة أساسية. ان هذا الميل في دراسة المسائل المتعلقة بالجيش، بعيد عن ان يكون عرضياً لدى الزعماء الاشتراكيين، فهو يصدر عن فطرة أو عن اتجاه طبيعي يتم اختياره وتنقيته اثناء الانتخاب.

الباب الثاني

الأسباب النفسية الموجبة

الفصل الاول

الحق المعنوي في التفويض

يولد الحق المعنوي في التفويض من التفويض الفعلي نفسه . ويبقى المفوضون أو المنتدبون ، وبعد ان يتم انتخابهم ، يمارسون مهامهم دونما انقطاع وتبعاً لمرعاة قانونية أقل تدقيقاً ، بصورة استثنائية ، للنصوص الموضوعية ، او تبعاً لأحداث غير اعتيادية تماماً . وما ان يتم الانتخاب بناء على هدف محدد حتى يصبح عبئاً مدى الحياة . وتتحول العادة الى حق ، وينتهي الفرد المفوض لفترة معينة حسب القانون ، وبشكل نظامي ، بأن يدعي ان التفويض يشكل ملكاً خاصاً له . واذا ما رُفض تجديد فترة انتدابه لسبب ما ، فانه يهدد في الحال بمقابلة الشر بالشر ، بما يسبب في بذر الحيرة والارتباك في صفوف رفاقه ، في الوقت الذي تكون فيه استقالته ما زالت اهوت هذه الشرور واقلها خطراً .. وسوف ينتهي هذا الارتباك دائماً تقريباً بانتصاره . (سرى للتو لأية اسباب).

غالباً ما يستعمل القياديون ، حتى في التنظيمات السياسية الاوسع انتشاراً من الحزب هذه الخدعة التي يجردون بواسطتها أخصامهم الأكثر قوة أو المفترضون كذلك ، ويجبرونهم بالتالي أن يردّوا على تصرف لائق بتصرف أكثر لياقة وتأديباً . وهذا ما يحدث بالضبط في الحالات التي لا يستغنى فيها ، في الواقع ، عن الزعيم الذي يستخدم هذا الاسلوب ، او في الحالات التي تعتبر فيها الجماهير ، انه لا بد من وجوده على رأس الحزب .

ان فعل تقديمه استقالته في الوقت الذي لا يكون فيه هذا العمل إظهاراً

للقنوط واخذاداً للنشاط أو تبياناً للاحتجاج (كما تكون عليه مثلاً حالة رفض الترشيح في مجمع انتخابي لا يقدم للمرشح أي حظ في النجاح)، يشكل للمنتدب، وفي غالب الاحيان، اسلوباً في المحافظة على سلطته وتوطيدها وتعزيزها. ولا يتأخر الزعماء، عند أول حاجز يصطدمون به، عن تقديم استقالتهم، معللين هذا بالتعب الكبير الذي لاقوه ويلاقونه من جراء تحملهم المسؤولية، على انه لا يفوتهم، مع ذلك، ان يبينوا مزاياهم وجدارتهم في التعامل مع الاحداث والمسؤوليات.

لقد غضب الرئيس لاسال Lassalle غضباً شديداً عندما تقدم Vahlteich باقتراحه المتضمن تعديل قوانين الجمعية العامة للعمال الالمان، لجهة اقرار لاحصرية ادارية في العام ١٨٦٤. واقترح على الجمعية الخيار التالي، وكله ثقة واثمان باهليته: «أما ان تكفلوني ضد مواجهات مشابهة، أو أخلو الساحة». فكان ان حصل فوراً، بهذه الطريقة، وبسهولة كبيرة، على استبعاد الانتقاد الشديد للحزب.

وهكذا نجح ترولسترا Troelstra أيضاً، وهو لاسال هولندي، في اسكات أخصامه ورفاقه الاشتراكيين، مهدداً اياهم، باسلوب مثير للعواطف، بالانسحاب والرجوع الى الحياة الخاصة، عندما قال لهم انه اذا لم يتوقفوا عن التحامل عليه بانتقاد أفعاله انتقاداً في غير محله، فان مثاليته لن تقاوم النزعات الداخلية اليومية.

لقد تكرر الفعل نفسه أكثر من مرة في تاريخ الحزب الاشتراكي الايطالي. وغالباً ما يحدث ان يختلف سلوك النواب الاشتراكيين في المجلس النيابي مع أغلبية الحزب حول مسألة مهمة الى حد ما (ملاءمة اعلان الاضراب العام مثلاً). وكذلك بالنسبة لتصويتهم في المؤتمرات حيث كانوا يعارضون أفكار ناخبي دائرتهم المحلية. اذ ذاك يكون اسلوب اعادة الاتفاق واسكات الخصوم جاهزاً ومبيناً تماماً: يهدد النواب بتقديم استقالتهم، أو هم يقدمونها فعلاً، وذلك فقط في سبيل اثارة وتحريك فكرة اجراء استفتاء شعبي جديد للجسم

الانتخابي الذي يعودون اليه ويستدعون تدخله، كونه يشكل السلطة الوحيدة الصالحة لاعلان حكمها النهائي الجازم. وهكذا، وفي ظل هذه الظروف، تتأمن اعادة انتخابهم بشكل شبه دائم، ويجدون انفسهم، نتيجة هذا العمل، متمتعين بحصانة حقيقية، غير قابلة للمنازعة.

وفي المؤتمر الاشتراكي الايطالي المنعقد في بولونيا العام ١٩٠٤، صوت بعض النواب لصالح موضوع البحث الاصلاحى، وذلك خلافاً لرأى أغلبية الرفاق الذين كانوا يمثلونهم في هذا المؤتمر. وكان ان دُعي هؤلاء النواب المخالفون لتبرير تصرفهم هذا، فوضعوا تفويضهم النيابى الذى كانوا يتمتعون به بين أيدي ناخبهم الذين استعجلوا في منحهم عفواً عاماً يشمل حتى الاعمال الماضية، وذلك تحاشياً منهم للمصاريف والمتاعب التى سوف تخلقها حلة انتخابية جديدة، وخوفاً من التعرض لخسارة الدائرة الانتخابية.

اننا نجد في ما مر معنا هنا مآثر ديموقراطية جيدة، انما هي تخفي، بشكل سيئ، أو انها لا تدرك ان تخفي الروح السلطوية التى تمثلها وتحكم نصها. ان أياً كان يطرح مسألة الثقة داخل الحزب، يبدو له وكأنه يجعل الحكم فيها لمناصريه ورفاقه. ولكنه في الحقيقة، يضع كل ثقل سلطته في الميزان، حقيقة كانت هذه السلطة أم وهمية، ويمارس في غالب الاحيان ضغطاً لا يجد الآخرون تجاهه سوى الرضوخ والطاعة.

لذا، يتحاشى الزعماء، بقوة، ان يُظهروا ان تهديداتهم بالاستقالة لا ترمي إلا لتقوية وتعزيز سلطتهم على الجماهير. فهم يعلنون على العكس، ان سلوكهم وتصرفاتهم انما تملى عليهم من قبل الروح الديموقراطية الاكثر صفاء ونقاء، وانها بالتالى برهان ساطع لاحساسهم وورقتهم، لشعورهم بالكرامة الشخصية وللتقدير الذى يكنونه للجماهير. الا اننا ندرك، اذا ما غصنا الى أعماق الامور، ان طريقتهم بالتصرف انما هي، شاؤوا أم أبوا، تبيان للاوليغرشية، واظهار لنزعتهم نحو تخطي ارادة الجماهير. وسواء قُدمت الاستقالات لسوء في النية أو قُدمت فقط في سبيل منع التباين في الاراء بين الزعماء والجماهير وتثبيت الصلة

الضرورة بين هؤلاء وأولئك، فإنها تحمل في طياتها دائماً غرضاً يظهر على أرض الواقع والممارسة، إلا وهو سلطة الزعماء على الجماهير.

الفصل الثاني

حاجة الجماهير الى الزعماء

ليس من قبيل المبالغة ان يُعلن ان عدد الذين يهتمون بالفعل بالشؤون العامة من بين المواطنين الذين يتمتعون بالحقوق السياسية، هو عدد قليل جداً لا يذكر. وان معنى العلاقات الحميمة الكائنة بين الصالح الفردي والصالح العام هو، لدى الاغلبية، قليل الانتشار. ولا يراود الشك ابداً معظم افراد هذه الاغلبية، في ما خص التأثيرات والعواقب التي يمكن ان تمارسها شؤون الهيئة، المسماة دولة، على مصالحهم الخاصة، وعلى ازدهارهم وتقدمهم وعلى حياتهم.

يمكن ملاحظة علامات لا مبالاة سياسية متشابهة ومتجانسة في حياة الاحزاب الديمقراطية. فان اقلية فقط، واحيانا اقلية تدعو الى السخرية، تشارك في اتخاذ قرارات الحزب. كما تنبثق الحلول الهامة المتخذة باسم الحزب الاكثر تقيداً بالديموقراطية، اي الحزب الاشتراكي، وفي غالب الاحيان، عن مجموعة صغيرة من الاعضاء المنتسبين.

ان التنازل عن ممارسة الحقوق الديمقراطية من قبل مجموعات الحزب هو تنازل اختياري بالفعل، الا في الحالات المتعددة والمتكررة حيث تمنع الجماهير المنظمة من المشاركة الفعالة والحيوية في حياة الحزب استناداً لأسباب جغرافية اوتوبوغرافية. ومن المؤكد في كل حال، وبشكل عام، ان مجموعة الحزب

المدينة هي التي تقرر فقط. اما في ما يخص بقية الاعضاء من سكان الريف او مدن المقاطعات البعيدة عن مراكز التجمع الكبيرة، فان دورهم يقتصر على اتمام الواجبات الاجتماعية: كدفع الاشتراكات المتوجبة عليهم من جراء انتسابهم مثلاً والتصويت، في الانتخابات، لصالح المرشحين المعيّنين من قبل تجمع المدينة الكبرى.

بالاضافة الى الأسباب المحلية، فان لدينا هنا برهان ثابت عن التأثير الذي تمارسه الاعتبارات ذات الصلة التكتيكية. فان رجحان دقة التأثير لدى الجماهير المدنية للمنظمة على الجماهير الريفية المشتتة والمنتشرة هنا وهناك، هو ظاهرة تتجاوب والحاجة الى السرعة في ايجاد الحل والاسراع بالتالي في تنفيذه. ان هذه الحاجة بالذات هي التي نوهنا عنها في الفصل الخاص الذي تكلمنا فيه على الاهمية التكتيكية للمنظمة.

وغالباً ما تبرز نخبة تلقائية في المدن الكبيرة نفسها، يظهر على أثرها عدد معين من الأفراد، يواظبون اكثر من غيرهم على حضور جلسات المنظمة، فضلاً عن ان هذا العدد او هذه المجموعة تتألف من فئتين مختلفتين تماماً، كالمتدينين الذين يترددون الى الكنائس: فئة اولئك الذين يحركهم شعور سام بالواجب، وفئة اولئك الذين انما يأتون الى الجلسات فبدافع العادة فقط. ولا تعد هذه المجموعة، وفي جميع البلدان، سوى عدد ضئيل جداً من الأفراد. من هنا نرى ان اغلبية الاعضاء المنتمين الى المنظمة يشعرون حيالها باللامبالاة نفسها التي تشعر بها اغلبية الناخبين حيال المجلس النيابي.

ترفض الاغلبية الاهتمام بشكل حيوي بالمسائل الادارية والتكتيكية حتى في البلدان قديمة العهد بالتربية السياسية الجماعية، كفرنسا مثلاً، وترضخ طوعاً، انطلاقاً من هذه النقطة، للقرارات التي تتخذها مجموعة صغيرة تعودت ان تحضر الاجتماعات الحزبية. فالصراعات الكبيرة، سواء كانت معلنة باسم الماركسية او باسم المبدأ الاصلاحى او باسم المبدأ النقابى، والتي يخوضها الزعماء

في سبيل جعل هذه السياسة اكثر تفضيلاً وامتيازاً عن تلك ، اي تاميناً لتفوقهم ونفوذهم داخل الحزب ، لا تبقى فقط مبهمة من قبل الجمهور وانما تتركه ايضا في فتور تام حيالها .

يمكن ملاحظة الحدث التالي في كل البلدان تقريبا وهو ان الاجتماعات التي تناقش فيها الاحداث السياسية او المثيرة للعواطف (ضريبة القمح، اتهام موجه ضد وزراء ، الثورة الروسية، الخ) وحتى تلك التي تعالج فيها مواضيع المصلحة العامة (اكتشاف مجاهل القطب الشمالي، المحافظة على الصحة الجسدية والروحية) ، ان هذه الاجتماعات تجلب المتاعب وتشغل بال عدد من الناس اكبر بكثير من العدد الذي يهتم بتلك التي يقتصر حضورها على اعضاء الحزب فقط وتخصص لمسائل تكتيكية او نظرية، علما بان هذه المسائل تشكل ، مع ذلك ، اهمية حيوية بالنسبة للعقيدة او للمنظمة .

لقد اتاحت الفرصة لنا نحن بالذات ، بان نرقب هذه الملاحظة في ثلاث مدن نموذجية كبيرة: باريس فرانكفورت - سور - لو - مان وميلان . Franc fort - sur - le - Main, ولقد تمكنا من التحقق انه توجد ، في هذه المراكز الثلاث وعلى الرغم من الاختلافات السياسية والاتنية ، اللامبالاة نفسها حيال شؤون الحزب ، وعدم المواظبة نفسه على حضور الاجتماعات العادية .

ولا تلبى الجماهير العريضة النداء الا في حال وعُدت ان خطيباً ممتازاً سيلقي فيها خطاباً مهماً ، او في حال تلقت كلمة سر عنيفة للغاية ، كذلك التي قيلت في فرنسا مثلاً : « لتسقط الحياة العزيزة ! » او في المانيا : « ليسقط الحكم الشخصي ! ؟ » . وتظهر الجماهير نفسها في حالة استعجال اكبر ، عندما تدعى لحضور عرض سينائي او محاضرة علمية يرافقها فانوس سحري او صور حية تلقي اضواء على موضوع البحث . وباختصار ، ان للجماهير نقطة ضعف تجاه كل ما يبهر عينيها ، وتجاه كل المشاهد التي يتجمع المارة لمشاهدتها ، ببغته مثيرة للدهشة حتى على الطريق العام .

الاحاطة، برمشة عين ودفعة واحدة، بكامل التنظيم السياسي للدولة وهيكليةها المعقدة أكثر. فأكثر؟ تضاف الى هذا التعقيد، وخاصة في الاحزاب الشعبية، الاختلافات العميقة في الثقافة والتعلم التي نوجد في ما بين اعضائها، ونطمح بالتالي الحاجة الى الادارة التي تنيرها الجواهر بنزعة متحركة نامية.

وتظهر هذه النزعة في الاحزاب السياسية لكل البلدان. وتقدم بالتأكيد، بواسطة القوة التي تتحرك بموجبها، من امة لآخرى، اختلافات وجهة، محددة باحتلالات تاريخية او باسباب علم النفس الانثي. ان الشعب الالماني هو الذي يُظهر، بكثير من القوة والشدة، الحاجة لان يكون له شخص يرشده الى الطريق ويقدم له كلمة السر. وتشكل هذه الصفة المشتركة في ما بين كل الطبقات، بما فيها الطبقة البروليتارية، ارضية نفسية هي الاكثر ملائمة وتوافقاً مع انبثاق زعامة قيادية قادرة.

وبالفعل، فاننا نرى ان كل الشروط الضرورية لهذا الغرض متوفرة لدى الالمان، وهي تتمثل في الاستعدادات النفسية للخضوع، وفي الشعور العميق بالسلوك والانضباط. باختصار، ان هذه الشروط هي كل الصفات الموروثة والتي لم تصف بعد من تحكم الجيش البروسي وتسلطه على السياسة، مع كل ما يجعل هذا التحكم من صفات واخطاء، بالإضافة الى الثقة بالسلطة التي تقضي وتحد من كل معنى انتقادي موجه اليها. انطلاقاً من هنا، فان شعوب المقاطعات الرينانية Rhénanes وحدهم، والمتتمتعين بشخصية فردية أكثر ظهوراً، يشكلون، الى حد ما، شذوذاً عما اتينا على ذكره بشأن الشروط الضرورية لقيام الزعامة القيادية القادرة.

ولقد اشار كارل ماركس الى الخطر الذي تحدته خصوصية الطابع الالماني هذا، في الروح الديمقراطية. ومع انه كان هو نفسه زعيم حزب، بكل ما للكلمة من معنى وما تحتمل من قوة في التعبير، ومع انه كان يملك، وبدرجة عالية جداً، الصفات التي نقرضها وتطلبها هذه المهمة، فانه لم يقلل من الاعتقاد بان من الواجب تحذير العمال الالمان من مغبة شرك صارم جداً يحاك

من قبل المنظمة ذاتها. وكان ان قال في رسالة موجهة بهذا الخصوص الى شوتزير Schweltzer ، انه كان من الواجب الاعتناء قبل كل شيء بتنية طعم الاستقلال لدى العامل الالمانى. وقد برر رأيه هذا بقوله ان العامل الالمانى الخاضع منذ ولادته لوصاية البروقراطية يملك ايماناً اعمى في الحكم وفي السلطات القائمة .

ان اللامبالاة التي تظهرها الجماهير في الحياة العامة وفي الاوقات الطبيعية، تصبح، في بعض الحالات، حاجزاً صلباً امام اتساع رقعة الحزب وانتشار سلطته وقدرته. ويحدث ان يتخلى الجمهور عن زعمائه في الوقت نفسه الذي يستعد فيه هؤلاء للقيام بعملهم والمباشرة بتنفيذه. ويقع هذا الحدث في الوقت الذي يقصد فيه تنظيم مايسمى بمظاهرات الاحتجاج.

فالجدد الذي قام به الزعماء الاشتراكيون في العام ١٨٩٥ من اجل احياء حركة ماتعمل في سبيل اقرار مبدأ التصويت وابداء الرأي كان دون اي جدوى، وذلك عندما كانت المسألة المطروحة آنذاك تتعلق بمحصر الحق الانتخابي في منطقة ساكس Saxe بشكل يتناسب والحق الضرب بمئات الالوف من العمال. وسقطت جهود القياديين امام فتور الجماهير وخولهم. وبدأت الصحافة تتكلم بلغة ملتهبة كلها حبة تدعو الى التحرك والوقوف بوجه ما يعترض سبيل الجماهير. وانتشرت لذلك بين الشعوب ملايين النشرات حاملمة الدعوة نفسها التي اطلقتها الصحافة. وكانت النتيجة، وفي خلال عدة ايام، ان انعقد مئة وخسون لقاء احتجاج. ولكن ذلك كله لم يكن ذا فائدة ترجى، اذ انه كان من المستحيل انشاء حركة حقيقية تعمل بجذ في سبيل الهدف المرسوم. وقد كانت الاماكن التي تمت فيها تلك الاجتماعات نصف خالية، وخصوصا في المقاطعات الصغيرة. وكان ان حقق الزعماء، اي اللجنة المركزية والاعضاء المحركون المنتدبون الى اماكن الاجتماعات، من الهدوء واللامبالاة والاستخفاف الذي لا قوه من قبل الجماهير التي كانت قبيل كل تصرف جدي مستجيلا في ذلك الوقت.

الى جانب ذلك، فان فشل الحركة يجب ان يُلغى، وفي قسم كبير منه، على الزعماء انفسهم، لان الجباهير لم تكن تحسب او تدرك فداحة الخسارة التي سوف تتحملها، اذ تغافل، او بالحرى، أهمل الزعماء ان يظهروا لما كل النتائج المرتقبة. كما ان الجباهير، وهي التي اعتادت ان تقاد وتُوجه، تشعر انها بحاجة لان تستعد مسبقاً قبل الشروع بأي عمل او قبل المباشرة بالدخول في حركة عاملة، والتحرك انطلاقاً منها. ولكن، وعندما يشير الزعماء اشارة تدل على ان الجباهير لا تفهم ولا تدرك ماذا يقال او ماذا يحصل بسبب عدم كونها على استعداد لذلك، غانبا، أي الجباهير، تبقى لامبالية وتثبت في موقفها هذا.

ان الحدث التالي يعطي افضل برهان عن عجز الجباهير العضوي والاساسي: ما ان يبرأ النزاع الجباهير من زعمائها، حتى تخلي هذه الجباهير ساحة المعركة هرباً تسوده فوضى عارمة، تماماً كما يهرب وكترغل يغزوه الرعب. اذ ذاك، تنكشف الجباهير وتظهر مجردة من اي فطرة او دافع في سبيل إعادة تنظيم صفوفها، اللهم الا من بعض القادة المجدد الذين يبرزون الى الوجود من ضمنها فوراً ومن تلقاء انفسهم، وهم قادرون على ان يقوموا مقام الزعماء الاوائل المفقودين. كم وكَم من الاضرابات التي لم تتحقق! كم وكَم من الحركات السياسية الفاشلة! كل هذا لان الحكومات عرفت، وفي الوقت المناسب، كيف تضع الزعماء خارج اللعبة وتضمن لهم ما يستعصون به عن تحركاتهم المناهضة حتى ولو تم هذا على حساب الجباهير.

من هنا من هذه الميئة الاكيدة، ولدت الفكرة التي تنسب اثارة كل هذه التحركات الشعبية الى مكائد ودسائس اصطناعية يقوم بها افراد منعزلون يُدْعَوْنَ القواد (أي محررو الفن وقادتها). ويكفي، تبعاً لهذه الفكرة، ابعاد هؤلاء القواد والعمل على كَفِّ يدهم في سبيل ان يصدق اولئك الزعماء ويعتمد على رأيهم بشأن المستجدات على الساحة. وتختفي هذه الفكرة بتأثير بعض المحافظين، بشكل خاص، ذوي العقول المحدودة، الضيقة الافق. إلا انها، وبشهادة اولئك الذين يتعرفون بها، عاجزة عن أن تفهم طبيعة الجمهور

الجمعية. ففي كل الحركات الجماعية، ماعدا بعض الاستثناءات النادرة يسير كل شيء وفق ترتيب طبيعي لا وفق ترتيب اصطناعي. ان الحركة نفسها التي يترأسها زعيم، هي طبيعية قبل اي شيء آخر. وغالباً ما ينزل هذا الزعيم الى الحلبة، حلبة الصراع، لا من تلقاء خاطره وانما مدقوعاً من الظروف التي يعيش. وما ان يجد الجيش نفسه مجرداً من قادته حتى يبدأ الانهيار السريع ويضطرب الموقف. وهذا ايضا حدث لا يقل كونه طبيعياً عن غيره من الاحداث التي ذكرنا.

الا ان ما يفرض على الزعماء مهات ضخمة للغاية فهو الحاجة التي يظهرها الجمهور في ان يكون موجهاً من قبل قيادته، وعجزه بالتالي عن ان يتصرف بغير ما تمليه عليه بدائياته التي تأتيه من الخارج ومن اعلى. ولذلك، فان زعماء الاحزاب السياسية الحديثة لا يعيشون، بالتأكيد، حياة مريحة خالية من المتاعب والمشاغل اليومية. فالمرآكز التي يشغلونها داخل صفوف الحزب ليست بالطبع دون مقابل، ولكن عليهم، ومن اجل الحصول على تفوقهم وامتيازهم، ان يقوموا بعمل متعب، قاس، يجعل من حياتهم كلها مجهوداً دائماً لا يتوقف. لذا، فان عمل الحزب الاشتراكي، وخاصة عمل الاشتراكية الالمانية، الدائم الحركة المتناكس والثابت والذي لا يكل، قد حصل، عن حق، على اعجاب السقدين والخصوم البورجوازيين انفسهم.

ان النشاط الذي يقوم به زعيم حزب يخترق في التنظيمات الديمقراطية هو نشاط متعب لدرجة كبيرة جداً، متلف للصحة و ذو تعقيد بالغ بشكل عام، على الرغم من تقسيم العمل وتوزيعه في ما بين اعضاء الحزب.

يتوجب على الزعيم، تبعاً لذلك، ان يدفع دائماً من رصيده الشخصي. كما انه ليس حراً في ان يمنح نفسه بعض الراحة، فيما لو أحس تعباً أو مرضاً يفرضها عليه. فالمتطلبات التي ترهق كاهله لا تدع له ايّ متنفس أو اية مهلة يستريح خلالها من عناء العمل. كما تعاني الجماهير من هوس عضال تجاه الخطباء الذين يتباهون بمقدرتهم الخطابية، وتجاه الاسماء الكبيرة، وتلتبس، عوضاً

عنها ، اعيالاً أخرى « مشرفة » . ففي مناسبة الاعياد والاحتفالات السنوية التي تشهدها الجماهير الديمقراطية وتنتظر مواعيدها ، وكذلك في مناسبة الاجتماعات الانتخابية والاحتفالات الاقتصادية ، تجد القيادة نفسها ملاحقة من كل جانب بطلبات تقدم اليها وتنتهي كلها بعبارة واحدة هي التالية : « ارسلوا لنا ثوباً » ..

فان اضرباً محلياً عادياً يكفي في ايطاليا ، لكي تستعجل قيادة الحزب بإرسال نائب اشتراكي يمثلها في المكان المعني . وكان حدث ايضاً ، ان تنظيماً ريفياً تابعاً للحزب الاشتراكي الايطالي قد فرض حضور نائب لتكليفه بدراسة الشروط والاحوال المحلية وظروف العمل الزراعي ، وإيجاد السبل الملائمة والكفيلة بتحسينه ، وتقدم مذكرة بهذا الشأن الى الملاكين ، وهكذا الى ان استمرت اقامته في تلك المنطقة مدة اربعة عشر يوماً متتالياً .

بالاضافة الى ذلك ، فان الزعماء مكلفون بان يقوموا بكل انواع الأعمال الأدبية ، وانه يتوجب عليهم ايضاً ، اذا ما كانوا محامين ، ان يهتموا بدعاوى عديدة تهم الحزب وان يعملوا على انهاءها . اما في ما يخص الزعماء الكبار ، الأعلى مرتبة ، فانهم يختنقون ، بكل ما للكلمة من معنى ، تحت وطأة المهات التشريعية التي توكل اليهم .

ان كثافة الوظائف والمهات هي بالفعل إحدى النقاط المميزة للحزب الديمقراطي الحديثة . وليس من النادر مطلقاً أن نرى ، في الحزب الاشتراكي الألماني ، ان الشخص نفسه يشغل دفعة واحدة منصباً في المجلس البلدي للمدينة ، وفي Landtag وفي الريخستاغ Reichstag ، ويدير ، فوق كل ذلك ، اتحاداً للنقابات او جمعية تعاونية . وهذا ما هو قائم ايضاً في بلجيكا وفي هولندا وفي ايطاليا . فكل هذا يجمع للزعيم شرفاً ومجداً وقوة وتأثيراً وتوقفاً على الجماهير التي تجعل من حضوره على رأس الحزب ضرورياً أكثر فأكثر . ولكن هذا ، بالنسبة اليه ، يعني زيادة في العمل والتعب ، في المشاغل والمتاعب والاهتمامات . وانطلاقاً من هذا ، فان ذوي البنيات الجسدية العصبية والقليلة

المتانة والذين لا يتحملون مثل تلك المشقات والمسؤوليات الجسام توافقهم المنية قبل الاوان في اغلب الاحيان.

الفصل الثالث

امتنان الجماهير السياسي

ان عاملاً آخر، اذا صفة معنوية، اكثر سموا، يساهم، بالاضافة الى لامبالاة الجماهير السياسية وحاجتهم الدائمة لمن يقودهم ويوجه خطاهم، في ضمان تفوق وسيادة الزعماء: ان هذا العامل هو عرفان الجميل الذي تبديه الحشود الجماهيرية تجاه الشخصيات التي تتكلم وتكتب باسمها، نيابة عنها. ولقد صنعت هذه الشخصيات لنفسها شهرة كبيرة بانها هي التي تقوم بالدفاع عن الشعب وتلعب دور المستشار له، وانها تحمّلت، في غالب الاحيان، وبدافع الاخلاص لقضيته، الاضطهادات والسجن والنفي، في الوقت الذي كانت فيه الجماهير تستطيع الانصراف الى اعمالها اليومية العادية بكل طمأنينة وهدوء ودونما تمكبر او ازعاج. في هذا الصدد، كان بابل Bebel يقول: «ان للزعماوية ميزة السبر في طليعة الحزب ولم يبدلك ان يكونوا اول من يتلقى الضربات التي يوجهها خصومنا ضد الحزب».

ففي مقابل الخدمات التي يؤديها، لا يطلب هؤلاء الرجال الذين غالباً ما اكتسبوا نوعاً من هالة القداسة والاستشهاد، سوى مكافأة واحدة فقط: العرفان بالجميل. وقد ظهر هذا المطلب احياناً حتى في السجل التاريخي الرسمي للحزب. وأحسّت الحشود نفسها بالامتنان وبعرفان الجميل تجاه مايقوم به

الزعاء، بقوة فائقة.

ليس صحيحاً ألا نقرّ الجاهل بالامتنان، هكذا يجزم الزعاء غالباً. وبينما نكون جيل الملكية والارستقراطية نكران واع وارادي، فان نكران جيل الديموقراطية ليس، وعلى اكبر تقدير، سوى نتيجة حالة من النسيان غير المقصود المتأتى عن التعاقب السريع لمختلف الزعاء على السلطة. ومن البديهي القول، انه، وفي الحياة الداخلية للحزب حيث تتعاقب مختلف النزعات والاتجاهات على السلطة، هو اقل حدوثاً بكثير منه في الحياة العامة، تجد الديموقراطية نفسها اقل تعرضاً من الدولة في مجال تقدم برهانها بعدم الامتنان.

وإذا ما قدم لنا التاريخ استثناءات لهذه القاعدة، هنا وهناك، واظهر لنا، بالمقابل، ان الجمهور هو المذنب وهو المسؤول عن عدم الامتنان الذي اعطاه لنفسه تجاه الزعاء، فانه من الممكن التأكد ان هذا الجمهور يغفي وراءه قدراً مأساوياً كبيراً من الحسد والغيرة. هذا يعني صراعاً شرساً، خفياً، عضالاً بين عدة زعاء في سبيل التحجب الى الشعب، بغية التوصل الى قيادته. وهو صراع يجد فيه الجمهور نفسه مرغماً على التدخل، اذ انه مكلف رسمياً بان يحكم لصالح هذا او ذاك من المتخاصمين وفي حضور كليهما معاً. وما ان يفعل حتى يظهر، وبالضرورة، نكراناً بجميل احد المتنافسين.

الا انه اذا وضعنا جانباً الحالات الاستثنائية هذه، يمكن القول ان الجمهور يدفع لزعائه، بمعنى انه يقدم لهم عرفاناً بالجميل، صادقاً ومخلصاً، هذا العرفان الذي يعتبر واجباً مقدساً. وهكذا مثلاً اظهرت الجاهل المنظمة للحزب الاشتراكي الالماني، وبكثير من النبيل والروح العالية من التضحية، امتنانها لـ Leibniz عندما اوكلت اليه قيادتها، في الوقت الذي كانت فيه قدراته الفكرية والذهنية قد بدأت تزول الى التراجع والزوال، وعينت له راتباً من سبعة آلاف وثمان مارك. وهكذا، عندما تبتن بعد وفاته ان عائلته تشكو وضعاً مادياً صعباً، كما كان متوقعاً، اخذ الحزب على عاتقه مهمة تعلم ابنائه.

ان هذا الشعور يعرفان الجميل يُترجم، غالباً، من قبل الجماهير بالتجديد غير المحدود للتفويض الذي استحقه الزعماء عن جدارة. وفي مؤتمر *Dresde* المنعقد في العام ١٩٠٣، وعندما تعالت الضجة بسبب القرار الذي كان قد اتخذته عدد معين من العناصر الثورية بعدم إعادة انتخاب الاصلاحى انياس اوير *Ignaz Auer* كعضو في مجلس قيادة الحزب، استولى على اغلبيه المندوبين المفوضين سخط عارم ناتج عن ان الرفاق كانوا يشعرون انهم مرتبطون تجاه *Auer* بتقدير وعرفان للجميل ابديين، لانه كان احد مؤسسي الحزب ولانه كان يجسد لهم مرحلة هي من اهم مراحل تاريخ الديموقراطية الاشتراكية.

الفصل الرابع

حاجة الجماهير الى التكرم

غالباً ما تحقق الاحزاب الاشتراكية ذاتها بواسطة زعمائها الى حد اعتماد اسماء هؤلاء الزعماء وكأنها اشياء تعود ملكيتها اليها (أي الى تلك الاحزاب). فنجد مثلاً، كما في ألمانيا ما بين العام ١٨٦٣ والعام ١٩٧٥، لاسالين - اتباع البروسيين، اتباع بروس Brousse واتباع غيد Guesdes، واتباع جوراس Jaurès. وكلها اسماء تعود نسبتها الى احد الزعماء.

ان مسألة اتجاه هذه التسميات الشخصية الى الزوال في بلدان كالألمانيا يمكن ان يُعزى الى نوعين من الاسباب: ان التضاعف العددي والنجاح الانتخابي للحزب جعلاً مسألة التنظيم المطبق على جماهير واسعة، ضرورياً، هذا من جهة؛ اما من جهة ثانية، فقد خلقت الاوليفرشية داخل الحزب، والتي يغار زعماءها بعضهم من البعض الآخر، ديكتاتورية الفرد الواحد.

يمكن، الى هذين السببين، اضافة نقص التام في الشخصيات رفيعة الشأن وذات المستوى المطلوب والتي تملك سلطة مطلقة وغير قابلة للمنازعة.

بشكل عام، تبقى عبادة المناضلين لزعمائهم مخفية، غير ظاهرة، نلوح

وتتكشف بواسطة اشارات بالكاد يمكن ادراكها او الاحساس بها، كلهجة التكريم التي بها يُلفظ اسم الزعيم، كسهولة الانقياد المطلق التي بواسطته يتم الخضوع لادنى اشارة منه، وكالخط الذي يقبل معه اي انتقاد موجه ضد شخصيته. الا انه وعندما تكون شخصيات استثنائية هي المقصودة بالفعل في اوقات التحريض والهيجان، فان الحمية المستترة تظهر اذ ذاك علانية، يرافقها عنف حاد جداً.

في العام ١٨٦٤ استقبل سكان المنطقة الرينانية المتحمسين لدرجة الهوس، لاسال وكأنه الله، ونصبت له، عبر الشوارع، اكاليل من الزهور احتفاءً، كما تلتزمت عليه آسات شرف دققاً كثيفاً من الزهور، بعد ان تم اختيارهن خصيصاً لهذه المناسبة بواسطة اللجان التي انشئت في مختلف المناطق المحلية. وقد تبع عربة الرئيس رتل لامتناه من السيارات المرافقة، وكانت تسود الجمهور حماسة فائقة الحد لا تقاوم، وقد رافق خطبه القصيرة تصفيق حار جنوبي لا مثيل له وخطبه غالباً ما كانت مسرقة ومتشاحنة، تنطوي على تدجيل متجاوز الحد، يستخدمها الزعيم المنتصر، وفي نيته رغبة في تخدي الانتقادات الموجهة اليه اكثر من رغبة في اثارة التصفيق والمنافات.

اننا نرى في هذا، مسيرة انتصار حقيقية لا ينقصها اي شيء: لا اقواس النصر ولا اناشيد التحية والسلام، ولا حتى الاستقبالات المهيبة التي تقيمها البعثات الآتية من البلدان المجاورة. وكان لاسال طموحاً للغاية، ولم يكن بعيداً، كما قال عنه يشارك فيما بعد، عن ان يسائل عما اذا كانت الامبراطورية الالمانية المستقبلية ستؤول الى ملكية هوهنزولرن Hohenzollern او الى ملكية لاسال، التي كانت في رأس اهتماماته.

ليس من الدهشة او من العجب اذا ما ثارت الاحداث التي أتينا على ذكرها، بخيلة لاسال، ووصلت به الى حد التصور والاعتقاد ان بإمكانه ان يبعد خطيبته يجعل دخوله الى العاصمة يوماً وهو رئيس للجمهورية الالمانية، جالساً في عربة فخمة تجرها ستة احصنة بيضاء.

وعندما تشكلت الفرق الغاشية في إيطاليا في العام ١٨٩٢، وهي أولى
تنظيمات العمال الزراعيين، كان لرجالها ونسائها معاً ثقة وإيمان، فالثقي الطبيعة،
يزعمها هذه الحركة. وغالباً ما كان يحمل هؤلاء العمال، في حفلاتهم وموابعهم،
الصليب الى جانب العلم الأحمر، ويرفعون لافتات كتبت عليها عبارات مأخوذة
من أعمال ماركس وكتابات، وذلك لأنهم، وبسبب سذاجتهم، كانوا يخلطون
ما بين المسألة الاجتماعية والعادات الدينية التي اعتادوا عليها في حياتهم العامة
واليومية. وكانوا قرويين وقرويات، يؤمنون بحراسة الزعماء وهم يتوجهون الى
الاجتماعات على انغام الموسيقى وتحت اضواء المشاعل والمصابيح. وكان
الكثيرون منهم يسجدون امام الزعماء عندما يتقدمون للقاء النجاة عليهم وهم
سكري بنشوة العبادة، تماماً كما كانوا يسجدون فيما مضى امام اساقفتهم.

وقد سألت صحفي يورجوازي يوماً، قروياً عجوزاً عضواً في إحدى المنظمات
الاشتراكية، عما اذا كان البرولييتاريون لا يؤمنون بان Defelice وغاريبالدي
يوسكو وكثيرين آخرين من الطلاب الشباب او من المحامين الذين كانوا
يعملون للغاشية وهم من اصل يورجوازي، لا يرغبون ضمناً في ان يتم انتخابهم
فقط كمستشارين عامين وكسواب. فكان جواب هذا القروي مختصراً،
وقصيحاً، وهو «أن دي فيليس وبوسكو ملاكان منزلاً من النساء».

من المتفق عليه ان لا يقدم كل العمال الجواب نفسه على هذا السؤال، وان
الشعب الصقلي كان يمتاز دائماً وبصورة خاصة بعبادة الابطال. وهكذا نرى، في
ايماننا هذه، ان الزعماء في ايطاليا الجنوبية، وحتى في قسم من ايطاليا الوسطى،
لا يزالون يحاطون باساطير ذات طابع ديني.

لقد كان انريكو فيري Enrico Ferri ولمدة معينة من الزمن، معبرداً في
كالابري Calabre كقديس يحمي المواطنين ضد الفساد الحكومي المتفشى آنذاك،
كما استقبل في روما، حيث كان التقليد الكلاسيكي في عبادة الاوثان لا يزال،
قائماً، في صالة معمل كبير للبرية وكأنه «الاعظم بين العظماء»، وذلك باسم كل
التجمعات الشعبية: وقد تم كل هذا لانه كسر زجاجة للتدليل على احتجاجه

ضد مناعب الرقابة التي فرضت عليه من قبل رئيس المجلس في العام ١٩٠١.

ولقد كرم الشعب في هولندا، الوجه دوميلان. Domela N. وهو يغادر السجن كما لم يسبق ان كرم سيد من قبل على حد تعبيره هو بالذات. ولقد كانت صالات الاجتماعات تتحول الى مجتمعات حقيقية زاهرة، اذ كان عدد كبير من المتجمعين يتوافد اليها حاملاً باقات كبيرة من الزهور. (١٨٨٦).

ان حالة مشابهة للجهاير، لا نلاحظ فقط في البلدان المسماة «متخلفة»؛ انها استمرار رجعي لعلم النفس البدائي. ولا يلزمنا برهان على ذلك سوى العبادة الوثنية التي تشكل شخصية النبي الماركسي جول غيسد Jules Guesdes مروضتها، وذلك في المنطقة الصناعية الكبرى في فرنسا. كما يحدث في ايماننا هذه وحتى في المقاطعات العمالية الانكليزية ان تقم الجهاير استقبالا لزعماؤها بذكر بايام لاسال.

ان تكريم الزعماء يدوم الى مابعد مماتهم، حتى ان نقديس اعظمهم شأنًا واعتباراً يتم بكل بساطة. ولم يتأخر الحزب الالمانى بالانقسام الى فرعين، بعد وفاة لاسال الذي انتهى بان يصبح ملكه المطلق: «حزب الكونتيسة هانزفولد او «الخط الانثوي»، كما كان يسميه الخصوم الماركسيون تهماً من الكونتيسة التي كانت تديره، «والخط الذكري» الذي تزعمه ج. ب. فون شويتزر Schweitzer. الا ان هذين الفرعين، وفي الوقت الذي كانا فيه يتصارعان بحدة وخشونة، قد حافظا على قاسم مشترك في ما بينهما، ليس فقط في ما يخص احترام ذكرى لاسال والتمسك بها وانما ايضا في خلاصتها لتنفيذ برنامجها السياسي حتى آخر حرف فيه: فهي هنا تجد عملاً من افضل الاعمال التي عرفها تاريخ الحركة العمالية الحديث. ولم يسلم كارل ماركس نفسه من هذا النوع من التقديس الاشرافي؛ كما اقترب النشاط والحماس التعصبي الذي لا زال، يستخدمه بعض الماركسيين اليوم في الدفاع عنه، من عبادة الاصنام التي استهدفت لاسال في الماضي.

وكما كان مسيحيو الايام السائفة يعطون المواليد الجدد اسما كبار مؤسسي الديانة الجديدة، كالكديس بطرس والقديس بولس، كذلك يعطي الاهالي الاشتراكيون اليوم اطفالهم اسما لاسالو Lassallo (نسبة الى لاسال) وماركسينو (نسبة الى ماركس)، وذلك في بعض اقسام ايطاليا الوسطى حيث نجح الحزب في الانتشار وفي ترسيخ قواعده. ففي هذا رمز الايمان الجديد، اذا صح التعبير، هذا الرمز الذي لا يعطي في الغالب قيمة الا على اثر متاعب تُدفع ثمناً له، ومشاجرات تحدث مع الاهالي الحاقدين او مع موظفي الدولة المدنية العاصين. كما يحدث احيانا ان يكون الثمن باهظاً أكثر، فيكون التسديد آنذاك اضراً مادية جسيمة كخسارة العمل مثلاً... او الى ما هنالك مما بطلال الوضع المادي للعائلة المعنية.

ولا يقل التصرف الذي نقصده، عن ان يكون، غالباً، التعبير الخارجي عن تصور مثالي عميق وصادق؛ هذا اذا كان في بعض الاحيان اظهاراً أو تبياناً لحالة من التعالي المبالغ فيه والذي يغزو حتى اعماق الاوساط العمالية. الا ان هذا التصرف هو دائماً، وفي كل الحالات، برهان واضح للعبادة التي تقامها الجاهير تجاه زعمائها، هذه العبادة التي تجاوزت حدود الاخلاص الواجب إظهاره تجاه الاشخاص الذين قدموا خدمات جلي للحزب لا يمكن تناسيها او تجاهلها.

كما تدل تصرفات الجاهير على انها بحاجة ماسة لأن تنحني ليس فقط امام المثل العليا وانما ايضا امام الافراد الذين يمثلون هذه المثل لاجلهم. بالاضافة الى ان مثالية تلك الجاهير تدفع بها لان تسجد راکمة امام الوهية زمنية ترى نفسها مرتبطة بها بحب عظيم، حب اعمى يتعاطم بقدر ما تتعاطم قساوة الحياة التي تعيشها. ان في الرأي الذي يستخدمه (بيرناردشو) للدلالة على تناقض الديمقراطية والارستقراطية بعض الحقيقة.

ان الحاجة الى العبادة التي تشعر بها الجاهير، غالباً ما تكون الصخرة

البروتزية، الوحيدة التي تدوم وتستمر مع كل التغييرات التي تطرأ على طريقة تفكير هذه الجماهير. وقد أصبح عال ملكة ساكس الصناعيين، وخلال هذه السنوات الاخيرة، اشتراكين شديدي المراس، وهم الذين كانوا فيما مضى بروتستانتين غارقين في العبادة. ومن الممكن بعد هذا، ان يرافق هذا التطور عندهم انقلاب وتغيير تام لكل القيم. الا ان ما هو اكيد وواضح، انه وان أبدعوا الصورة التقليدية للوتر Luther عن الفضل مكان عندهم، فان ذلك لم يكن الا لاستبدالها بصورة بابل.

وفي Emille حيث حقق القرويون تطوراً مماثلاً أنزلت صورة السيدة العذراء بكل بساطة وحلت مكانها صورة الوجه الممجّد Prampollni. وفي ايطاليا الوسطى اختفى الايمان بالاعجوبة السنوية المتمثلة بسيلان دم القديس Janvier امام الايمان باعجوبة قوة السيد اريكوفيري التي تفوق كل قدرة انسانية.

وحدها فقط قوة انتصار الحاجة الدينية تبقى سليمة ناصعة وسط أطلال العالم المعنوي القديم. وغالباً ما تنصرف الجماهير تجاه زعمائها كذاك النحات اليوناني القديم الذي سجد راکماً متعبداً امام عمله، بعد ان كُتِف وصقل تماثلاً صاعقاً لجوبيتر.

وتثير العبادة، بسهولة، كدرا في نفوس من يعتقدون انهم كبار. ان الزهو المفرط الذي لا يخلو، في غالب الاحيان، من بعض العلامات المؤلمة، والذي نلاحظه لدى قيادي الجماهير، ينتج ليس فقط من فكرة ان معظم هؤلاء القيادين عصاميون، وانما ايضا من هذا الجو الحاسي الذي يعيشونه ويتنشقون هواه. ولكن قوة كبيرة من السيطرة تنبعث من هذا الزهو: واذا تؤثر هذه القوة بدورها على الجماهير فانها تحرك ايضاً اعجاب هذه الجماهير بزعماؤها وتشكل لهم هكذا عنصراً جديداً من الثبات في سيادتهم وتفوقهم.

الفصل الخامس

مميزات الزعماء الاضافية

ان الموهبة الخطابية التي يتمتع بها الزعماء هي التي جعلتهم ينجحون، أساساً، في كسب تفوقهم على الجماهير في بداية عهد الحركة العمالية. ولا نجد بين الجمهور الحاشد فرداً واحداً قادراً على التخلص من تأثير قدرة الكلام الخطابي المنمق والمثير عليه. ان جاذبية النبرة الخطابية وتركيبها اللفظي يسيطران على الجمهور الذي تلقى هذه السيطرة تحت تأثير الخطيب دون أي مقاومة.

ان ما يميز الديمقراطية بشكل أساسي، والحالة هذه، هو بالتحديد السهولة التي بها تقع تحت سحر الفعل، فعل الكلمة الخطابية. ان الزعماء، في ظل النظام الديمقراطي، هم خطباء وصحفون منذ ولادتهم. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، غامبيتا Gam betta وكليمنصو Clemenceau في فرنسا، غلادستون Gladstone ولويد جورج في انكلترا، كريسبي Crispy، لويزاتي Louizatti في ايطاليا.

كما يسود الاعتقاد في الدول الديمقراطية، بأن موهبة الكلام هي وحدها القادرة على ان تجعل من الشخص أهلاً لادارة الشؤون العامة. ويمكن أن يقال الكثير بهذا الشأن، وبصورة مطلقة أكثر، في ما يخص الاحزاب الديمقراطية الكبيرة.

ان التأثير الذي يمارسه الكلام الملقى في البلد الذي عرف، قبل غيره من البلدان النظام الديموقراطي، معروف ومدرك. هذا ما كان قد ذكره أديب ايطالي حاذق منذ العام ١٨٢٦ عندما قال: يُظهر الشعب الانكليزي المرهف الاحساس، والكثير البخل آنذاك، وهو يستمع الى رجل يتكلم أمام جمهور عام، اللذة نفسها التي يؤمنها له أشهر الادباء من على خشبة المسرح. واستطاع كارليل Carlyle أيضاً ان يقول عن شعبه: «إذا ما أراد فرد انكليزي ان يصبح رجل دولة أو زعيماً عمالياً، وجب عليه، بادىء ذي بدء، ان يبرهن انه خطيب ماهر».

لقد ثبت للسيد أرنست شارل Ernest Charles في فرنسا، واستناداً الى احصاء دقيق خاص بالنواب، ان الاصغر سناً، من بين ممثلي الاحزاب، والاكثر اندفاعاً، والاكثر حية والاكثر تقدمية هم اما صحفيون واما متكلمون لبقون مهرة.

وكما ينطبق هذا الانبات على الاشتراكيين، فانه ينطبق أيضاً على القوميين والاسلاميين على حد سواء. ويؤيد التاريخ الحديث للحركة السياسية العالمية، هذه الملاحظة ويؤكددها. ان الزعماء التالية اسماؤهم هم خطباء قادرون، كل طبقاً لحقله ونوعيته: جوراس Jaures، غيد GUESDS، لاغسردال Lagardelle، هيرفي Hervé، بابل Beblé، فيري Ferri، توراتي Turati، لابريولا Labriola، رامسي ماك دونالد R. MacDonald، ترولسترا Trolstra، هنريات رولان أدلر H. R. Adler، دازنسكي Daszynski.

من جهة اخرى، يمكن القول ان الموهبة الخطابية تفسر، الى حد كبير، لماذا بقيت شخصية كشخصية ادوار برنستين E. Bernstein في ألمانيا في الخفاء على الرغم من قيمة ووزن عقيدته وتأثيرها الفكري الكبير، ولماذا انتهى دوميلا Domila في هولندا بحسرة مركزه النافذ، ولماذا وجد بول لافارغ P. Laforgue نفسه مبعداً، وهو رجل ذكاء وثقافة عاليين وعلى الرغم من قربانه لكارل ماركس، عن الادارة التطبيقية والنظرية للحزب، ومستبدلاً بفيد

Guesdes، الذي قُضِلَ عليه، والذي يملك ذهنا اقرب الى البساطة، بعيداً عن ان يكون عالماً، الا انه في المقابل خطيب من الدرجة الاولى.

ان الذين يتوقون الى منصب القيادة في المنظمات العالية يقدِّرون تمام التقدير أهمية الفن الخطابي. ففي شهر آذار من العام ١٩٠٩ أعلن الطلاب الاشتراكيون لمعهد روسكين Ruskin College الذي لا يقل عنهم اشتراكية، عن اشمئزازهم من ان أساتذتهم يخصصون لدراسة العلم الاجتماعي وعلم المنطق وقتاً أطول من الوقت المخصص للتأريخ الخطابية. هذا لان الطلاب، وهم سياسيو المستقبل، يدركون تماماً الفائدة التي يمكنهم استخلاصها من الفن الخطابي وخاصة في الميدان الذي يقصدون الوصول اليه. كما انهم يصممون الحصول على إقرار وتصدق مطالبهم هذه ويُصمِّمون تحقيق رغبتهم التامة.

ان السحر الذي يكتسبه الخطيب لدى الجماهير هو سحر لا محدود، اذا صح التعبير. ولكن ما يقدره الجمهور في الخطيب هو المواهب الخطابية، كجمال وقوة الصوت، سلامة الروح والرقّة واللطفافة، بينما لا يعطي هذا الجمهور سوى أهمية ثانوية لمضمون الخطابات الملقاة على مسامعه. ان من يتكلم صارخاً وهو يركض من مكان لآخر وكأنما لدغه عقرب سام ليخطب أمام الشعب، يعتبر بسهولة رفيقاً متحمساً، غيوراً ونشيطاً، ومناضلًا حقيقياً. اما الذي يقوم بإتمام اعمال مفيدة حقاً للحزب وهو جالس الى مكتبه لا يحاضر كثيراً، فإنه يُعتبر اشتراكياً ناقصاً، يُستخف به على الرغم من الجهد الذي يبذره في عمله.

ان الصفات الشخصية التي يعود اليها الفضل في نجاح بعض الافراد في اخضاع الجماهير لسلطنتهم، لمي عديدة ومتنوعة. فضلاً عن انه ليس من الضروري ان تجتمع كل هذه الصفات، التي يمكن اعتبارها من صفات الزعماء الخصوصية، في شخص واحد. وتعود المرتبة الاولى في مجموع هذه الصفات الى قوة الارادة التي تقضع باقي الارادات الضعيفة. ويأتي فيما بعد تتوق المعرفة الذي يلغى نفسه على غيره، وصلابة المعتقدات، ومن ثم ايمان في الآراء

يقارب في غالب الاحيان، حد التعصب لها، ويبحث الجباهير على احترامها بسبب قوته وحدته. الى كل هذه الصفات، تضاف اخيرا طيبة النفس والزهادة. وكلها تذكر الجباهير بصورة السيد المسيح، وتوقظ لديهم المشاعر الدينية الخاملة غير المنطفئة.

اما الذي تتحمل الجباهير نتائجه بدرجة عالية، فانه سحر الشهرة وهبتها. فيكفي لذلك ان يرفع رجل شهر اصبغه حتى يخلق لنفسه في الحال مركزا سياسيا، بالاضافة الى ان الجباهير تمسك بوعده شرف، وهو ان توكل امر ادارة شؤونها الى شخصية شهيرة مرموقة. من هنا، تنحني الحشود دائما، وبملي ارادتها، تحت نبر الافراد المشهورين، ذاتمي الصيت.

ان الرجل الذي يتقدم من هذه الحشود، وجبينه مكلل بالغار، يعتبر وبالدرجة الاولى، وكأنه نصف إله. ويمكنه اذا ما وافق ورضي بان يكون على رأس هذه الجباهير، الاعتاد على تصفيقها وحاستها له. ولا يهم اذا كان معرفة الحقل الذي قطف منه الغار الذي يحيط بجنبه. لقد تمكن لاسال وحده، وهو الشاعر والفيلسوف والمحامي اللامع من نوعية الجباهير العاملة وجعها حول شخصه وهي التي كانت غائبة عن الوعي او متفاداة بقطار الديمقراطية البورجوازية. وكان لاسال نفسه يدرك تماماً التأثير الكبير الذي كانت تحدثه الاسماء الكبيرة على الجمهور، هذا التأثير الذي سمى دائما، وبشق الطرق والاساليب، ان يكسب لحزبه بواسطته رجالا لامعين.

وفي ايطاليا، لم يكن على اتريكو فيري E.Ferrì وهو صغير السن بعد والذي كان ليس فقط استاذاً مسؤولاً في الجامعة وإنما كان يتمتع ايضا بشهرة عالمية كونه مؤسس المدرسة الايطالية الكبيرة الجديدة الخاصة بدراسة علم الجريمة، لم يكن عليه الا ان يتقدم امام الحزب الاشتراكي (في مؤتمر Reggio Emilia في العام ١٨٩٣) ليحصل منه، وفي الحال، على منصب بقيادة التي حافظ عليها مدة خمسة عشرة عاما.

وكذلك بالنسبة الى الانثربولوجي لومبروزو Lambrozo والكاتب

ادموندودي اميسيس - Edmondodi Emicis اللذين لم يلتحقا بالحزب الاشتراكي الا بعد ان ترقعا درجة درجة: فارتقى الاول من مستشار حتم، وارتقى الاخر من لعب دور هوميروس البروليتاريا الايطالية المناضلة. وفي سبيل حصولها على تلك المناصب المشرفة، فانها لم يشعرا بحاجة لتسجيل اسماؤها بصفة اعضاء منتظمين في الحزب. فلقد اخذت بعين الاعتبار بعض بريقيات النهضة وبعض رسائل التعاطف التي ارسلها الى الحزب في مناسبات مختلفة. وفي فرنسا انتصر، دفعة واحدة، كل من جان جوراس J. Jaurès المعروف كفيلسوف جامعي ورجل سياسة راديكالي، وانستول فرانس A. France المعروف كأديب رومنسي، في الحركة العمالية، وحصل على مراكز من الدرجة الاولى دون ان يخضعا لاية فترة تجربة او اختبار. وفي انكلترا، اكتسب الشاعر ويليام موريس W. Morris وبسرعة شعبية كبيرة جدا عندما التحق بالحركة العمالية وهو في الثامنة والاربعين من العمر. تلك كانت ايضا حالة هيرمون غورتر H. Gorter في هولندا، وهو كاتب القصيدة الغنائية الجميلة مي Mel. وتلك ايضا كانت حالة الشاعرة هنرييت رولان هولست H.R.Holst.

وكما نرى في ألمانيا المعاصرة، فان بعض كبار الرجال لم يقرروا ضمنا الانسحاب الى الاحزاب وهم في اوج مجدهم، على الرغم من انهم كانوا من المقتربين الى هذه الاحزاب. وبما يمكن تأكيده والتثبت منه، هو انه لو التحق هوبتمان بعد نجاح مؤلفاته الاولى المشهودة، بالحزب رسميا لكان اليوم من بين الزعماء الاكثر بروزا بين الثلاثة ملايين اشتراكي الماني.

ان تحمل اسماً مألوفاً في بعض الاوساط، بشكل، بالنسبة للشعب، الفضل صفة للحصول على مرتبة الزعامة. ولقد فضلت الجماهير ابداً، وبصورة قطرية، الافراد الذين يأتون اليها حاملين معهم كل ما يملكون من حقوق في الخلود، وهم يطفحون شرفاً وبجداً، على الافراد الزعماء الذين اكتسبوا اسماً في الحزب نفسه، وبعد ان دفعوا ثمة نزاعات طويلة وشرسة.

وهناك بعض الاحداث المعاصرة والمتعلقة بالظاهرة التي نصفها تستحق الذكر ايضاً. وهكذا علمنا التاريخ ان صراعاً وشيكاً سرعان ما يقع بين الزعماء الذين اكتسبوا مرتبتهم في الحزب نفسه واولئك الذين دخلوا الحزب بسحر وهبة ومجد ثم اكتسبوا في الخارج. وغالباً ما يأخذ هذا الصراع حول الزعامة شكل نزاع قانوني بين جناحين. وان ما يثير هذا النزاع هو الرغبة والحمد عند البعض، والزهو والطموح عند البعض الآخر.

الى هذه العوامل الذاتية تضاف ايضاً اسباب موضوعية ظاهرة واخرى تكيفية. ان الزعم الذي اكتسب درجاته في الحزب، يتفوق، بشكل عام، على الزعيم الذي يملك قوته من الخارج قبل دخوله الحزب، وذلك لانه يملك حساً سريعاً، ومعرفة اكثر عمقا في علم نفس الجماهير وفي تاريخ الحركة العمالية. كما يملك، وفي كثير من الحالات، فكرة اوضح للمضمون العقائدي لبرنامج الحزب.

وفي النزاع الدائر بين مجموعتي الزعماء المتناحرتين يمكن ان نبصر، دائماً تقريباً، مرحلتين مختلفتين: الاولى، عندما يبدأ الكبار الذين دخلوا الحزب حديثاً بالنزاع سلطة الزعماء القدامى التي كانت تمارس على الجماهير، والشروع بالتبشير بانجيلهم الجديد الذي تتقبله الحشود بحماسة مجنونة لا مثيل لها. إلا ان الضوء الذي ينير طريق انتشار هذا الانجيل لا ينبعث من خزان الافكار الذهبية التي يشكل مجموعها الاشتراكية بمعناها الكامل، وانما ينبعث من العلم او من الفن الذي سبق وحصل الكبار بموجبها على مجدهم واعجاب الجماهير بهم، هذا الاعجاب الذي اثاروه واحداثوه لدى العامة القوضوية وغير المنظمة.

تلك كانت المرحلة الاولى في النزاع السابق ذكره. اما المرحلة الثانية فهي ان الزعماء القدامى المعبأين حقداً، ينتهون بدورهم، وبعد ان ينظموا صفوفهم خلسة، بأخذ مبادرة الهجوم العنفي، ولهم، فضلاً عن ذلك، وحسب رأيهم، افضلية طبيعية في الانتصار نتيجة رجحان عدد الاعضاء الذين يؤيدونهم. عندها، غالباً ما يحدث ان يضع صواب الزعماء الجدد، وذلك لانهم كانوا

يحتلون النفس، غروراً وتوهاً، أنهم يبنّون عن أية مفاجأة من هذا النوع: أوليس الزعماء القدامى بالفعل أفراداً ضعفاء لم يتوصلوا الى المرتبة التي يحتلون الا بعد فترة طويلة وشاقة من التمرين والاستعداد؟ إلا ان الزعماء الكبار الجدد لم يأبهوا ولم يعبروا هذه الفترة من الاستعداد والتهيئة التي خضع لها الزعماء القدامى أية أهمية، بل على العكس من ذلك، فقد اعتبروها دنساً لم وميزة تخدم مصلحتهم ونصب في رجحان دقة تفوقهم، لانها لا تعطي، حسب رأيهم، أية ميزات فكرية تساعد في المنافسة الدائرة. الى جانب كل هذا، فقد نظر الكبار الجدد الى هذه الفترة الاستعدادية نظرة ازدراء وشفقة، وهم اذ ينظرون اليها، فانما ينظرون الى الزعماء القدامى، ويستخفون كفاءتهم ومزاياهم.

ولكن هناك اسباباً اخرى تسبب دائماً تقريباً، في سقوط الرجال المشهورين بالنزاع الذي نصف. فرفض الشعراء او الفنانين او العلماء الانصياع والقبول باتباع طريق السلوك المشترك للحزب، ويمثلون لذلك، على الاشكال الخارجية للديموقراطية، اي انهم يعتبرون ان الانضباط المفروض مراعاته داخل الحزب لا يشكل جوهر الديموقراطية، وانما هو شكل من الاشكال الخارجية التي يجب الا تتوقف الديموقراطية عنده وفي هذا تفسير كافٍ لعدم انضباطيتهم، لا بل لتفريطهم من السلوك الذي يفرضه عليهم مجرد انتمائهم للحزب. وها دليل على انهم دون المستوى المطلوب، لان الجماهير تتمسك كثيراً بهذه الاشكال وتعتبرها اهتماماً كبيراً حتى عندما يحكمها نظام اوليغارشى. هذا ولا يرتكب الخصوم ايضاً خطأ الاستفادة من هذا الضعف ليقبلوا من اعتبار وتقدير الجماهير للزعماء الكبار، في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء الخصوم أقل ديموقراطية ربما، ولكن أكثر فطنة، على أي حال.

وننصف الى كل هذا، ان الزعماء الكبار لم يعتادوا ان يواجهوا اعتراضاً منهجياً واضحاً وذلك انه ليس باستطاعة اعضائهم ان تتحمل الكثير نتيجة عدم تمتعهم بالنفس الطويل والمطلوب في مثل هذه الحالات. ولذلك نفهم اخيراً لماذا يتوصلون في غالب الاحيان الى ترك النزاع، ومن ثم الانسحاب، او انهم

يقررون تأليف جبهة جانبية تعمل لحسابها الخاص. اما بعض الذين يُتَقَرَّون مع ذلك، في الحزب، فانهم يُدَقِّقُونَ الى الورد، الى الصف الثاني، من قبل الزعماء القدامى.

لقد سبق للاسال Lassalle العظيم ان وجد منافساً خطيراً في شخص يوليوس فالتنغ Julius Faltich العامل السابق المتواضع. ونجح حقاً في التخلص منه. إلا انه، ولو قُدِّرَ للاسال ان يعيش طويلاً لكان عليه ان يتحمل ويقاسي نزاعاً لا هوادة فيه ضد لايبناخت Leibnecht وبابل، وهو نزاع لم يكن ليخرج منه منتصراً.

ولقد وجد وليام موريس نفسه مقيداً، على اثر قطع العلاقة التي كانت بينه وبين زعماء الحركة المهنية القدامى، الى الحد الذي لم يعد ممكناً معه ان يمارس صلاحياته وان يلقى اوامره الا على مجموعة صغيرة من مؤيدي افكاره في منطقة هامر. Hammer.

ولقد ارتكب انريكوفيري E.Ferrl اخطاء نظرية وتطبيقية وضعت حداً نهائياً لدوره كزعيم رسمي للحزب الاشتراكي، وذلك على اثر اصطدامه بعدم ثقة الزعماء القدامى به منذ دخوله الى الحزب.

وبعد ان خلق غورتر Gorter وهنريات رولان - هولست H.R.Holst حولها، وخلال بضعة سنوات، حاسمة هي الاكثر تأثيراً، فقد انتهيا بان تعدهما اعيان الحزب ووجهائوه القدامى الذين حولاهما الى حالة من المعجز المطلق.

ان السحر الذي يمارسه المجد المكتسب خارج نطاق الكادرات الرسمية للحركة على الجماهير هو اذاً سحر زائل نسبياً، وذلك استناداً الى النهاية التي وصل اليها كل الزعماء الذين اتينا على ذكرهم فيما سبق.

اما فيما يخص عمر الزعماء، فانه يبقى دون اية اهمية تذكر. لقد كان الاغريقون القدماء يقولون ان الشَّعْر الابيض هو للتاج الاول الذي يجب ان

يحيط بجبين الزعماء . الا أننا نعيش عصراً لا يشعر معظم حاجة تجاه خبرة عميقة في الحياة، اذ قد وضع العلم بين ايدي الجميع اساليب متنوعة في التعليم والتثقيف والمعرفة تجعل من الاكثر حداثة، وفي قليل من الوقت، خزاناً من المعلومات والمعارف العلمية. فكل شئ اليوم يكتسب سريعاً بما في ذلك الخبرة التي كانت تشكل فيما مضى امتيازاً القدامى الوحيد والحقيقي على عنصر الشباب الاصغر سناً.

ولقد خسرت الشيخوخة، في ايماننا هذه الكثير من القيمة التي كانت تتمتع بها في السابق، كما انها خسرت بالنتالي الاحترام التي كانت توحى، والتأثير الذي تمارسه. (ولا يتوقف هذا على الديمقراطية وانما على النموذج الفني للمدينة الحديثة).

وتختلف الحالة بالطبع فيما يخص الزعماء الذين امضوا شبابهم وشاخوا في خدمة الحزب نفسه. فالشيخوخة اذا تشكل بالتأكيد عنصر تفوق وامتياز، اذا ما داهمت الشخص المعني وهو يجارب ويناضل تحت راية الحزب. بالاضافة الى ذلك، فالزعم القديم يتفوق على المبتدى، كونه يملك معرفة اكثر عمقا للتقارير الخاصة بالمشاكل والافعال التي تكون لحة او نتاج السياسة وعلم النفس الشعبيين، هذا اذا وضعنا جانباً وتجاهلنا الحديث عن العرفان بالجميل الذي تكنه الجماهير للمناضل القديم مقابل الخدمات الجلّى التي قدمها في سبيل القضية. ينتج عن ذلك، ان سلوكه في الممارسة والتطبيق سيصبح موجهاً برقة ولطافة في الاحساس والادراك، يصعب على عنصر الشباب ان ينال منه بعدئذ.

الباب الثالث

عوامل ذهنية

التفوق الذهني للزعماء المحترفين عدم اهلية الجماهير القطعية والحقيقية

لقد كان عدد القياديين المحترفين قليلا جداً، في بداية عهد الحزب الاشتراكي، عندما كانت المنظمة لا تزال ضعيفة بعد ومشتتة الصفوف، متمسك، لابل تعلق أهمية كبرى، بشكل خاص، على مسألة انتشار المبادئ الأساسية للاشتراكية.

الا ان تقدم المنظمة وتطورها لم يتوقفاً عن ابراز واحداث حاجات جديدة مستمرة، وذلك داخل صفوف الحزب كما في خارجها. ويحدث ان نصل الى وقت لا يعد المذهب المثالي وحاسة المتقنين ولا الارادة الحسنة والعمل الذي يقوم به البروليتاريون من تلقاء انفسهم في اوقات فراغهم ايام الاحاد، لا يعود هذا كله يفي مطلقاً لارضاء متطلبات الموقف الواهن. وعندها يغلي المؤقت مكانه للدائم المستمر، والهواية للعمل المحترف، اي للحرفة.

وانطلاقاً من وجهة النظر التعليمية، ومع بداية ولادة قيادة محترفة جديدة، يبدأ الفارق الموجود بين الزعماء والجماهير بالتعاظم. وقد علمتنا تجربة طويلة، ان من بين العوامل التي تضمن سيطرة الاقلية على الاغلبية، مايلي: المال وما يعادله (تفوق اقتصادي)، والتقليد (تفوق تاريخي)، وتمود الدرجة الاولى الى ثقافة أولئك الذين يطمحون الى السيطرة، أي الى التفوق الذهني. الا ان

ملاحظة سطحية للأمور، تكشف لنا أن الزعماء في الأحزاب البروليتارية هم أعلى درجة من الجماهير نتيجة الثقافة أو الذهنية التي يملكون.

من جهة أخرى، فإن تركيبة الحزب الاشتراكي تقدم للعالم إمكانية شق طريق أو مسلك خاص يخلق لهم قوة استمالة تستحق الاعتبار، وتُأرّس عليهم بالتالي من قبل الزعماء، وذلك بفضل المناصب العديدة المشرفة التي يشغلونها مكافأة لهم. ينتج عن هذا، أن عدداً معيناً من العمال الذي يتحلّون، إلى حد ما، بقدر من الثقافة، يبدون أنفسهم وقد تحوّلوا إلى مستخدمين يسلكون في وجودهم وطريقة حياتهم مسلك البرجوازيين الصغار مع تمتعهم بالفرصة التي تسمح لهم باكتساب ثقافة عالية ورؤيا أكثر صفاء للعلاقات الاجتماعية. ويتم كل ذلك على حساب الجماهير.

وبينا يجعل العمل المحترف ومتطلبات الحياة اليومية من المعرفة العميقة للشبائك الاجتماعي، وخاصة لحركة وكيفية سير الماكينة السياسية، أمراً صعب المثال بالنسبة للجماهير، فإن العامل الذي أصبح زعيماً، هو بالعكس وبفضل مركزه الجديد، قادر على الاطلاع على كل تفاصيل الحياة العامة، وقادراً أيضاً على إنهاء تفوقه على موكله.

وبقدر ما تتعقد المهنة السياسية وبقدر ما تتزايد قواعد التشريع الاجتماعي، فإنه من الواجب تملك حيازة تجربة أكبر فأكبر ودراسة أوسع فأوسع من أجل الاهتداء ورسم خطة عمل موجهة في السياسة. كما أن الهوة التي تفصل بين الزعماء والجماهير تتسع هي أيضاً أكثر فأكثر، ويحدث أن يصل وقت يخسر معه الزعماء كل شعور بالتضامن مع الطبقة التي تفرغوا عنها. عند ذلك يظهر تقسم حقيقي إلى طبقات سفلى؛ طبقة القادة البروليتاريين سابقاً، وطبقة الجنود البروليتاريين. وعندما ينتخب العمال زعماءهم، فإنهم يخلعون لأنفسهم، من جراء عملهم هذا، سياداً جديداً تشكل ثقافتهم العالية السلاح الأساسي لسيطرتهم وتفوقهم.

ولا يشدد هؤلاء الأسياد على أظهار تأثيرهم ونفوذهم فقط في المنظمة النقابية، في إدارة وصحافة الحزب، وإنما يحتكرون، على السواء، وهم حال أو

بورجوازيون سابقون. التمثيل البرلماني للحزب.

ان كل الاحزاب، في أيامنا هذه، تسعى وراء هدف برلماني، فتطوّر لذلك نشاطها على الجبهة الانتخابية والقانونية، اذ ان النهاية المباشرة لهذا النشاط تكمن في الحصول على نفوذ برلماني داخل المجلس النيابي، هذا النفوذ الذي ينتهي « بالسيطرة على السلطات العامة ».

ان التوصل الى دخول ممثلي الاحزاب الثورية الى الجسم التشريعي، انما يكون، من اجل الوصول الى هذه السيطرة وهذا الانتصار. ولكن العمل البرلماني الذي يقومون به داخل الندوة النيابية، ولو تم في البداية قسراً، ثم أصبح فيها بعد عملاً يتم برضى ونشاط متزايدين، فانه يبعدهم اكثر فأكثر عن ناخبهم. وينتج عن المسائل التي تطرح امامهم والتي تتطلب المزيد من التحضير الجدي للتحرف اليها، اتساع وتعميق الصلاحية الفنية ومضاعفة المسافة التي تفصلهم عن بقية الرفاق. وبهذه الطريقة، يتوصل الزعماء الى حيازة « ثقافة » حقيقية، هذا اذا كانوا محرومين منها في السابق. والثقافة هنا تعني امكانية ممارسة الزعماء سلطتهم على الجماهير.

وبقدر ما يطلع الزعماء على تفاصيل الحياة السياسية، وبقدر ما يتأقلمون مع مختلف أنواع المسائل الضريبية والجمركية ومع مشاكل السياسة الخارجية، فانهم يكتسبون أهمية تجعل منهم في المستقبل اشخاصاً لا يمكن الاستغناء عنهم، طالما ان الاحزاب تستمر في ممارسة التكتيك او اللعبة البرلمانية، حتى الى ما بعد تركهم لها ربما.

بالإضافة الى انه من الطبيعي جداً ان لا تُستغنى عن هؤلاء الزعماء، طالما انه لا يمكن استبدالهم، ذلك ان بقية اعضاء الحزب منهمكون باهتماماتهم وأشغالهم اليومية وهم الى ذلك غريباء عن التركيبة البروقراطية وماكينتها التي باتت يتقنها الزعماء افضل اتقان خلال ترحّلهم بالعمل النيابي وحضورهم الجلسات ولو الجلسات. وان معارف الزعماء الفنية ودرايتهم للامور، وبفضل الاهلية التي تخلقها في الحرف التي يسهل على الجمهور القيام بها، تؤمن هؤلاء الزعماء،

ضمناً، ثباتاً لا يخلو من الحاق الضرر بمبادئ الديمقراطية

لقد سبق ورأينا ان الاهلية الفنية التي يملكها الزعماء، والتي ترفع بهم نهائياً الى درجة أعلى من درجة الجمهور وتُخضع هذا الاخير لأوامر أولئك، ستجد نفسها، فيما بعد، معززة بعوامل أخرى كالروتين مثلاً والمهارة أو حسن التصرف الاجتماعي الذي يكتسبه الزعماء من المجلس النيابي، والاختصاص الذي يجوزون عليه وهم اعضاء في اللجان النيابية. ويسمى هؤلاء الزعماء، بعد ذلك، وبشكل طبيعي، الى تطبيق الحيل والمناورات التي تلقونها داخل الوسط البرلماني في الحياة المعادية للأحزاب؛ وهي هذه الحيل وهذه المناورات بالذات التي يعود لها الفضل في انهم يتنجحون غالباً، وبسهولة، بالوقوف بوجه تيارات مناهضة لهم، واضعين لها هكذا حداً.

من هنا، وانطلاقاً من هذه الوقائع، يصبح البرلمانيون أسياداً في فن قيادة الجمعيات، وفي تطبيق وتفسير القواعد النظامية، وفي اقتراح الآراء في الاوقات الملائمة. باختصار، فانهم يصبحون اسياداً يتقنون استعمال كل انواع الحيل والمناورات ليمعدوا عن المناقشة كل النقاط المتناقضة التي يمكن ان تخلق حولها خلافاً، ولينزعوا تصويماً يصب في مصلحتهم من جانب الاغلبية المعادية، او على الاقل، وفي اسوأ الحالات، اسكات هذه الاقلية. وكثيرة هي الاساليب والوسائل المطلوبة من اجل الوصول الى هذا الهدف. وهي تبدأ من الطريقة الماهرة والغامضة احياناً في طرح السؤال، في الوقت نفسه الذي يتم فيه التصويت، وحتى في إملاء الرأي الذي يُأرَس على الجمهور بواسطة تلميحَات لا تؤثر على الحضور اذ لاعلاقة لها البتة بالسؤال المطروح.

ان كثيراً من النواب يعرفون كيف يجعلون من السؤال الاكثر بساطة والاكثر طبيعية في العالم، سرّاً مقدساً يملكون وحدهم مفتاح حله، ويعود هذا لكثرة الانحرافات والاستطردات البعيدة عن الموضوع الرئيسي وللعداوة في الكلام ولطاقة المصطلحات الخاصة التي يستعملونها. ويقومون بكل ذلك بصفتهم ضباط ارتباط ورجلاً ذوي صلاحية واهلية يدركون كفاية تشعّبات

ودها ليز الأمور السرية المقصود معالجتها. وهم، مع كل هذا، يعملون من الجاهير العريضة التي يفترض ان يكونوا بالنسبة اليها شارحي ومفسري النظريات، عاجزة عن اللحاق بهم وعن فهمهم، وحتى عن ممارسة اية رقابة فنية عليهم، وفي احسن الحالات سواء كان ذلك عن حسن نية منهم ام عن سوء نية. وهم بذلك اسياد الموقف الحقيقيون بكل ما للكلمة من معنى.

ان مسألة عدم المساس بالنسب أو بالمواقف التي يتخذونها تستمر في التزايد، كما يتميز مقامهم المميز، لدى اخصامهم السياسيين كما في الرأي العام لحازبيهم، وذلك بفضل الشهرة التي تؤمنها لهم موهبتهم الخطابية أو موهبة اختصاصهم أو سحر شخصيتهم المثقة أو حتى تركيبتهم الجسدية الظاهرة. ان تمزق الجاهير للمنظمة زعماً محترماً ومقدراً عالمياً، هو امر يضع الحزب في حالة من عدم الثقة ويرميه في هوة عميقة من الضياع حتى في عيون البلد نفسه.

واذا ما دفعت الجاهير التي يتألف منها الحزب، بخلاف دائر بينها وبين الزعماء، الى اقصى حد من التفرة، فانه ينتج عن ذلك خسارة سيالية جسيمة تطالها هي بالذات. فمن جهة، سوف يعني هذا، استبدالاً مباشراً للزعماء المستقلين الذين يشغلون وظائفها، هؤلاء الزعماء الذين ان توصلوا للتأقلم مع المادة السياسية، فبعد عشرات السنين من العمل التطبيقي والممارسة الخالية من الملل أو التعب، اذ، من هو الحزب الذي يتمكن أن يجد بين لبله وضاحتها، قوى أو امكانات جديدة. بالعدد الكافي وبالصيغة المطلوبة لانعاش هذا التعبير أو هذا الاستبدال؟ ومن جهة اخرى، أوليست الجاهير مدينة في قسم كبير من نجاحها في حقل التشريع الاجتاعي والكفاح من أجل نصره الحريات السياسية العامة للنموذ الشخصي الذي يضيف زعماءها البرلمانيون القدامى على المواقف والاعراض المتخذة؟

لا شك في أن الجاهير الديمقراطية تتحمل ونعاني هكذا من تقييد لارادتها، عندما تكون مرغمة على منح زعمائها سلطة تهدم مع الوقت حتى مبدأ الديمقراطية. والصيغة الأكثر فعالية بالنسبة للزعماء، انما تكمن في عدم

الاستغناء عنهم. لذلك فإن إيا كان يتمتع بهذا اللقب أو بهذه الصفة، بمعنى أنه لا يستغنى عنه، يُخضع لسلطته كل ذوي القدرة وكل أسياد الأرض.

إن تاريخ الأحزاب العالمة يقدم لنا، في كل يوم، حالات جديدة حيث لا يتخذ المناضلون لأنفسهم قرار استقلال كل النتائج التي تصدر منطقياً عن حالة الزعماء الذين يضمنون أنفسهم في تناقض واضح مع المبادئ الأساسية للحركة.

كثيرون هم الخطباء البرلمانيون وقياديو المنظمات الذين يجدون أنفسهم في تناقض مع الجماهير، سواء في ممارساتهم أم في تفكيرهم النظري؛ ولا يتمتع هذا من الاستمرار في التفكير والتصرف بكل طائفة وهدوء، وباسم هذه الجماهير أيضاً، التي تشهد بقلق واشمئزاز تصرفات ورجالها الكبار، دون أن تتجراً، بشكل عام، على التحرر والتخلص منهم وعلى عزلهم من مناصبهم.

من هنا يتحقق عدم اختصاص الجماهير، وتؤكد لأهليتهم في كل مبادئ الحياة السياسية. وهذه تشكل، بالتالي، الأساس الأكثر متانة وقوة والذي تركز عليه سلطة الزعماء وتستند. كما أن عدم مقدرتهم هذا، يعطي هؤلاء الزعماء تبريراً ملموساً على أرض الواقع، تبريراً معنوياً إلى حد ما. أن عدم قدرة الجماهير في إدارة مصالحها الخاصة، يجعل من وجود رجال أعمال يهتمون من أجلها بتسيير هذه الأعمال وهذه المصالح أمراً ضرورياً لاغنى عنه. فلا ضير إذن، في أن يفرض الزعماء أنفسهم أحياناً قادة للجماهير، إذا ما ارتكزنا في تحليلنا وانطلقنا من وجهة النظر القائلة بعدم أهلية الجماهير وقلة كفاءتها. إن اختيار الجماهير لزعمائها بواسطة الانتخاب الكامل الحرية، يفترض أنها تملك الكفاءة الضرورية لتكون قادرة في مسألة معرفة وتقدير أهلية الزعماء وقدرتهم. بعبارة أخرى، أن تعيين القدرات يفترض القدرة في التمييز.

لقد أدرك بعض مناصري الديمقراطية الأكثر نشاطاً وحية لها، عدم كفاية النضج السياسي لدى الجماهير، والمعجز الذي تظهره في تحقيق مطلب السيادة

الشعبية بكامل معانيها، وذلك منذ Condorcet واليعقوبيين في الزمن الثوري حتى برنشتاين Bernatein وكوتسكي. وإذا ما استخلص الزعماء تبريراً نظرياً لسيطرتهم الفاعلة، فأنما يستخلصونه من عدم أهلية الجماهير الحقيقية والتي لانزاع حولها.

وهذه حقيقة تنطبق، بشكل خاص، في انكلترا حيث خلق توماس كارليل T. Carlyle نظرية «البطولة»، أي نظرية الرجال الكبار.

وفي ألمانيا، رُفِضَت هذه النظرية إذ لفظتها آراء العلماء، واستبدلت بنظرية المادية التاريخية، وهي النظرية الرسمية للحزب الاشتراكي، والتي نَقَّذَت حتى إلى تلك الفكرة العلمية.

وبالعكس، فقد أعلن الاشتراكيون الانكليز دائماً وعلنية، وعلى اختلاف ميولهم، انه يجب على الديمقراطية ان تتحمل ضغط نوع من الاستبدادية المقبولة دونما اكراه او الزام، من اجل ان تكون أكثر فاعلية وتأثير: «يملك الزعم صورة أو مخططاً واضحاً لما يقوم بتنفيذه، كما يملك السلطة التي تحمل من عمله هذا أكثر فعالية وأكثر تأثيراً».

وفي ما خص مسألة القيام بكل الشؤون الادارية والتكنيكية، حيث يتطلب القرار دراية ومعارف خصوصية، والتنفيذ، سلطة معينة، تجد الجماهير نفسها مضطرة للقبول بدرجة معينة من الاستبداد، وبالتالي بالانحراف قليلاً عن مبادئ الديمقراطية الصرفة. ربما يكون هذا العمل شيئاً من وجهة النظر الديمقراطية، إلا انه مع ذلك ضروري. فالاشتراكية لاتعني ان كل شيء يتم عبر الشعب، بل من اجل الشعب.

أن مبدأ تقسم العمل يخلق التخصص. من هنا إذن كانت الرغبة في المقارنة بين ضرورة وجود مؤسسة للزعماء، وبين الضرورة التي اثارَت مسألة التخصص في المهنة الطبية والمهنة الكيميائية، أمراً مبنياً على أسباب موضوعية هامة. الا ان التخصص في مجال ما يعني السلطة: فكما أن المريض يطيع أوامر الطبيب الذي جعلته الدراسات العميقة والمطوَّلة قادراً على معرفة الجسم البشري أفضل من

المريض نفسه، كذلك يجب على المريض السياسي ان يسلم شؤونه الى زعيم الحزب الذي يملك الصلاحية والاهلية التي تنقصه هو بالذات.

وهكذا تنتهي الديمقراطية بان تتحول الى شكل من حكم النخبة، الى استقراطية. ويصبح الزعماء هم الاكثر قدرة والاكثر نضجاً، سواء من الناحية الموضوعية الظاهرة أو من الناحية المعنوية. بالاضافة الى أنه لن يكون لهم الحق فقط في أن يكونوا على رأس الجاهير، وإنما أيضاً سيكون من الواجب عليهم أن يحتلوا هذا المنصب، لا كممثلين عن حزب ما، وإنما كأفراد يدركون، بفخر، قيمتهم الشخصية.

القسم الثاني
طابع الزعماء المتسلّط

الفصل الاول

ثبات الزعماء

ان ثبات العنصر القيادي في الحزب او ديمومته لفترة طويلة، هو احدى الاحداث التي تدعو للدهشة اكثر من غيرها، عند دراسة تاريخ الحركة العمالية الاشتراكية في المانيا.

فقداء تأسيس الامبراطورية (الالمانية) في الفترة ١٨٧٠/١٨٧١، انبثقت شخصيتان كبيرتان من مجموعة صغيرة للمؤمنين بالحركة الجديدة، هما Wilhelm Leibnecht وبلهام لينباخت واوغست بابيل Bebel، وضعت هاتان الشخصيتان نفسيهما على رأس الحركة التي كانتا تتخططان لها، وذلك بفضل نشاطهما وذكائهما. وبعد ثلاثين سنة، وفي منعطف القرن، عدنا ووجدنا ايضا لينباخت Leibnecht وبابيل Bebel، في المكان نفسه، محاطين بالنقة نفسها وبالمهات عينها.

ان استمرار قيادة واحدة للحزب ولمدة طويلة من الزمن تدهش المؤرخ، خاصة عندما يقارن هذا الاستمرار مع ما يحدث في الاحزاب العمالية لباقي دول اوروبا: ما عدا ربما الحزب الاشتراكي الايطالي فقط حيث احدثت مسائل متائلة جزئياً نتيجة متشابهة: فمن بين مجموعة عناصر الدولية Internationale القديمة، توصلت فقط بعض الشخصيات الثانوية او من الصف الثاني الى الاستمرار حتى

القرن الجديد، دونما تعديل في إيمانها بالاشتراكية، أي دونما زيادة في هذا الإيمان. ويمكن القول أن زعماء الاشتراكية في ألمانيا يعيشون في الحزب، يشيخون في خدمته ويموتون، كما عاشوا، له.

إن بعض الخوارج النادرين الذين أداروا ظهرهم للحزب وابتعدوا عن خطه السياسي العام، كانوا اشتراكيي المناسبات والنواصم. وقد كان هؤلاء يعتقدون أنهم سوف يجدون في الاشتراكية شيئاً آخر غير الذي كان بإمكانهم أن يقدّموه، أو أنهم كانوا يودّون استخدامها لتحقيق كل أنواع الأفكار القربة الشاذة، بغموض وشذوذ بشريين. لذلك لم يكن انفصالهم عن الاشتراكية خسارة جسيمة للحزب.

وعلى صعيد آخر، فقد كانت الخسائر التي كان على الحزب الاشتراكي الألماني أن يتحمّلها، أكثر جساماً وخطورة، خلال الفترة الأولى المضطربة من الحكم الاستثنائي، وخاصة في العهد البساركي.

لقد كان الحزب عندئذ مقطوع الرأس بالمعنى الحرفي للكلمة، وذلك بأن قُضيت عليه هجرة مؤقتة. ولقد أعلن Bebel أن عدد الذين حُرّموا آنذاك من السليب وجودهم، ورأوا أنفسهم مجبرين على مغادرة البلاد ليجدوا في الخارج ملجأ وعلا لهم، كان يشتمل على عدة مئات من الأشخاص. ولقد غادر ألمانيا أكثر من ثمانين شخصاً، من المجموعة التي كانت تناضل بحماسة ونشاط في الحزب قبل هجوم العاصفة المناهضة للاشتراكية، خلال السنوات الأولى من إعلان القانون الشهير (القانون المناهض للاشتراكيين)، ولم يعد معظم هؤلاء اليها مطلقاً. «تلك كانت طعنة كبيرة وجرح يبلغ أصاب القوى في الصميم».

ويصبح الرجل كشيئاً في السنوات التي تحبل أكثر من غيرها بالقلقل والمشاكل. وهكذا عبّر فريدريك ولهم فريتزش F. W. Fritsch (توفي في العام ١٩٠٥)، وناقد لاسآل، Julius Walatelsch يوليوس فالتيغ، المحيط، في العام ١٨٨١، قبل الانتخابات التي أظهرت قوة الحزب الاشتراكي الألماني

بقليل؛ ولقد كانا زعيمين سابقين للحركة اللاسالية، ونائبين اشتراكيين في
الريختاخ Reichstag

الا ان عدد اولئك الذين استمر نشاطهم الاشتراكي في زمن الرعب هذا،
كان كبيراً جداً على الرغم من العاصفة الموجهة التي هبت وضربت الحزب
الاشتراكي لمدة تزيد على العشرة سنوات. من هنا يتضح ان ثبات الزعماء او
ديمومتهم في مناصبهم يجب ان تكون لفترة اطول، من مراحل الهدؤ السياسي
النسي.

ولقد اخذتُ على عاتقي مشقة استخلاص اسماء اولئك الذين كانوا
لا يزالون في الصفوف الامامية للمحاربين في العام ١٩١٠، من لوائح المحضور
الخاصة بالمؤتمرات المنعقدة في العام ١٨٩٣ من قبل الاحزاب الاشتراكية الدولية
الثلاثة:

«الديموقراطي الاشتراكي - ألمانيا»، «الحزب العالي» التابع لغيد Guesde
في فرنسا، و«الحزب الاشتراكي الايطالي»، في ايطاليا. وقد توصلتُ هكذا الى
النتيجة التالية التي لا تستطيع بالطبع ان تزعم بالدقة المطلقة، باعتبارها مبنية
فقط على المعرفة المباشرة للأشخاص. الا انها لا تبعد كثيراً عن الحقيقة: ستون
مندوباً فقط من اصل مائتي مندوب في مؤتمر كولوني Cologne كانوا لا يزالون
على خط الحزب في العام ١٩١٠؛ في مؤتمر باريس بقي اثنا عشر مندوباً من
اصل ثلاثة وتسعين؛ ومن اصل ثلاثمائة وأحد عشر مندوباً في مؤتمر ريجيو
اميليا Reggio-Emilia، مائة واثنان فقط استمروا ملتزمين بإخط العام
للحزب. ويشكل هذا نسبة عالية جداً، وخصوصاً بالنسبة للأحزاب العمالية في
ألمانيا وايطاليا.

وبالمعل، فان التطبيق المستمر والمنطقي للمبادئ الديموقراطية، يفرض
التجرد من كل اعتبار شخصي وكل تعلق بالتقاليد. فكما ان الوزارة في الدول
الدستورية تؤلف من اعضاء الحزب الذي يملك الاغلبية البرلمانية، كذلك
يفترض في المهات الكبيرة الملقاة على عاتق الحزب الاشتراكي ان تشغل من

قبل، مناصري الاتجاهات التي تحظى بالتأييد في المؤتمرات. (وهذا ما قرره الحزب الاشتراكي الهولندي للتو). ويتوجب أيضاً على ذوي المناصب الرفيعة في الحزب ان يتخلوا دائماً عن مناصبهم للقوى الشابة، لأولئك الذين انتصروا وحصلوا على رجحان عدد مؤيديهم، هذا العدد الذي يشمل، في حدة الأدنى، النصف زائد واحد. ويفترض، بالإضافة الى ذلك، وجود نزعة طبيعية بحملها، تتمثل بالآتي تبقى مهمات الادارة محصورة لفترة طويلة بين ايدي الرفاق قانهم، وذلك من اجل الا يتبث هؤلاء في وظائفهم، وألا يعتبروا انفسهم وكأنهم «منتخبون من قبل الله».

مع ذلك، فان شيئاً من كل هذا لا يحدث في الاحزاب الاشتراكية المتمتعة بأساس صلب من التنظيم. وبالعكس، فان الشعور باهمية التقاليد، مضافاً اليه الحاجة الفطرية لدولة ثابتة مستقرة، يجعل دائماً من القيادة العليا في هذه الدولة تمثيلاً للماضي أكثر من كونها تمثيلاً للحاضر، لأن هذه القيادة تحظى بتأييد لا محدود، ليس بكونها التعبير المحسوس لعلاقات القوى الموجودة داخل الحزب في فترة معينة وحسب، وإنما فقط بسبب كونها قد تشكلت فعلاً. لذلك، يجتذ الرفاق باستمرار، ودون تحديد تفويضهم، للزعما ايهم، وذلك بدافع الكسل العام المتفشّي، او اذا اردنا استعمال تعابير مطلقة أكثر، فبدافع سعة الجمود او سكون العزيمة.

ان هذه النزعات التي تشكل العصب الاساسي للتنظيم، نراها ظاهرة، بشكل خاص، في الحزب الاشتراكي الالماني حيث تتمتع السلطات العليا بشت وبديمومة حقيقية للاعضاء الذين يشغلونها.

ان تطبيق مبدأ تغيير كامل اعضاء قيادة الحزب كل سنتين، اصبح منذ فترة طويلة، مثلاً تحتذي به الاحزاب الديمقراطية. ومع ذلك، لم يمارس الاشتراكيون الالمان هذا العمل وحسب، بل كانت كل محاولة لاعتماده تُشمر تأففاً وغضباً لدى الرفاق الحزبيين.

ونقد اشترط القانون الاساسي للحزب، والذي تم التصويت عليه في مؤتمر

مايانس Mayence في العام ١٩٠٠، ان يكون على الحزب وجوب تغيير كامل اعضاء اللجنة التنفيذية المؤلفة من سبعة اشخاص، خلال كل من المؤتمرات السنوية المتعقدة، وذلك بالاقتراع السري وبالسبب المطلقة. (رئيس عدد اثنين، نائب رئيس عدد اثنين وامين صندوق واحد). الا ان هذا الحل المستوحى من المبدأ الديموقراطي الاكثر صفاء ونقاوة، لم يكن يُطَبَّقُ بحذافيره، اذ كانت توزع لوائح مطبوعة مسبقاً على المندوبين في كل مؤتمر، وفيها الاسماء نفسها لاعضاء اللجنة التي انتهت مدتها.

وهذا يؤكد، ليس فقط انه يعتمد على اعادة انتخاب هؤلاء الاعضاء، وانما على ضوابط شديدة تمارس في سبيل اعادة انتخابهم. وصحيح انه يحق لكل نائب ان يشطب الاسماء المطبوعة، وهو حر في هذا من الناحية المبدئية، وان يستبدلها باسماء اخرى مكتوبة بخط اليد، وهذا عمل سهل الحدوث في انتخابات سرية، الا ان اللائحة المطبوعة تبقى دائماً قريبة يستخدمها فرو الحل والربط في الحزب.

ويعتبر التعديل المحتمل لللائحة، والذي يشكل، مع ذلك، ممارسة الحق الانتخابي المعترف به من قبل القوانين المرعية، غير مناسب من قبل اغلبية المندوبين انفسهم، كما يُعتبر عملاً يستحق الملامة عندما يحدث. سنذكر، في هذا الخصوص، حالة انياس اوير Ignaz Auer المميزه والتي سبق وذكرناها: عندما تصاعدت الضجة في مؤتمر Dresde (١٩٠٣) بسبب النية التي كانت لدى الاشتراكيين الثوريين بشطب اسم اوير Auer عن لائحة المرشحين للقيادة نتيجة نزاعاته التراجمية، كان السخط عارماً ضد هذا الانتهاك الطارئ، وكان كافياً لتفشيال المشروع. (ولقد دُفِعَ فيما بعد، عن نية الاشتراكيين هذه، بقوة وفعالية).

فهذه الطريقة يمدد الزعماء المعينون، في حزب ديموقراطي نتيجة تصويت غير مباشر، مدة السلطات التي كانت قد استدت اليهم مرة واحدة فيما مضى، وحتى في آخر فترة وجودهم على رأس الحزب. وتصبح اعادة تأييدهم المفروضة

من قبل القوانين المرعية، مسألة شكلية بسيطة، أو أمراً يتجدد تلقائياً. وهكذا تتحول المهمة المؤقتة عبثاً، والعبء هذا يتحول الى منصب دائم، ويصبح الزعماء الديموقراطيون ثابتين لا يمكن التعرض لهم، كما لم يسبق ان كان، في التاريخ، زعماء جسم ارستوقراطي، على هذه الحالة. وتتجاوز بكثير مدة إشفاهم لوظائفهم متوسط إشغال الوزراء لمهامهم في الدول الملكية.

لقد تم حساب الفترة التي يشغل خلالها الوزراء مراكزهم في الامبراطورية الألمانية، وتبين ان متوسط هذه الفترة هو اربع سنوات واربعة أشهر. وفي المقابل، نرى في قيادة الحزب الاشتراكي، او يمكن القول في وزارة الحزب الاشتراكي، ان الاشخاص انفسهم يشغلون الوظائف نفسها خلال اربعين سنة متتالية. يحكى كثيراً عن الطامع المتقلب والمتغير لمصلحة الجاهل. الا ان هذا لا يؤثر كثيراً على زعيم يقوم بواجباته، أتم القيام، لانه بذلك يضمن ثبات مركزه في الحركة المالية اكثر مما يستطيع ان يضمنه وزير في الملكية البروسية المينية على نعمة الله. (برنشتاين Bernstein).

ونلاحظ الظاهرة نفسها في التنظيمات المالية في بلاد اخرى غير المانيا، ولو بنسب متفاوتة.

يمكننا هنا ان نذكر النظام الذي أعده التحالف الايطالي العام للعمل في ٣ شباط ١٩١٠ من اجل اعلان الاضرابات العامة.

بتوافق تام مع المبادئ الديموقراطية، يبدأ هذا النظام بالقول، ان بداية اضراب عام يجب ان يسبقه دائماً استفتاء للقطاعات المعنية. كما يجب ان يلحق بالسؤال المطروح في الاستفتاء محضر الجلسة التي تمت خلالها مناقشة المسألة المطروحة من قبل التحالف. الا ان النظام يضيف على الفور، انه في حال الاختلاف وتباين الرأي بين مجلس ادارة التحالف الذي يكون مثلاً قد رفض فكرة الاضراب العام وبين نتيجة الاستفتاء، التي جاءت بالعكس لصالحه، فانه لا يحق للاستفتاء، ان يحمل في مضمونه ملامة تجاه القياديين.

نرى في هذا المثل، ان المسؤولية الوزارية في شؤون التنظيم المالي الايطالي هي اقل منها في الدولة الايطالية حيث نعتقد الوزارة انها مرغمة على تقديم استقالتها، عندما تصوت اغلبيية المجلس النيابي ضد مشروع سبق وتقدمت به من المجلس.

اما في ما يخص انكلترا فكان الزوجين والـb Weib يفيداننا ان ثبات الموظفين في التنظيمات المالية، هو اعلى نسبة من ثبات الموظفين المستخدمين في الادارات المدنية الانكليزية، حتى ان نصاً قانونياً يبيع بقاء المسؤولين في احدى شركات القطن في مناصبهم، دون تحديد نهاية خدماتهم، اذا لم يكن لدى اعضاء التنظيم المالي ممسكاً عليهم.

وادا ما اردنا ان نفهم هذه الظاهرة، وجب علينا ان نعود، دون شك، الى قوة العرف الكبيرة التي انتقلت الى عروق الجماهير الثورية، وسالت في دمائها، مشبهة اياها (هذه الجماهير الثورية) بالجماهير المحافظة.

وما يشترك ايضاً مع العرف، هو هذا الشعور الانساني النبيل بالامتنان الذي سبق لنا وتكلمنا عنه: ان عدم التجديد او عدم اعادة انتخاب رفيق ما شهد ولادة الحزب، ان صح التعبير، وقاسى ما قاسى من المناعب، وقدم ما قدم من الخدمات، تعتبر وكأنها قساوة وعمل شائن. وليس هذا جأ رفيق جدير بالاستحقاق، بقدر ما هو رفيق مجرب وذو خبرة، برهن بمعمله الجماعي البعيد عن الفردية، عن اهليته لكل تقدير، الى حد ان مشاركته واستمراره في العمل لا يمكن التخلي عنها. انطلاقاً من هنا، فان افراداً معينين، واستناداً الى وظائف محدودة او كلت الهم، لا يمكن ان يتم استبدالهم او وبصورة ادق، من الصعب جداً استبدالهم.

وترتكز كل تركيبة بيروقراطية في طبيعتها على تقسيم العمل. وحيث يوجد هذا التقسيم، توجد الوظائف القطاعية والاختصاصية، وينطبق هذا تماماً في دولة كانكلترا حيث تسود الروح البروسية، وحيث يتوجب على قبطان سفينة الحزب ان يملك خبرة كبيرة من اجل قيادة سفينته عبر حواجز التشكيل

البوليسية بأمان وسلام، وحيث لا يمكن تأمين استمرارية معينة لنمو الحزب إلا عن طريق الحفاظ على الزعماء أنفسهم وفي الوظائف إياها.

في أيام السلم كما في أيام الحرب، تفرض العلاقات القائمة بين مختلف التنظيمات نوعاً من الاستمرارية التي تضعف دونها سلطة التنظيم السياسية، سواء كان هذا على مستوى التكتيك أم كان على مستوى تأليف الجهاز الإداري. ويصبح هذا، ليس فقط في الدول، وإنما في الأحزاب السياسية.

لقد اعتبرت انكساراً دائماً حليفاً سبباً في السياسة الدولية الأوروبية، وذلك لأن تاريخها السياسي أظهر أن لياً من البلاد لا يمكن أن يركن مطلقاً إلى الانفعالات المعقودة معها. يعود السبب في ذلك إلى أن سياسة المملكة المتحدة الخارجية تخضع، وبنسبة كبيرة، للأحزاب الحاكمة، وإلى أن هذه الأحزاب تتعاقب كثيراً على السلطة.

وهكذا، فإن أي حزب يبذل زعماءه بكثرة، يعرض نفسه لعدم امكانية عقد اتصالات مفيدة وصالحة في الوقت المناسب. إن أكبر شائتين في الديمقراطية، وهما فقدان الثبات وصعوبة التحرك (والبت بالامور)، ينتجان عن الحق المعترف به للجهايم بالتدخل في إدارة شؤونها.

كما توجد هناك أيضاً عادة في الأحزاب الديمقراطية الحديثة، ننشر نبعاً لنسبة نمو الحزب واتساع رقعة انتشاره، نقضي بإرسال أشخاص مزودين بتفويض له صفة الأمر، إلى المؤتمرات المعقدة، ومكلفين بمنع المندوبين عن التصويت على مسألة مصيرية بشكل مغاير لرأي أغلبية الموكّلين (بكسر الكاف).

إن هذا الاحتراس، وإن تم لدى الأفراد نزعة نحو الديمقراطية، يمكن أن يكون فاعلاً في بعض الحالات، عندما تكون المسائل المطروحة، مسائل بسيطة، عادية وواضحة المعالم. ولكن، أن يحرم المندوب من حرية القرار، لأمر ينتج عنه أن هذا المندوب، وقد تحول دوره إلى مجرد صم، لا يعود يستطيع تحمّل

تأثير مناقشات جديدة خلال مدة انعقاد المؤتمر، ولا تحمل ظروف جديدة تنبثق عنها نزاعات سياسية.

ينتج عن ذلك أن ليست كل مناقشة فقط تنحول الى مناقشة اضافية لازوم لها، وانما ايضاً يصبح التصويت، في غالب الاحيان، مغلوطاً، اذ انه لا يعبر، في هذه الحال، عن رأي المندوبين الحقيقي.

هكذا، ومنذ بعض الوقت، بدأ التفويض الذي يحمل صفة الامر، يصبح نادر التطبيق اكثر فأكثر: لقد تأكد بالفعل انه يضر بتأسيك الاعضاء، هذا التأسيك الذي يشكل ضرورة ملحة للحزب، وانه يثير اضطرابات، كما يخلق ريبة وشكوكاً حول اشخاص القيادة.

وكما ابتعد الزعماء عن الجهايز، كلما ظهوروا مؤهلين اكثر فأكثر لملء الفراغات التي تحدث في صفوفها، لاعت طريق الانتخاب الشعبي، وانما عن طريق المشاركة في العمل لمضاعفة النتائج، وذلك يخلق مراكز جديدة كلما ساحت الفرصة لذلك، وبمبادرة شخصية بحتة. وينزع الزعماء دوماً، اذا صح التعبير، الى الانسحاب والابتعاد، الى تشكيل نوع من الاتحاد، (Carrel) والى احاطة انفسهم بمناط يصعب على اي كان تحطبه سوى اولئك الذين يؤيدونهم ويؤدون لهم الطاعة.

هذا ما يدور في ايماننا هذه في صفوف كل التنظيمات العمالية الصلبة التأسيس.

ففي مدينة مودان Modine، وفي العام ١٩٠٨، ولدى انعقاد المؤتمر السابع للتنظيمات العمالية الايطالية، طُرح في التقرير المقدم لهذا المؤتمر بندٌ يوجب على الزعماء معرفة الرجال الكفاء، واختيارهم بانفسهم وملء الوظائف الحكومية بشكل عام.

لقد طُبقت هذه الامور المبتغاة في انكلترا، بطريقة عملية جداً، بمعنى ان الموظفين القدماء يختارون مباشرة المستخدمين الجدد الذين يحتاج اليهم اي تنظيم.

وهذا ما يحدث تماماً في انكلترا حيث تختار السلطة المركزية خمس (1/5)

المستخدمين النقابيين تقريباً. وبما ان المؤتمرات النقابية تتألف، هي ايضاً، من المستخدمين فقط تقريباً، فان الاسلوب الوحيد الذي لاتزال التنظيمات تمتلكه لاثبات آرائها الفردية، يكمن في المشاركة بالدورات الاشتراكية والنقابية التي تقيمها في سبيل هذا الهدف.

وحتى في الحركة العالمية الفرنسية، التي تفاخر بأنها الاكثر ثورية من باقي الحركات، كان امين سر اتحاد العمل يملك حق الاقتراح، عندما يكون المقصود اختيار ممثلين جدد لدى مجلس ادارة الكونفيدرياسيون (الاتحاد). ولقد كان يمارس هذا الحق ويبلغ النقابات غير الممثلة في هذا المجلس، لائحة باسماء الرفاق الذين يعتبرهم قادرين على ملء هذه الوظائف وبطالبتها بانتخابهم.

اما في الحزب الاشتراكي الالمانى، فان ما يدعى ادارات اقلبية والادارة المركزية، تدعى بجمعية انها تمارس حق النقض veto في ما يخص تمثيل المرشحين في المجموعات الانتخابية: انه لامتنياز اوليغارشى، بوجه خاص، هذا الذي يجعل من هذه القيادات حكومة فعلية، ويعمل في طياته ضرراً جسيماً باحدى الحقوق الاساسية لكل ديموقراطية: ألا وهو حق حرية التصرف.

وفي هولندا، يتوجب على قيادة الحزب ان تؤكد، بالفعل، وتصادق على صحة الترشيحات الاشتراكية للمقاعد البرلمانية. وهي (أي قيادة الحزب) بدورها، ثابتة ثبات قيادة الحزب الالمانى نفسه. كما انه من النادر ان يستبدل عضو انتهت مدة عمله في وظيفته، ويود للاستمرار في ممارسة هذه الوظيفة، بعضو آخر تم انتخابه مؤخرًا. وهكذا نرى ان عدداً قليلاً من الاشخاص في هولندا يجمعون حول انفسهم كل مهمات ووظائف الحزب.

وبالتالى، فان ظاهرة اوليغارشية خطيرة تظهر ايضاً في حالة تقدم مرشحين سياسيين: وتدعى هذه الظاهرة، ظاهرة تقدم افراد الاسرة الحاكمة، او ذات السلطة، واعتبارهم مفضلين على غيرهم من المرشحين. وهذا ما يسمى

بالمحسوبة. ويتوقف اختيار المرشحين، بصورة شبه دائمة، على عصبية قليلة العدد تتألف من الزعماء المحليين ومعاونيهم في الصف الثاني. ويفرض هؤلاء على مجموع الرفاق انتخاب المرشحين الذين يؤيدونهم. وفي كثير من الحالات، يُعتبر المجتمع الانتخابي، هكذا وبكل بساطة، وكأنه ملك من املاك العائلة الخاصة.

وليس مستعداً ان نرى في ايطاليا، حيث المبادئ الديمقراطية هي اكثر احتراماً، مجعاً انتخابياً يقدم ترشيح الابن او أصغر الابناء سناً، ودون أية معارضة، بدلا من الاب او الاخ الاكبر، وذلك في حال كونها من الاموات، او في حال انه يحظر عليها التقدم للترشيح لسبب او لآخر... وباختصار، فان المركز لا يقلت، على كل حال، من بين يدي العائلة.

اما الذين يجنون المناقصات، فانه من الممكن ان تسؤل هم انفسهم ان يغيروا في هذا الاسلوب، الإشارة الاولى التي تدل على عبور الديمقراطية من النظام البونابرتي الاستثنائي الى نظام الملكية الوراثي.

الفصل الثاني

قدرة الزعماء والحزب المالية .

ان تحلي الزعماء عن مسؤولياتهم وخيانتهم لما ، تبقى من الامور النادرة الحصول في الحزب الاشتراكي الالمانى . إلا انها ، وبالعكس ، كثيرة الحدوث في الحزب الاشتراكي الفرنسي ، خاصة في ما يتعلق بالقسم البرلماني منه . لقد حلت انتخابات ٢٠ آب ١٨٩٣ ستة نواب اشتراكيين الى الندوة البرلمانية في قصر بوربون Palais - Bourbon وهم السادة : Paulain Méry - A. Humbert - A. Abel Hovelacque - A. Militerand - Pierre Richard et Ernest Roche .

وحده فقط ، هو فلاك Hovelacque ، النغري وعالم في دراسة تاريخ وتطوير العلوم البشرية الشهير ، بقي اميناً ومخلصاً حتى الموت للاشتراكية ، بينما يظهر النواب الخمسة الباقون ، في ايامنا هذه وبعد عشرين عاماً ، في صفوف المعارضين للحزب الاشتراكي وبشكل علني ظاهر .

ان الحزب الاشتراكي الالمانى يعيش مع الحزب الاشتراكي البلجيكي والاشتراكي الايطالي هماً واحداً ، وهو ان يتمتع كل منهم بزعم ثابت ، وفي وعخلص . ففي المانيا مثلاً ، حصلت مجموعة الزعماء الاشتراكيين ، وفي كل الاوقات ، على مساعدة قوية من بقية احزاب اليسار ، ولم تر من جانبها مطلقاً أية شخصية ، مهما كان وزنها ، تعمل على خيانة الحزب لتنتقل الى المعسكر

البورجوازي.

وبالطبع، فانه لا يمكن اعتبار مجرد انتقال الحزب الاشتراكي الى شكل من اشكال الاشتراكية المناضلة، وكأنه خيانة بالمعنى الحقيقي للكلمة. تلك كانت حالة بعض الاشتراكيين امثال جوهان ماست Johaun Most، بجلد الكتب السابق الشهير في اوغسبورغ، والكيميائي ولهم هاسلمان W. Hasselman اللذين قاطعا الحزب علنا بعد عام ١٨٩٠، ليلتحقا في البداية بالاشتراكية المعارضة للوجود البرلماني، ومن ثم بالفوضوية.

ولكن، ومهما كان عدد حديثي العهد المؤيدين للفوضوية، فاننا مرغمون على القول بأنه لم تظهر شخصية واحدة شغلت مركزا مهما في الادارة العليا للقرى الاشتراكية، من بين الخوارج عن الحزب الاشتراكي الالماي، الذين بقيت اسماؤهم عبر التاريخ.

وعلى عكس ما يحصل في فرنسا وفي انكلترا حيث نشيط خيانات بعض الزعماء امثال بريان براند Briland وجون برنز J. Burns. اهتم في صفوف المناضلين، فان البروليتاريا الالمانية لم تشعر حتى الان بالحسرة التي يمكن ان يخلقها لها مثلونها، فبا اذا جلسوا على مقاعد الحكم جنباً الى جنب مع الاعداء. فهنا، وهنا فقط، يكمن السبب الرئيسي، اذا ما قلنا السبب الاوحد، للثقة غير المحدودة والعمياء، في غالب الاحيان، التي يحضها اعضاء الحزب الاشتراكي الالماي لزعمائهم «الوفياء» و«المخلصين»، والتي يمكن لكل مراقب متجرد ان يلمسها ويتأكد منها بنفسه.

وما يقال عن الحزب الاشتراكي الالماي في هذا المجال، يمكن ان يقال ايضاً بالنسبة للحزب الاشتراكية لعدد آخر من البلدان، كبلجيكا مثلاً وايطاليا... حيث لم تصب عدوى الفيروس الحكومي الزعماء الاشتراكيين بعد.

ولكن السلطة التي تمنحها هذه الواقعة لقياديين الحزب في المانيا، بشكل خاص، تشتد وتقوى بفضل روح التنظيم، وبفضل الحاجة الماسة للقيادة التي

تتميز بها البروليتاريا الالمانية. لذلك نرى، بشكل عام، أن الحزب يفتقر الى عناصر بشرية مثقفة. ويفتقر بالتالي الى افراد يتمتعون باستقلال اقتصادي. وهكذا تحول هذه الظروف دون تعرض الزعماء للتأثيرات التي تخلقها الانشقاقات والتزاعات التكتيكية، وتبعدهم أيضاً عن الصراعات الحادة والعنيفة مع جماهير الحزب، كذلك التي "حدثت في ايطاليا وفي هولندا حيث نبات الزعماء في مراكزهم لا يقل عن نبات هؤلاء في ألمانيا.

اما في ما يخص الزعماء الاشتراكيين الالمان، فانه يمكن القول بانهم دائماً على اتصال بالجماهير وليس هناك من قطيعة بينهم وبينها.

غير ان وحدة الأفكار بين الزعماء والافراد لم تظهر بعد إلا في استثناءات نادرة تقريباً كما ان ادارة الحزب وجهته البرلمانية لا يزالان يجسدان، الى حد ما وبطريقة واقية، الحد الأدنى من الرأي العام لدى جماهير الرفاق. ان الثقة التي يتمتعها العمال الالمان المنظمون للذين يمثلونهم في اللعبة السياسية المعقدة، مبنية اساساً على الطائنية التي يوغرها الزعماء، سواء كانت هذه الطائنية على الصعيد المعنوي ام على الصعيد السياسي.

لقد جرت محاولات عدة، وبطرق عديدة مختلفة، لتفسير هذه الطائنية وشرحها. ومن بينها الادعاء بأن فضيلة الزعماء العماليين الالمان انما تنجس في انهم لم يدعوا انفسهم يتعرضون مطلقاً لايه تجارب جديدة او مهمة. لذا لم تكن فضيلتهم لتبقى سليمة ناصعة، إلا لانها تشبه ميزة فتاة شابة لم تعرض ابداً للمداينة والتعلق. ان محاولة التفسير هذه، تركز على ثمة اساس من الحقيقة، في الحدود التي تُقصد فيها هذه الفضيلة السياسية الخاصة والتي تشتمل على الدفاع المخلص عن الخط الذي يرسمه الحزب لنفسه.

ان امكانية حصول ما يسمى تحريفاً فكرياً مبدئياً، اي تغييراً كاملاً، الى حد ما، في المذاهب والمبادئ من قبل الزعماء الاشتراكيين، هو امر مستبعد حصوله في دولة لا وجود فيها لحكم برلماني، ولا وجود بالتالي لطريقة مباشرة تقود ممثلي الشعب الى المقاعد الوزارية (حيث يقوم الحاكم، السيد المطلق،

باختيار الوزراء من بين كبار موظفي الادارة، ودون الاخذ بالاعتبار الاغلبية البرلمانية). كذلك يستبعد ايضا امر توافق ممثلي الاشتراكية الثورية مع المبدأ الاصلاحى الاجتماعى البورجوازي.

الا ان لابريرولا Labriola الذي لاحق الحركة الالمانية بكثير من الاهتمام وبعطف كبير، يملك، من جهة اخرى، كل الحق، عندما يتنبأ، ساخراً متهاكاً، بانه في اليوم الذي ترغب فيه الحكومة الالمانية ان تقدم لنفسها المفضل وزارة ليرالية (كون الاشتراكيين فعلاً يسهل أرضاؤهم) فان «عدوى الرياح الاصلاحية» ستهب في ألمانيا على مساحات شاسعة. ويضيف قائلاً بأن بذور هذه العدوى موجودة منذ الان بوفرة كبيرة.

ولكن، ومع التسليم بأن البنية الاتحادية للامبراطورية الالمانية تواجه حدوداً محلية، وضعت امام الطموحات المحتملة للزعراء المماليين وهي التي تنعكس أيضاً على الحق العام وعلى الذهنية الجماعية، فمع ذلك وجب الاعتراف بأن انعدام النوايا السيئة لا يكفي وحده لشرح الحدث او الواقع الذي يُشغلنا. ويبدو ان هذا الشرح غير واف، بقدر ما تنقص او تنعدم تلك النوايا، بالمعنى المادى للكلمة، في ألمانيا عن غيرها من البلدان.

ان اياً من الانظمة الحكومية، ومهما كان متسلطاً، لم يهمل في اي حين، فرصة التخفيف او التقليل من الميزة الخاصة بالزعراء المشبوهين، لحركة لا تستقطب حولها الرضى المطلوب، وذلك عن طريق جعلهم يوزعون قسماً من المصاريف السرية التي أقرها ممثلو الشعب بانفسهم بواسطة اقتراحهم. وعلى الرغم من ذلك، فانه يمكن الجزم بأن زعماء الحركة العمالية الالمانية قد عرفوا دائماً كيف يقاومون، وينجاح، ويقفون بوجه الانشغاف والانجرار وراء المال، وذلك دون ان يكون لهم ربحاً، تلك الاخلاقية الانجيلية التي نجد لها امثلة عديدة في الحركة العمالية الايطالية، اثنان مرحلة نشوئها الاولى.

ويحدث احياناً ان يقبل رجال حزبيون، رجال ينشون عن ثقة، او حتى مجرد اعضاء عاديين لا يمارسون اية وظيفة حزبية، مאלأ تحاول الشرطة بواسطته

ان ترشوم او ان تحريمهم. ولكنهم يفعلون هذا بروح حاكمة ونية سيئة، ويجزّلون المبلغ دائماً الى الصحف الاشتراكية التي تتمم فيها بعد اعلاناً تدعو بموجبه مالك هذا المال الى ان يتقدّم بنفسه ليسحب، ضمن مهلة محددة. أما اذا انقضت هذه المدة ولم يبادر صاحب هذا المال لسحبه، فانه يُحوّل عندئذ الى مالية الحزب.

ان الوفاء الثابت للزعماء الاشتراكيين الالمان، ومن اجل الغاية التي يمثلون، يتركز على اسباب رئيسية قوية، يتميز بعضها بطابع مثالي. ان حب الالمانى المميز للدعوة او للميل الذي يختار، والاخلاص والتفاني في سبيل الواجب، وسنوات المحاكاة والاضطهاد التي عاشها الالمان سوية، وانعزالهم عن العالم البورجوازي كما لا تزال تعيش حتى ايماننا هذه الطبقة العمالية ومثلوها، كما ان الاعتقاد الثابت غير المزعزع، الذي لا يتمكن سوى حزب يتمتع بيهكليه متناحكة قوية من ترجمة المثاليات الاشتراكية العمالية الى افعال، واخيراً الكراهية والاشمئزاز الذي ينتج عن كل صراع او نضال اشتراكي يقوده اناس متطوعون وخارج نطاق طموحات الحزب، بالمعنى الصحيح للكلمة: تلك هي بعض الاسباب العديدة التي ساهمت في خلق حب التنظيم، كما هو حاصل اليوم، لدى اعضاء الحزب الاشتراكي الالمانى، هذا الحب القادر على مقاومة اشدّ العواطف هولاً وقوة.

ان هذا التعلق الشديد بالحزب، والذي يظهر غالباً بتصرفات جميلة ومثمرة، يمثّل بالتأكيد احدى الركائز الاكثر قوة وصلابة التي يرتفع فوقها بinaan الاشتراكية الالمانية. كما انه يساعدنا على فهم السلوك الذي يمارسه الزعماء الاشتراكيون خلال وبعد الازمات العديدة التي كان يمكن ان يكون لها حل منطقي آخر، الا ذلك الحل المتمثل بالتخلي عن التنظيم الذي تقوم به شخصية او عدة شخصيات قيادية، بصورة تثير حولها ضجة وتحلق معها مشاكل.

ان الحب الذي تكمنه الاغلبية العظمى من الرفاق للحزب، وترى نفسها معه تتحقق، ساهم كثيراً، وبشكل كبير، في ألا يتردّد لحظة واحدة رجال بمسئوى

ادوارد برنستاين Edouard Bernstein وكورت ايسنر Kurt Eisner وغيرهم في البقاء والعمل داخل الحزب، في الوقت الذي دفعته في صراعات شرسة للوصول الى عتبة الحزب تقريباً. ولكن، من الحق ان نضيف انهم عرفوا ان يجافقوا، وخلال هذه الصراعات القاسية، على هذه الاهلية، ويقيموا عليها ناصفة، وهي التي بدونها لا يستطيع رجل شريف ان يستمر في العمل بين رفاق النضال.

ان اسباباً اخرى مادية لا تقل اهمية، جاءت لتضاف وتقوي من هذه الاسباب المثالية التي رأينا. ان العادة التي جرت بمكافأة الخدمات المقدمة للحزب، او بالتعويض عنها للمستخدمين الذين قاموا بها، تخلق رابطاً متيناً يتجنب عدد كبير من الرفاق خرقه، وذلك لالف سبب وسبب. ان مبدأ المكافأة المالية عن الخدمات المقدمة للحزب، وهو المبدأ المعمول به في الديمقراطية الاشتراكية الالمانية، يحسن القائمين بها ويعطيهم قوة لمجابهة اية تجارب او نوايا سيئة أكثر فظاعة وأكثر خشونة.

وبينا يتم نشر الدعوة الاشتراكية والعمل لها، خطياً كان ذلك ام شفهاً، في فرنسا وفي انكلترا وفي هولندا عن طريق المساعدات الاختيارية التطوعية من قبل اعضاء الحزب، فان الحزب الاشتراكي الالمني لن يقبل ابداً مبدأ العمل المجاني في سبيل انتشار آرائه وافكاره الحزبية. فالعمل او التحرك الاشتراكي في البلدان الاخرى، عدا المانيا، اما يكون مدفوعاً بالفترة الفردية، بروح التضحية الفردية، بالمبادرة والحماة الفرديين. اما في المانيا، فانه يركز على الوفاء، على السلوك وعلى الشعور بالواجب، وهذا ما يتم تشجيعه عن طريق التعويض المالي.

اننا نرى مثلاً، وفي تاريخ الاحزاب الاشتراكية غير الالمانية، نشرات حزبية دورية مهمة للغاية، تصدرها هذه الاحزاب مثل الطليعة الاشتراكية، Avanguardia Socialiste في ميلان Milan، والـ Nieuwe Tijd في امستردام، والتي تأسست بمبادرة فردية ودعمتها المثالية السياسية لبعض الشخصيات. وقد

لأحققت هذه الشخصيات وتابعت، عن كثب، اعمال هذه النشرات، على الرغم من المصاريف الباهظة التي تجاوزت، في اغلب الاحيان، المردود الذي نتج عنه، علماً ان تحريرها وادارتها لم تكن تكلف الحزب شيئاً، لانها كانت مجانية او شبه مجانية...

وعلى العكس من ذلك، فقد تألفت في ألمانيا مجلات او نشرات حزبية مشابهة، مثل Verwärts في برلين ثم دعمها من قبل مجموع الحزب، مع فريق متكامل من المحررين والمساعدين الذين كانوا يتقاضون تعويضات محددة لقاء اتعابهم وتفرغهم.

ولا نغفل ان فنعتقد ان احياً بان التعويض المدفوع للعاملين على نشر دعوة الحزب، وللموظفين الاشتراكيين، هو تعويض مرتفع الى حد انه يسمع لهم بان ينعموا بحياة مترفة لقاء عمل بسيط يقومون به. وهذه هي التهمة التي يفرج اهل الصحافة الرزينة والاشخاص الذين يترددون الى صالونات المجتمع المخملية، بان يلحقوا جزافاً ضد اولئك الحزبيين العاملين، مبرهين هكذا عن جهل للواقع يدعو فعلاً للفسافة.

ان الحياة التي يعيشها محرر اشتراكي، في حياة كثيرة الكلفة وغير منتظمة في الوقت نفسه. فنهاره أبعد ما يكون عن الراحة والرفاهية، بالإضافة الى ان المكافأة المالية التي يمنحه اياها الحزب لقاء عمل متقن، يركز على الكفر بالذات والتضحية بشكل يستنفد معه جهازه العصبي، في مكافأة متواضعة جداً، اذا ما اخذنا بعين الاعتبار، جسامه وصعوبة المهمة الملقاة على كتفيه.

وهذا ما يقدمه لنا كل الذين يدركون، ومن بعيد، شروط العمل والتعويض عليه في الصحافة الاشتراكية، ومن ثم نوعية الحياة التي يعيشها مستخدمو الحزب. ان رجلاً يملكون ثقافة كارل كوتسكي K. Kautsky وماكس كوارك M. Quarek ومئات آخرين امثالهم، كان يمكن ان يكون لهم قدرات مادية اعظم بكثير مما حظوا عليه او مما وفروا لهم عملهم كخادمين

متواضعين في الحزب الاشتراكي، لو انهم لم يسخروا قواهم الفكرية وقدراتهم تلك في خدمة القضية المالية.

ان هذا الاسلوب الذي يعتمد تعويض كل عمل مقدم للحزب، أكان هذا العمل كتابة ملاحظة بسيطة في الصحيفة الحزبية او حتى القاء خطاب طويل امام الجماهير في العلن، يسمح للحزب بعدم الاعتماد على البطولة وعلى اخلاص الرفاق، ويمتحنه، الى جانب الاتحاد واللحمة القوية المتناسكة، سلطة على الجهاز الوظيفي الاداري، هذا الجهاز الذي، وان تقلصت مآدرته، يستمر في تشكيل احدى الشروط الاساسية التي لا يستعاض عنها في تنظيم الحزب.

ان مبدأ تعويض الخدمات المسداة والمنفذة لصالح الحزب، هو عامل يسهم، الى حد بعيد، في تقوية بيروقراطية الحزب ويدعم مركزه بقوة وعزم. فالتبعية المالية ازاء الحزب، اي ازاء الزعماء الذين يمثلون فيه الاقلية، يحكم اللطوق حول التنظيم (او الحزب)، ويقبّده، كما لو انه يستعمل في ذلك دائرة حديدية. وبالفعل، فان المحافظين الاكثر تحمكاً في الحزب هم الاكثر تبعية له. وعندما تبلغ التبعية درجة معينة، فانها تمارس تأثيراً جازماً على النفس ايضاً. وقد نلاحظ ان النواب الذين تعينهم التنظيمات نفسها في البلدان التي لا تقر مبدأ التعويض البرلماني، يظهرون شعوراً حيويّاً بتبعيةهم ازاء ناخبهم. وبالعكس، فان البلدان التي تعترف بالتعويض البرلماني المرتفع الى حد ما، يشعر فيها النواب بانهم برلمانيون قبل اي شيء آخر، في الوقت الذي يعود الفضل في انتخابهم الى الحزب الاشتراكي وحسب.

ومن المعروف، ان التجاحات العديدة التي حصلت عليها النقابات انما يعود الفضل في احرازها لمبدأ تبادل المنافع، اي للمنافع الاقتصادية التي توفرها النقابات وتقدمها لاتباعها. ولقد اوحى هذه التجاحات، والحالة هذه، الى الديموقراطية الاشتراكية الالمانية، ان تفكر، بدورها، بتوفير المنافع والخصائص التي كانت تستفيد منها حتى الان بيروقراطية الحزب فقط، ويجعلها تطلّ مجموع الاعضاء والمناصر.

ولقد ألح Otto Gertsch أمين صندوق الحزب، وعضو اللجنة الإدارية فيه، أن هذا الاحتمال، في الخطاب الذي ألقاه حول مسألة التنظيم في مؤتمر Dresde في العام ١٩٠٤. وبعد أن عدّد الوقائع التي تبرهن وثبتت افضلية تنظيم النقابات على افضلية تنظيم الحزب، وتفوق الأولى على الثانية، أعلن أنه يجب، حسب رأيه، التفتيش عن السبب الرئيسي لهذه الأفضلية في مبدأ «تجميع المنافع» التي تؤمنها التنظيمات الاقتصادية لأعضائها.

وأضاف قائلاً أن العمال إنما أصبحوا أكثر وفاء وإخلاصاً لنقاباتهم، فذلك ابتداء من اليوم الذي بدأت معه مؤسسات تبادل المنافع تنمو وتزدهر. وهكذا تمت تلك النقابات واتسع حقلها بسرعة كبيرة.

وفي السياق نفسه أورد Otto Gertsch قائلاً: «فهناك مثلاً، أمر مميز للغاية يستدعي الانتباه، وهو أن الرفاق في مؤسسة ما، وبعد أن يقدم لهم المركز المتقدم الذي يشغلونه في الحركة الاشتراكية الألمانية، يمنحون أعضاء الحزب اعانات خاصة لمصاريف المآثم. وهم بالتالي يعرفون تماماً لماذا يدخلون مثل هذا التصرف في حياة الحزب. ولقد أدركوا أيضاً، أننا كنا في موقف متدنٍ بالنسبة للتنظيمات المحترفة، وبالتحديد، لأننا لم تكن نؤمن لأعضائنا أية مساعدة مباشرة. إلا أن هذا العمل أو هذه المساعدة لا يمكن أن تستمر طويلاً وإلى الأبد». ومن البديهي القول، أن تطوراً من هذا الطراز لن يتأخر في استئالة مئات الألوف من الأعضاء الجدد للانتساب للديموقراطية الاشتراكية، وهذا ما سوف يضاعف، بشكل ملموس، قوتها الخارجية. كما أن انطلاقة سريعة ستصيب جهازها الإداري سواء بسواء. أما إذا حاولنا معرفة ما إذا كان الهدف من هذا التطور، هو زيادة قوة الحزب الداخلية في حضور الدولة، وتقوية وثبته وتوطيد وحدته الداخلية واتحاده التكتيكي، فما هذا سوى مسألة أخرى لا يمكننا أن نعالجها ههنا. ويكفي أن نحدد التأثيرات التي تنتج عن اعتماد مبدأ تمويل العمل وتمويض الخدمات المقدمة للحزب، وذلك من وجهة نظر الحفاظ على التنظيم وتقوية أواصره.

ان الموظف، حتى وان كان منتخباً، في الانظمة الارستقراطية التي تتسم دوماً بطابع الأنظمة المحكومة من الاغنياء، لا يستفيد، في اغلب الاحيان، من تعويض مقابل العمل الذي يقوم به. ويتلقى مهاته شرفية، في الوقت الذي تُمنح فيه وتُستند كامل طاقاته وقدراته العملية. وما ان ينتمي الى الطبقة الحاكمة حتى يُظنّ انه بات غنياً واصبح من الواجب عليه ان يصرف، ومن جيبه الخاص، في سبيل الصالح العام، وان يشغل مركزاً مرموقاً في الدولة وعلى حسابه ايضاً.

وغالباً ما نجد حالة مشابهة في الديموقراطيات الحديثة حتى. فان اللورد - عمدة لندن، وزملاءه في مدن انكليزية اخرى كبيرة، وعلى غرار المأمورين الايطاليين، لا يستفيدون من اية تعويضات عن افعالهم. وبما ان مصاريف التمثيل الواردة في الموازنات هي عادة غير كافية، فمن الواجب ان يمتلك الفرد ثروة لا يستهان بها من اجل القيام بهذه المهام، وهذا ما لن يحصل الا مع حربي النعمة او مع الارستقراطيين لاغنياء اصلاً بالولادة.

وفي ايطاليا تعارض الحكومة التعويض عن اعضاء البرلمان، مبررة معارضتها هذه بانه ليس من المناسب ان يتقاضى من تنتخبهم الامة اجراً بجساً مقابل نشاطهم. ينتج عن ذلك، ونظراً لحالة الفقر التي يعيشها الحزب الاشتراكي الايطالي، ان يجد العمال انفسهم مستبعدين بالدرجة الاولى عن الوصول الى البرلمان، فمن أصل ستة وثلاثين نائباً اشتراكياً في البرلمان الايطالي (١٩٠٩)، كان هناك بالفعل نائبان فقط من العمال (زعما تنظيماً نقابية). ولنصف انه في فرنسا، حيث يتقاضى النواب تعويضاً مرتفعاً الى حد ما، واستناداً الى السيد فورتييه M. Fourtière، يمكن ان نلاحظ ان نواباً اغنياء يقومون بتمثيل الزملاء الاكثر فقراً.

ان المهام الاجتماعية في التنظيمات العالية التي تبقى مواردها المالية غير كافية، هي غالباً موكلة الى من يقوم بها بصفة شرفية مجتة. ولن يكون من النادر، وعند ذلك، ان نرى ولادة شكل خاص من القدرة المالية داخل

الحزب، قدرة يستمدّها الرفاق الأكثر غنى من الخدمات المدفوعة الأجر التي يقدمونها للحزب. اننا نجد في فرنسا حالة نموذجية من هذا النوع، وهي ان جريدة l'Humanité كانت مدعومة من شركة من الرأسماليين اليهود خلال فترة معينة من الزمن.

وحق في حالة اختيار المندوبين لحضور مؤتمرات الحزب، فان الافضلية تكون في الغالب، للمرشحين الذين يعلنون بأنفسهم انهم مستعدون لان يتدبروا شخصياً مصاريف السفر والإنتقال، وهم معروفون من سائر رفاقهم انهم قادرون على ان يقوموا بتحمل هذه الاعباء المالية. وهكذا نرى ان المؤتمرات التي تشكل والمحكمة العليا للحزب، تتألف، غالباً، من افراد، في معظمهم اغنياء. وينطبق هذا ايضاً على المجموعات البرلمانية الاشتراكية في بعض البلدان الاخرى.

وفي ألمانيا يصبح عمل كهذا مستعصياً، في كل مرة، وذلك، من جهة، بسبب تركيبة الحزب الاشتراكي الذي يضم بين اعضائه عدداً قليلاً من الأشخاص الاغنياء، ومن جهة ثانية، بسبب الثروة الضخمة التي يجوزته في صندوق الحزب.

ان التفوق المالي للرفيق الغني على الرفيق الفقير، مستبدلة هنا بتفوق القسم الغني على القسم الفقير. ومن الطبيعي، في هذه الحال، ان تستعصب التنظيمات الفقيرة مهمة ارسال مندوبيها لحضور مؤتمر الحزب، خاصة عندما يعقد هذا المؤتمر في منطقة بعيدة جداً عن مركز تواجدها. وغالباً ماينتج عن ذلك إحجام هذه التنظيمات عن حضور المؤتمر بممثل عنها، عندما لا تستطيع ان توكل تفويضاً الى أحد الرفاق الأغنياء الذي تسمح له بمجوحته بتوفير الوقت والأساليب والرغبة لمواجهة مصاريف السفر الباهظة.

الا ان من الواجب القول، ان الرأي العام قد وقف، وبقوة، بوجه هذا التصرف الذي يقضي بأيفاد مندوب لحضور المؤتمرات دون تأمين مصاريف

السفر والانتقال له. كما وصف (الرأي العام) هذا النوع من المندوبين، بأنهم و مندوبو مجاملة. فاغلبية الرفاق تعتبر ان مسألة منح هذه التفويضات والموافقة عليها، هي خيانة للحزب، وهي بالتالي، محاولة لنشر الفساد والرشوة. ولقد اعتبر هذا الامر بالذات كجريمة حقيقية، في المؤتمر الذي انعقد في Brème في العام ١٩٠٤. فهذه الاتهامات ليست، في بعض الاحيان، صحيحة، لان الانتقال لحضور مؤتمر وعلى حساب المندوب، يتطلب تفانياً كبيراً وروحاً عالية من التضحية، اكثر مما تتطلبه مسألة قضية اسبوع عطلة على حساب رفاق القسم المحلي.

يبقى ان نقول في ما يخص مسألة التمثيل في مؤتمرات الحزب، ان الاقسام الصغيرة تجد نفسها في حالة ادنى مرتبة بالنسبة للاقسام الكبيرة.

هكذا، وفي سبيل تحقيق المبدأ الديمقراطي الخاص بالمساواة بين جميع الرفاق، اعرب قسم ماربورغ Marbourg (في العام ١٩٠٣. والعام ١٩٠٤) عن نية لي أن أنتقل نفقات البعثات من قبل الصندوق المركزي للحزب.

الا ان هذه البادرة لم تثمر. فوجب عندئذ السعي وراء دواء شاف لهذا المرض. ولكن الدواء الذي اكتشف، وعلى الرغم من كونه لا يفي بالغرض، اشتمل على توحيد عدة تنظيمات محلية في اتحادات اقليمية. من اجل ذلك، تضمنت قوانين Hessen Nassau الخاصة بالاتحاد الاقليمي، الترتيب التالي: وان تنظيمات الاقسام المحلية المنصوية تحت لواء الاتحاد الاقليمي، والتي يحول فقرها دون امكانية تغطية مصاريف بعثتها الى المؤتمر، تشارك في كل سنة في سحب بالقرعة، هذا السحب الذي يمين الاقسام التي يحق لها ان ترسل الى المؤتمر مندوباً يتكفل الاتحاد بتحمل كافة المصاريف والاعباء المالية التي يرتبها حضوره اليه. والجدير بالملاحظة، ان خسة اقسام من أصل العشرة التي يتألف منها الاتحاد، تعيش هذه الحالة.

ان الحزب الذي ينعم بصندوق مالي متين، يستطيع، ليس فقط رفض الدعم المادي الذي يقدمه له عناصره الأكثر مجبوحة، والاستغناء ايضاً عن نفوذهم

وقوتهم في الشؤون الداخلية، وانما يستطيع ايضا ان يقدم لنفسه جهازا من الموظفين الاوفياء والمخلصين الذين انما يستمدون وسائل وجودهم الوحيدة فمن الحزب ليس الا.

لقد كان الحزب الاشتراكي الالماني يعتمد لنفسه التعويض المالي لنوابه في البرلمان، وذلك قبل ان تقبل الدولة وترضى بتطبيق مبدأ التعويضات البرلمانية لنوابها (١٩٠٦). وقد سمح هذا الاجراء لزعماء الحزب الذين ينمون بثروة كبيرة، بشكل عام، ان يشاركوا بالاعمال البرلمانية، ومنعهم، في الوقت نفسه، من التصحر من الحزب او من ان ينحسروا من صفوف الغلبة المجموعة الاشتراكية البرلمانية وان يتكثروا تحت اسم «الاشتراكيين المستقلين» كما حصل في فرنسا.

لقد اضطر آنذاك الحزب الاشتراكي الفرنسي نفسه، ان يواجه الخطر الذي يفرسه وجود زعماء لا يرتبطون بالحزب بروابط التبعية الاقتصادية.

ومن المعروف فعلاً، ان النواب الفرنسيين يتقاضون تعويضاً مرتفعاً الى حد ما (/١٥٠٠ فرنك) لقاء تمثيلهم الامة في البرلمان. كما فكر الحزب الاشتراكي الفرنسي بالتقليل من النفوق المالي لمثليه في قصر بوربون Palais-Bourbon والاستفادة، في الوقت نفسه، من فرصة ساعة لمضاعفة ثروته الخاصة. فقرر، عندئذ، انه يتوجب على كل نائب يرغب بالحصول على الدعم المعنوي للحزب، ان يسدّد لصندوق هذا الحزب المركزي مبلغ ثلاثة آلاف فرنك كل سنة، يتم اقتطاعه من اصل الراتب. وحدث أن كثيراً من النواب قدموا استقالتهم من الحزب بكل بساطة، للتخلص من هذا الواجب المفروض. وفي العام ١٩٠٥، أثار هؤلاء بعض الاسباب التي دفعتهم للاستقالة وتأليف مجموعة اشتراكية برلمانية جديدة، اي مجموعة مستقلة على حد تسميهم. ومن هذه الاسباب: الرغبة في التخلص من الضريبة المثقلة والمحافظة على المبلغ المقدم لهم من الدولة، دون اي تعديل، هذا السبب هو الذي لعب، دون شك، الدور الاساسي في اتخاذهم قرار الاستقالة.

أما في ما يخص النواب الذين رضوا مبدئياً بهذه الضريبة للحفاظ على مناصبهم، فإن معظمهم قد برهن باستمرار عن فتور وقلة اندفاع في تسديدها. وهكذا أيضاً جرّت مؤتمرات الحزب الاشتراكي الفرنسي وراءها، ولسنوات طويلة، الحمل الثقيل المتعلق بالمناقشة التي لا نهاية لها، حول الاساليب والوسائل التي يجب اعتمادها لاجبار البرلمانيين على تسديد اشتراكاتهم لصندوق الحزب المركزي.

ولكن (وهنا تكمن سخرية التاريخ) امر تجريد النواب من قسم من راتبهم لصالح الحزب، سرعان ما أدرك، وهو الامر الذي لم يكن لبشكل الاسلوب الاصلاح في اعاقه انشاء اوليفراشية تعتمد على حكم الاغنياء. وبالفعل، يتضح من التقرير الذي اعدته ادارة الحزب الاشتراكي الفرنسي امام مؤتمر Nimes العام ١٩١٠، انه ومن اصل /١٢٨٠٠٠/ فرنك، كمدخول يتصرف الحزب، هناك /٦٧٢٥٠/ فرنك (اي ما يزيد عن النصف) تم توفيرها بواسطة التسديدات التي دفعها البرلمانيون الاشتراكيون. ان حالة مشابهة إن تمت، فاتها تم من اجل تشجيع ودعم استمرارية النواب الذين يصبحون، بهذه الطريقة، الدعامة المالية الاساسية في ادارة الحزب، ويصبحون، بالتالي، شخصيات مهمة يتوجب على الجياهير المنتسبة ان تعاملهم باعتبار ووقار.

وما لاشك فيه، ان العمال لا يستطيعون ان يكونوا رؤساء صالحين، عندما يصبحون مستخدمين، لانهم يتشددون وبيالغون في الطلب الى مروضيهم، في الوقت الذي لا يشعر فيه هؤلاء بحاجتهم بالثقة الكاملة. هذا ويعتبر كل عضو من المنظمة نفسه رأساليا بالنسبة لأي اداري يتقاضى بدل اتعابه، ويتصرف بالتالي تبعاً لهذا الاعتقاد. وغالباً ما يفقد العمال، من جهة اخرى، المقياس الذي يقبسون ويقدرّون بواسطته العمل الفكري.

وفي روما، يعتمد عدد كبير من التعاونيات الانتاجية، تطبيق مبدأ واحد، وهو ان تدفع كل منها لمديري اعمالها، التجاريين منهم والفنيين، راتباً متساوياً مع الراتب المدفوع للعمال.

وهذا ما كان حاصلًا في ألمانيا لفترة طويلة من الزمن.

وفي الاجتماع العام لعام المناجم المسيحيين، الذي انعقد في Gelsenkirchen* في العام ١٨٩٨، تم الإعراب عن ان Brust، زعيم عمال المناجم، سيستمر في مهنته الصلبة في المناجم وإلا تعرض لفقدان الاحترام الذي يكتنه له رفاقه. وفي مؤتمر الديمقراطية الاشتراكية المنعقد في برلين في العام ١٨٩٢، تمت مناقشة اقتراح، وطيلة ساعات، يقضي بأن لا يتعدى الراتب السنوي لكل مستخدم في الحزب الالفين وخمماية مارك كحد أقصى. وفي مؤتمر فرانكفورت Frankfurt المنعقد في العام ١٨٩٤، تم سحب الاقتراح القاضي برفع الراتب الشهري لأميني سر الحزب لغاية ٣٠٠ مارك، وذلك بسبب بقاء نتيجة التصويت أمراً متقلباً، غير مضمون التحقيق، على الرغم من العدد الكبير للناخبين.

لقد سادت في الحزب الاشتراكي الألماني، ولمدة طويلة، العادة السيئة التي تعتبر الرواتب المخصصة للمستخدمين، وكذلك التعويضات المدفوعة للقائمين بنشر دعوة الحزب، وكأنها نوعاً من البخشيش، أو إذا أردنا، نوعاً من العطية أو المنحة. أما في ما يخص العمل في الصحف والشرائح الحزبية، فقد كان المحرر يتقاضى غالباً تعويضاً أقل بكثير من تعويض المدير وحتى من تعويض المحاسب.

لقد تغيرت الأمور منذ ذلك. ولكن هناك تباراً عالياً متواجداً في كل حين، يتجه الى تثبيت راتب الموظف في الحزب، بشكل لا يتجاوز الراتب المدفوع لعمال المعامل.

منذ بضعة سنوات، صوّت نقابة عمالية لصالح رأي يفرض ان يتقاضى المستخدم تعويضاً على الساعة، وبناء على التفرقة المعمول بها في فرع المصنع الذي ينتمي اليه.

كما اعتمد العديد من الرفاق، وفي سبيل تثبيت رواتب المستخدمين، هذا المبدأ، وهو ان تكون قيمة التعويض عن العمل، اقل من القيمة التي يتقاضاها زملاؤهم العاملون لدى اصحاب عمل بورجوازيين.

من الواجب القول في كل مرة، وبشكل عام، ان الطبيعة المالية الالمانية اعتادت اليوم ان تدفع لمستخدميها رواتب مرتفعة. ويجد هذا الامر تفسيراً له في الفنى المساعد للقطاعات والحزب الاشتراكي. إلا ان هناك سبباً اضافياً ايضاً، وهو ان المستخدمين انفسهم قد نجحوا في إبعاد مسألة للرواتب عن جدول أعمال المؤتمرات ومناقشتها بشكل علني، وذلك بان جعلوها مادة للمناقشة السرية في لجان صحفية.

وبالعكس، فان اتجاه العمال في فرنسا وميلهم للحفاظ على النصيب الكافي الذي يتقاضونه، عاد واضطرب من جديد، منذ التصويت على التعويض الخاص بأعضاء البرلمان، والبالغة قيمته / ١٥٠٠٠ / فرنك.

ان الموقف السلبي الذي اتخذ في مواجهة «الخمس عشرة ألفاً»، كان بشكل عام، في ان العمال لم يكونوا يرغبون، بعد الان، منح موظفي تنظيماتهم رواتب تتعدى عشر ما يتقاضاه البرلمانيون: فقد عتبروا لهم بالتالي رواتب متواضعة من / ١٥٠٠ / فرنك سنوياً. مثال على ذلك، ان المستخدمين الثلاثة في الاتحاد العام للعمل (الامين العام، امين الصندوق والمناوب) لم يقبضوا مجتمعين سوى ٣١٧٣ فرنك في العامين ١٩٠٠ و ١٩٠١. كما ان كبير مستخدمي اتحاد الكتاب، لم يقبض كل منها الا ٣٠٠ فرنك كراتب شهري مقابل / ١٠٠ / فرنك في الشهر أيضاً لأمين الصندوق. ولقد اعتقد القيمون على اعمال المعادن، انهم يبرهنون عن سخاء عظيم، عندما أبرموا عقود عمل مع ثلاثة مستخدمين براتب شهري تبلغ قيمته / ٢٣٤ / فرنك للشخص الواحد، وعندما تعاقدوا في العام ١٩٠٥ مع سبعة «امناء سر اقليسيين». براتب ١٨٠ فرنك في الشهر لكل منهم.

ولم ينشأ في ايطاليا، حتى في ايامنا هذه، عدد كبير من المستخدمين المدفوعي الاجر من قبل الحزب والتنظيمات...

وهذا ما يُعزّر بنقصان السيولة قبل اي شيء.

هذا، ولقد توجب لسنوات طويلة، تهيئة او خلق اداريين، وامناء سر

وامناء صناديق للتقايات وللأقسام المحلية، وذلك عن طريق التوجه والاعتناء على إخلاص الرفاق وإرادتهم الحسنة. لقد كان اتحاد عمال المطابع وقبل العام ١٩٠٥، الاتحاد الوحيد الذي يتوفر لديه جهاز اداري خاص لمك الدفاتر وادارة الموارد المالية المركزية. وان حياة التنظيمات لا تزال، حتى في أيامنا هذه، حياة بدائية ومعرضة بالتالي لتقلبات الظروف الاكثر قسوة.

صحيح ان عدد المستخدمين الدائمين العاملين في الاتحادات وفي اسواق العمل خلال هذه السنوات المتديدة، كان على تزايد مستمر، إلا ان التعويضات او الاجور المدفوعة تبقى اجوراً زهيدة لا تذكر. ويقول رينولا Risola ان الاجر المدفوع تعويضاً عن العمل قد ارتفع بشكل ملحوظ من مائة الى مائتي لير، وان اي تنظيم يحترم نفسه لا يدفع اليوم اقل من هذه القيمة. إلا ان زيادة كهذه لا تعتبر وكأنها الدواء الشافي للمرض، اذ لا يكفي مبلغ المائتي لير لان يتخل العامل الذكي والمتق من مهنته، ليتحقق او يشغل منصب زعيم نقابة. ولكن، وعلى الرغم من ذلك، يظهر بعض قياديي النقابات، وحتى في ايطاليا، هذه النزعة المتمثلة بالخمول والكسل، والتي شكّلت مأخذاً، في بعض الاحيان، ضد زعماء التنظيمات الغنية المشابهة في انكلترا.

ان الاجور الطيفية المدفوعة للمستخدمين، سواء من قبل الحزب الاشتراكي، او من قبل التنظيمات النقابية، لا تُنمّر فقط بالمعجزة القيادية والسلط الجائر الذي لم تتخلص منه الطبقة العمالية بعد في علاقتها مع رؤوسها. وفي ما يخص التنظيمات الشابة، فان وضعها لا يُفتر بشكل افضل بالحاجة الى وسائل اضافية لجمع الاموال.

لقد كانت ملاحقة هدف اجرائي سهل التنفيذ مستمرة، في الوقت الذي كان يُحافظ فيه على نسبة متدنية من الامور؛ لقد اريد بشكل خاص ان يحترم المستخدمون القضية من اجل حب القضية وليس من اجل المنافع المادية التي يمكن ان توفرها لهم وظائفهم. لقد تم الاعتقاد بان هذا الاجراء يحل في طياته وسيلة لتثقيف الزعماء وابقاء نوع من المثالية لديهم في نقطة دائمة، ومنهم من

الارتفاع الى ما فوق الحد الأدنى الذي لرفاقهم البروليتاريين.

لقد حدثت محاولات من هذا النوع في كل بلاد العالم، خلال المرحلة الاولى من نشأة الحركة العمالية التي كانت مرحلة ثورية، سواء على الصعيد الاقتصادي او على الصعيد السياسي. وكان يحصل أحياناً ان لا يتم الاتفاق او الرض بتقنين التعويضات المدفوعة للمستخدمين بواسطة الحزب او بواسطة النقابة: فكان يجرم على هؤلاء المستخدمين ايضاً قبول المال الذي تمنحهم اياه الدولة بصفة كونه تعويض تمثيل في البرلمان؛ وكان ان برز، ومن بين الاسباب التي دعت الاشتراكيين في العام ١٨٨٥ للامتناع عن المشاركة في انتخابات اللاندتاغ الروسي. سبب آخر احتل المرتبة الاولى. وهو الانهالك بمسألة التعويض اليومي المحدد بخمسة عشر ماركاً. هذا التعويض الذي كان يتوجب على المنتخبين قبضة. ولقد كان يحمل هذا التعويض في طياته خطراً مريباً، وهو الخطر المتمثل في ان يصبح المعني بروجوازيًا.

إلا انه قد تم التوصل الى ادراك ان اجر الزعماء الزهيد كان يشكل صمام امان، قليل الفاعلية بقدر ما هو بحجم.

بحجم، لانه، استناداً للحكمة الاشتراكية نفسها، يتوجب تسديد راتب يتناسب والعمل المنفذ. كما انه واستناداً للمصطلحات الماركسية نفسها، يُدعى استغلالاً كل عمل لا يدفع بدله على اساس قيمته الاجتماعية.

وهو عقم غير مجدي، لان الاجر الزهيد يمكن ان يتحول بسهولة تامة الى مصدر للارشاء وفقدان الاخلاق في العمل. كما انه يمنع، بالمقابل، التجديد المتكرر للجهاز القيادي، ويسهم هكذا بتأليف اوليفرشة بطريقة غير مباشرة. لقد أمكن ملاحظة ما يلي في فرنسا حيث لا يزال الاجر البخس الذي يتقاضاه الزعماء الاشتراكيون هو القاعدة: ان جيلاً جديداً من القياديين مستعد لخلافة الجيل القديم هو جيل غير موجود. وكما في الاحزاب كذلك في النقابات التي لازالت تتمثل بالمندوبين انفسهم في المؤتمرات النقابية المركزية.

ومع ذلك. فمن المسلم به، ان الازدهار الاقتصادي للحزب هو وحده القادر على ابقاء الزعماء حق قدرهم. كما انه يساهم بنسبة كبيرة في احياء وتنشيط الشهوات الديكتاتورية لدى اولئك الذين يتحملون مسؤولية ادارة الأموال العامة وتوزيعها على الخدمات.

ان حالة كهذه، يمكن. في ألمانيا، ان تُحدث نتائج خطيرة، اكثر مما تحدثه في بلد اخر. ان تجمع السلطة في الحزب الذي يشر بالمقائد الماركسية هو اكثر وضوحاً وظهوراً من التجميع الماركسي للرسميل في الحياة الاقتصادية. فمتذ بضع سنوات، يلجأ قياديو الحزب الاشتراكي الألماني الى اجراءات عديدة من القمع او المعاقبة، كالتهديد مثلاً بعدم توفير اي رجل واي فلس في سبيل الدعاية الانتخابية لصالح المرشح الذي لا يؤيدهم او لا يوافقهم الرأي، حتى ولو منح الرفاق هذا المرشح كل ثقتهم. ومن العيب القول اذ ذاك، ان تصرفاً مشابهاً لا يتوافق مع مبادئ الحرية، والاخوة. فهكذا تنشأ علاقات تبعية محصورة سببتها القوة المخفية لإله المال، كل هذا داخل حزب من الشغيلة والمهال يشجّع بان ليس له «اله ولاسيد».

الفصل الثالث

الزعماء والصحافة

تشكل الصحافة عاملاً مهماً في تغلب سلطة الزعماء على الجماهير وتقويتها وصيانتها والمحافظة عليها.

وتختلف، بشكل طبيعي ومن بلد الى آخر، الطريقة التي يستخدم الزعماء بواسطتها الصحافة، وذلك تبعاً للمعادن القومية السائدة في كل بلد. كما ان نفوذ الزعماء في البلدان التي لا يزال فيها تنظيم الحزب وقوته ضعيفين، هو نفوذ مباشر وشخصي. من هنا، ينتج مثلاً، ان الزعيم الديمقراطي يعتبر نفسه، في بلد كفرنسا وانكلترا وإيطاليا حيث لا زال الطابع الشعبي يمثل، بقوة، السمة الفردية، وكأنه المسؤول شخصياً عن مقالته الرئيسية التي يوقعها باسمه وباسم شهرته. وليست المقالة التي تظهر في النشرة الاشتراكية المسماة *Socialiste* هي التي تجلب الانتباه وانما ما يجلب الانتباه هو انها تحمل توقيع *Jules Guesdes* بالخط العريض. ويضع الزعيم ثقل تأثيره ونفوذه على الجماهير بطريقة مباشرة، وذلك عن طريق اظهار او ابداء رأيه بشكل علني، معطياً آياه، في غالب الاحيان، شكل مرسوم حكومي، وفي المكان الاكثر بروزاً على صفحات الصحيفة.

على كل، يكمن هنا افضل شكل صحفي، من وجهة النظر الخاصة بالاخراج الصحفي الجميل، وبالحكمة او بالمغزى الصحفي، اذ ان من حق

القارىء ان يعرف، فور استلامه صحيفة ما، المصدر الكامن وراء اصدارها. هذا دون ان نذكر انه بتوجب، ولدى القيام بأي عمل عام، تطبيق المبدأ الأساسي للمغزى المذكور، الذي يتحمل مسؤوليته كل فرد امام الجميع.

اما في ما يخص اولئك الطامعين لشغل منصب الزعامة، فان مسألة التوقيع على المقالات لها ايضاً فضل لانزاع حوله، في التعريف عن اسماهم، وجعلها معروفة من الجماهير. وفي مساعدتهم للارتقاء وريداً وريداً عن طريق سلوكهم التسلسل الاداري في الوظائف التمثيلية، حتى وصولهم الى اعلى الرتب والمناصب.

وفي بلدن اخرى كانكثر مثلاً، يصل ايمان الجماهير بالسلطة الى حد صلب للغاية، بشكل لا تعد معه السلطة نفسها بحاجة لان تدعمها هيئة بعض الشخصيات المرموقة الشأن. كما ان للصحفيين الحق بأن يوقعوا مقالاتهم، هذه المقالات التي تظهر مع ذلك، وفي معظم الاحيان، باسماء مستعارة او خالية حتى من اي توقيع. هكذا يختفي المحرر وراء التحرير. ان الصحفي لا يملك القدرة على جعل اسمه معروفاً في كل الاقطار البعيدة، ويجهل المشترك - القارىء. كل شيء عنه، حتى انه يجهل وجوده بالذات. وهذا ما يفسر قلة اهمية الدور الشخصي الذي يلعبه الناشر الالماني، وقلة التقدير او الاعتبار الاجتماعي الذي يُخيل اليه انه يتمتع به.

الا ان الصحافة تشكل، بالنسبة للزعماء، وعلى الرغم من اغفال التوقيع، وسيلة قادرة ومهمة للسيطرة، كما في المانيا كذلك في البلدان الاخرى. وبما ان الصحفي الالماني يتحقق ذاته عبر كل ما يقوم بتحريره، وحتى عبر الحزب بكامله، فانه ينتج عن ذلك، ان صوته يصل الى الجمهور قوياً مدعوماً بكل هذه السلطة الجبائية. وهكذا تكتسب الافكار الشخصية بروزاً، وبالتالي، قوة انعكاسية لا يمكنها تحقيقها بطريقة اخرى.

ان ما يخسره المحرر الفرد، من واقع اغفال الاسم عن مقالاته، في التأثير المباشر على الجماهير، يكسبه الصحفيون - القادة عن طريق كونهم مجموعة واحدة. ان تعبير «نحن» الذي يعلن باسم حزب كبير مضطرب النمو، ليعطي

بالفعل وزناً لامتناهياً، يتجاوز، في حده، الاسم الأكثر شهرة وصينياً، وبحصل «الحزب»، أي مجموعة الزعماء، من هذا العمل على حالة خاصة، لأن الجمهور لا يدري، أو ينسى أن المقالة المقدمة بصفة جماعية، إنما هي بالفعل، وبنسبة ثمانين بالمئة، عمل فرد واحد. يمكن التأكيد من أن المقالات والمناقشات المكتوبة (المغلفة) في الجريدة المركزية في ألمانيا الـ «Vorwärts» تُعتبر وكأنها نوع من الانجيزل الصادر بشكل دوري، وكأنها أيضاً ترواة مقسمة إلى مقاطع من قبل جماهير الحزب، وفي الأقاليم البروسية خاصة.

ولئن تقدم الصحافة المغلفة فرصة مناسبة ومفيدة، مؤمنة الضمانة أو التغطية المعنوية والقانونية لمحتويها من كل مسؤولية أو عقاب، فإنها تُخدم، بشكل خاص، نشر المقالات التهجيمية البغيضة والعنيفة ضد من نُوجه اليهم. وغالباً ما تصبح سناراً يحتفي وراءه الجبناء، ليقذفوا سهامهم المسحمة نحو اخصامهم الذاتيين أو السياسيين.

وتظهر عندئذ ضحية الاعتداء والتهجم، إذا صح التعبير، في حالة من الغفلة ذات الوجه أربعة.

يُعتبر القسم الأكبر من الجماهير التائب أو العقاب الذي فرض بحق هؤلاء، وكأنه صادر باسم مبدأ أو باسم طبقة، وكأنه أيضاً انبثج بمجملة من فلك أعلى، لاعتلاقة لسلطة شخصية فيه. وانطلاقاً من هذا الواقع، يظهر أن هذا العقاب شبه ثابت بقدر ما هو صارم.

يشعر التحرير، من جهة أخرى، أنه المسؤول عن النشر الذي تمّ، ولو من دون توقيع، بموافقة اجماعية صادرة عن المجموع. ويقوى عندئذ بالتضامن مع الاعتداء، الأمر الذي يجعل التدارك المحتمل للخطأ الممكن حصوله، أمراً شبه مستحيل.

أما المعتدي عليه، فإنه يجهل من هو المعتدي، في الوقت الذي لو كان يعرف اسمه، لكان اكتشف الأسباب التي دعت وأوحت بالهجوم، بدلاً من أن

يكتفي بالدفاع عن نفسه ضد اشباح هاربة، من العبث التمكن منها. وإذا ما قُيِّضَ له، صدفة فيما بعد، ان يكتشف هذا المهاجم، فإنه من غير المسموح له، وتحت طائلة فقدان شرفه الصحفي، ان يدافع عن نفسه بشكل فردي؛ ان هذا الحرمان، حرمان حق الدفاع عن النفس، ينزع عن الدفاع نفسه احدى أجدى العناصر وأكثرها فاعلية.

لقد شجع اضمحلال الشخصية في الصحافة الاشتراكية الالمانية قيام مؤسسة ومكاتب المراسلة.

وكان دور هذه المكاتب التي يديرها بعض كتاب الحزب، ينحصر في ارسال المعلومات اليومية للصحافة الاشتراكية، هذه المعلومات المتعلقة بفرع خاص: السياسة الخارجية، والمسائل النقابية التعاونية والمشاكل التشريعية... الخ.

ويعود الفضل في وجود هذه المؤسسات الى الروح الاقتصادية العالبة التي تسود صحافة الحزب. فهي (المؤسسات) قد قدمت لهذه الصحافة خدمات جلى وعشرات المواضيع المكتوبة، والتي تستلهم المصدر نفسه، عن طريق الاشتراك. كما أمنت تفوق مجموعة صغيرة متقلقة من الصحفيين الرسميين على الكتاب الاحرار، وهو التفوق الذي يبرز، بشكل خاص والحق يقال، في الحقل الاقتصادي، اذ ان المسؤولين عن مكاتب المراسلة، لا يلعبون اي دور سياسي ملحوظ داخل الحزب.

وتبقى الصحافة دوماً بين ايدي الزعماء لابين ايدي الجماهير.

وغالباً ما تتداخل بين هؤلاء، واولئك، فئة تلعب دور الوسيط، وتتألف من مندوبي الصحافة المنتخبين من قبل الاتباع الذين يترددون باستمرار لحضور الاجتماعات الحزبية، ويتحمل هؤلاء المندوبون مسؤولية السهر والاشراف على التحرير. إلا ان هؤلاء الموظفين، وفي احسن الحالات، لا يطمحون إلا للوصول الى قلب من السلطة، الى نوع من الحكم، هو في الواقع في غير محله. وباختصار، فإن مهمة حل المسائل السياسية المتعلقة بالصحافة، تبقى ملقاة على عاتق الزعماء الذين يتقاضون أجراً مقابل الأعمال التي يقومون بها لصالح الحزب.

الفصل الرابع

موقف الزعماء تجاه الجماهير

يقوم الزعماء في التنظيمات السياسية البروليتارية الدولية بتشكيل المجموعة العليا، المؤلفة من قسم كبير منها، من البرلمانيين. ان بابل Bebel وجوراس Jaurès وغيد وادلر Adler وفندرفلد وترولترا وفيري وتسوراتي وهاردي وماكدونالد، ان كل هؤلاء هم نواب مشهورون في مجالسهم التمثيلية المحترمة.

يشكل هذا الحدث دليلاً للطابع البرلماني للحزب الاشتراكية الحديثة. وهكذا يوكل كل حزب الى هؤلاء الاعضاء، الذين يتميزون بكنائهم ويقدرانهم، القيام بالمهام الأكثر دقة واهمية، وبذلك التي تحتل، برأيه، العمل الأكثر فائدة والأكثر فاعلية.

الا انه يوجد خارج نطاق هذا التفوق المعترف به والمكرس من قبل الحزب نفسه، نوعان آخران من الاسباب التي تأتي لتساهم في مضاعفة سلطة البرلمانيين. فمن جهة، يقلت هؤلاء، الى حد ما، من حقل رقابة جماهير الحزب وحتى من رقابة لجنته الادارية. ويعود الفضل في الاستقلال النسبي الذي يتمتعون به الى الامر التالي، وهو ان النائب يشغل منصباً، ويتحمل مهمة لفترة طويلة، مهمة لا يمكن لأي كان ان ينتزعها منه طالما كلفه ناخبوه بتحملها. ومن جهة ثانية، فانه، اي النائب، لا يرتبط بالحزب الا بطريقة غير مباشرة، حتى في فترة اجراء الانتخابات، لانه اذ يلتحق وكرائه من ناخبيه، فانما يلتصقها من الجماهير، اي

من هيئة غير منظمة حسب آخر تحليل لها.

صحيح ان سلطة النواب واستقلالهم تُسمي محاطة ضمن حدود ضيقة نسبياً في بعض البلدان وفي بعض المناطق، وحسب درجة تنظيم الحزب وتركيبته، إلا ان الاعتبار والتقدير والسلطة التي يتمتع بها البرلمانيون، تبقى هي هي، دوماً أي تعديل، بالنظر الى انهم هم الذين يشغلون، وفي ألمانيا خاصة، الوظائف الأكثر أهمية، تلك الوظائف التي هي بالطبع أعمال أعضاء اللجنة الإدارية للحزب.

وحيث تمنح القوانين المرعية تجميع الوظائف بين يدي النائب، وبين يدي عضو اللجنة الادارية (كما هي الحال في ايطاليا مثلاً حيث أن نائباً واحداً، معيناً من قبل زملائه البرلمانيين، يستطيع ان يدير ويشغل كل مناصب اعضاء اللجنة الادارية دفعة واحدة)، نبرز الى الوجود حساسيات وصراعات في ما بين مجموعتي الزعماء، في غالب الاحيان، بسلطة هؤلاء وأولئك. الا انه غالباً ما ينتصر النواب على هذه النزاعات وللأسباب التي اتينا، في الحال، على ذكرها.

لم تُظهر الصحافة الاشتراكية أية حركة معارضة، عندما اعتبر النائب هويه Hué وخلال المناقشات البرلمانية التي دارت حول مسألة اضراب عمال مناجم الروهر Ruhr (١٩٠٥)، ان البرنامج الاشتراكي المطروح هو برنامج خيالي يستحيل تطبيقه.

وعندما وقف الاشتراكيون الالمان، للمرة الاولى، موقف المناهض لمبدأ المعارضة الشديدة لأي اتفاق عسكري، فانهم اكتفوا بالانسحاب عند التصويت على التسليقات الاولى البالغة مليون وخمسة الف مارك، والمخصصة للحرب ضد الـ Herreros، ولم يعترض على هذا الحدث الخطير والجديد من نوعه، سوى بعض الاصوات الاشتراكية النادرة والخبجولة. في العام ١٩٠٤، وعندما كان على هؤلاء النواب الذين امتنعوا عن التصويت، أن يبرزوا سلوكهم هذا امام المؤتمر المنعقد في برم Brème، فانهم لم يلقوا الاستهجان إلا من بعض الأصوات المنفردة، قليلة التأثير.

وفما بقي، فمن المدهش ان نرى الى اني حد يقوى موقف المجموعة البرلمانية كلما نضاعت أهمية الحزب في البلد المعني.

ولقد بانت الجماهير الاشتراكية الالمانية اليوم، أشد اقتناعاً بان المارك النهائية والخاسمة لقضيتهم، انما تحدث في البرلمان، وانهم يتحاشون، بعناية وجدبة، تكبير الاعمال التي يقوم بها ممثلوهم فيه، مهما كان نوعها.

ينتج عن هذا: ان السلوك المتبع من قبل العناصر البرلمانية يكسب، ولي كثير من الحالات، قيمة مرتفعة جداً.

وتقوم الجماهير الحزبية بنشر وتعميم اي انتقاد صادر باسم المبادئ الاساسية للاشتراكية، منذ اللحظة التي يبدو فيها ان هذا الانتقاد يشكل خطراً على قوة وثبات موقف المجموعة البرلمانية. وبالمقابل، فان الزعماء يعملون فوراً وبشدة، على اسكات اولئك الذين يتجاسرون بالقاء الانتقادات وتعميمها.

وهكذا لم يتردد بابل Bebel في ان ينتقد داخل البرلمان مقالة نشرت في المجلة الاشتراكية. Leipziger Volks. (١٩٠٤) حول مسألة السياسة الجرمنية للاحزاب البورجوازية، لانها كانت مكتوبة بعبارات قاسية، شديدة الخشونة.

وهكذا أيضاً، تمكن Georg Von Vollmar في مؤتمر برم Brême في العام ١٩٠٤، من ادانة المحاولات الاولى المناهضة للاعمال العسكرية التي حدثت في المانيا من قبل بعض عناصر الحزب ولقد ابده في ذلك معظم المندوبين دون ان تظهر ضده اية معارضة من قبل القسم الآخر منهم. ومع ذلك فمن الصعب التذكّر الى ان مبدأ المعارضة للاعمال العسكرية لم يكن نتيجة منطقية للاشتراكية، وان انتشار هذه الافكار المعارضة لم تكن تشكل للحزب أهمية رئيسية. ولكن فولمار Vollmar شرّح موقفه هذا بأن أظهر انه اذا ارتأى الحزب الموافقة على هذا النوع من الانتشار وتشجيعه، فان وزير الحرب يتذرع اذ ذاك، بحجة مبتدعة، ليرفض كل تلك الاعتراضات والشكاوى الموجهة ضد الاجراءات الصارمة، التي يمكن ان تغرض على المجندين الذين تشغلهم مسألة

تعلم الآراء الاشتراكية ونشرها...

من المعروف ان جهوداً كثيرة بذلها البرلمانيون الاشتراكيون لكل البلدان، من اجل الاستيصال على حق تصويت مثل هؤلاء العناصر في مؤتمرات الحزب. ولقد كان لهم في ألمانيا ما ارادوا، خلال انعقاد مؤتمر برلين في العام ١٨٩٠. الا ان شرطاً محققاً قد رافق هذا القرار وهو ان لا يكون للنواب في المستقبل إلا صوتاً استشارياً في كل المسائل المتعلقة بالسلوك في المجلس (ريخستاغ). ولقد تم اقرار هذه النصوص وعلى الرغم من بعض محاولات المعارضة، عندما وضع النص الجديد للقانون في مؤتمر اينا Léna في العام ١٩٠٥.

لم يكن يستطيع النواب في بلدان اخرى كفرنسا وهولندا مثلاً، ان يشاركوا في المؤتمرات، وان يملكوا خلال انعقادها حق التصويت، إلا في حال حصولهم على تفويض قانوني خاص. وفي ايطاليا، لا يُسمح لاعضاء اللجنة الادارية في الحزب ولا للقسم البرلماني فيه ان يتكلموا في الجلسات العامة، الا اذا كانت الادارة نفسها قد كلفتهم تقديم تقرير معين. اما في ما يخص حق التصويت، فانهم لا يمتلكونه، الا اذا حصلوا على تفويض قانوني كما هو حاصل في فرنسا وهولندا.

من جهة ثانية، وانطلاقاً من الصلاحية الواسعة التي يتمتع بها النواب الاشتراكيون في مختلف المسائل المطروحة، فانهم يعتبرون انفسهم وكأنهم اكبر وارقي حتى من المؤتمرات نفسها، هذه المؤتمرات التي ليست سوى أعلى دورة في الحزب. كما انهم، بالإضافة الى ذلك، يسعون إلى حصر دائرة المسائل قدر المستطاع، تلك المسائل التي يجب ان تخضع لقرارات المؤتمرات وتصبح، بالتالي، الحكم الوحيد في تقرير مصير الحزب.

في العام ١٩٠٣، أعرب عدد كبير من النواب الاشتراكيين في ألمانيا، عن نيتهم في ان يجدوا حلاً بانفسهم، وخارج نطاق المؤتمرات، للمسألة الكبيرة، وهي معرفة ما اذا كان يجب على المجموعة البرلمانية ان ترضى ام لا، والحالة هذه، باشتغال منصب نيابة رئاسة الرايخستاغ، وان تحتل لقرار التواجد

والظهور في المجلس؛ لانه امر ملازم ومرتببط بهذه الوظائف البرلمانية.

وفي ايطاليا، نجحت المجموعة الاشتراكية البرلمانية والمجموعة الجمهورية بان انتصرتا وحققتا استقلالاً ذاتياً تاماً تجاه ادارة الحزب التي تنتمي اليه كل منهما. حتى ان المجموعة الاشتراكية نفسها، كانت تقبل في صفوفها، احياناً، تواباً لم يكونوا اعضاء مسجلين في لوائح الحزب، بحجة ان ناخبهم سوف يعارضون التحاقهم رسمياً بالتنظيم الاشتراكي المحلي.

لقد كان تسلط الزعماء في الحركة العمالية المحترقة، ونوقم لادارة التنظيمات الديمقراطية طبقاً لمبادئ اوليغارشية، يظهران بشكل علني، اكثر مما يظهران في الحزب السياسي بالمعنى الحقيقي للكلمة.

ان احداثاً عديدة لا تخص، مأخوذة من تاريخ التنظيمات النقابية، تظهر الى اي حد يمكن للبيروقراطية المركزية ان تعمل على ان تشتق من الديمقراطية، حركة عمالية، ديمقراطية الاساس، بشكل رئيسي. ويمكن في كل حين، رؤية مستخدمي النقابات المحترقة يمعنون في استعمال الطرق والاساليب المعاكسة لرغبة من يمثلون ويسوئون استعمالها ايضاً.

ولن نذكر، كمثال على ذلك، سوى مداولتين شهيرتين حدثتا في مؤتمر العمال النقابيين الذي انعقد في كولونيا Cologne في العام ١٩٠٥: في احدى هاتين المداولتين، أعلن الزعماء معارضتهم (وهذا ما كان مغايراً لرغبة اغلبية النقابيين) للمحافظة على عيد اول ايار، بيناً أدانوا، وعبر المداولة الاخرى، الاضراب العام، الى حد انهم حرموا على الرفاق ادراج هذه القضية على جدول المناقشة.

وتسمى اللجان المركزية للاتحادات النقابية، منذ عدة سنوات، ان تنسب لنفسها، وعلى حساب الجباهير النقابية، الحق بتحديد غط النضال في سبيل الاجور، وبالتالي، الحق بتقرير ما اذا كان اضراب ما «شرعياً» ام لا. وبما ان قيادي الاتحادات هم الذين يتصرفون او يشرفون على أمور الصندوق، الذي

غالباً ما تكون محتوياته ذات شأن، فان الخلاف يتحول، اذ ذاك وعلى ارض الواقع، الى مسألة معرفة لمن يعود الحق بتقرير ما اذا كان يجب دعم اضراب ما او مساندته ام لا.

ان الزعماء، وبادعائهم انهم هم الوحيدون المخولون اتخاذ قرار نهائي بشأن مسألة مهمة كهذه، يلحقون ضرراً كبيراً في أساس المبادئ الديمقراطية. فكيف اذا كانوا، بالبحري، قد استحوذوا على نصيب كبير من هذا الامتياز؟ وهكذا يتحولون علانية الى اوليفرشيّة، ولا يعترفون للجماهير التي هي اساس كل مورد، الا بحقها في الاختناء امام قراراتهم.

ويمكن هؤلاء الزعماء ان يبرروا استمالتهم الفاسد هذا للسلطة، بان ما يقومون به اغما يعود لاسباب تكتيكية، ومن صلب اختصاصاتهم وصلاحياتهم. واذا ما نسبنا لانفسنا واذعينا ان لنا الحق في اصدار الاحكام واتخاذ القرار بشأن مسألة ما، فهذا لأننا نعرف أكثر من العمال ظروف سوق العمل في جميع انحاء البلد، واثنا، بالتالي، اكثر قدرة وكفاءة في تقدير الحظ المتوقر لنجاح النضال الذي نعتقد انه في سبيل خوضه. هكذا يقول الزعماء.

ويضيف قياديو الاتحادات البرهان التالي ايضاً، وهو ان التوقف عن العمل في مدينة معينة، بما يلحق، بالضرورة، من اذى بالوسائل المالية، وبما يحمل احياناً من ارباك لظروف العمل المتعلقة بغئة من العمال المنظمين، يعود الحق في تقرير او عدم تقرير اعلانه للقياديين فقط، وليس لعمال المدينة المعنية انفسهم. وهكذا يتم تبرير تصرفهم هذا بالاجاس الديمقراطية المتمثل بالحفاظ على مصالح الاغلبية بوجه ميول ورغبات الاقلية.

إلا ان البحث في الاسباب والعلل التي أدت الى نشوء حالة من الاوليفرشيّة داخل النقابات، ليس هو مايجب هنا، اذ يكفي ان نتأكد كم هو قليل الاختلاف القائم بين النزعات الاوليفرشيّة البروليتارية وسائر انواع الاوليفرشيات الاخرى. هذا، وسوف نلقي نظرة سريعة على العلاقات القائمة بين الزعماء والجماهير في شكل ثالث آخر من الحركة العمالية: في التنظيم التعاوني.

وسوف نغير التعاونية انتاجية اهتماماً بنوع خاص، اذ يبدو انها، بطبيعتها، اقل قرباً من السلطة الاوليغارشية.

اما في ما يخص التعاونيات الاستهلاكية، فانه من السهولة بمكان معرفة انها لا يمكن ان تكون لها ادارة مباشرة من قبل جماهير الجمعية. وكما كان قد اظهر كوتسكي Kautsky فيما سبق، فان المقصود ههنا هو مشروع تجاري في الأساس، يتجاوز، كونه كذلك، صلاحية الجماهير. ولهذا السبب، نرى ان ادارة الجمعيات التعاونية الاستهلاكية تقوم، بشكل عام، تبعاً للمبدأ الملكي.

اليكم مثلاً ما تمكن احد النقاد من كتابته حول تعاونية، نابعة لمدينة Gand والذي كان على رأسها الاشتراكي ادوارد انسيل E. Anseele، وهي كناية عن تعاونية استهلاكية ذات اتجاهات اشتراكية بحتة: «ان هذا الازدهار وهذه الادارة المحسنة لم يكونا هكذا دون النيل من الحرية العالية المقدسة. ان الـ Vooruit (اي التعاونية) بكاملها تحمل بصمات الشخصية القوية التي خلقتها...». ان ارادة قادة، مستعدة لاسترداد وتحمل المسؤوليات التي تتراجع امام تحملها ارادات اخرى باستمرار، تنتهي بصورة شبه دائمة بالانتشاء بنفسها. ويملك السيد Anseele، وهو بالفعل رجل صناعة كبير، كل الطابع الحادة وصفات الفطرسة وأساليب المباغثة التي لأركان الصناعة الاكثر بورجوازية. «وليس الـ Vooruit بأقل من جمهورية فوضوية. فهو يرتكز، بالخير، على مبدأ السلطة».

اما التعاونيات الانتاجية، تلك التي لاهمية كبيرة لها، فانها تعيش حالة غثلغة تماماً. فهي تشمل على عناصر متجانسة تنتمي للغة العمالية نفسها، هذه الفئة التي تمارس المهنة نفسها وأعتادت على نمط معين من الحياة.

وفي الحدود التي تحتاج فيها تعاونية انتاجية الى ادارة، فانه يمكن لكل أعضاء الجمعية أن يقوموا بها، بما انهم يتمتعون جميعاً بالكفاءة المهنية نفسها.

لا يمكن لأي عضو في حزب سياسي ان يخوض في الامور السياسية العليا؛

ولهذا السبب، نرى انه يوجد داخل كل حزب سياسي مسافة كبيرة بين الزعماء والاتباع. الا ان هذه المسافة لاوجود لها في تعاونية انتاجية، كتعاونية عمال الاحذية مثلاً، لان كل اعضائها يملكون الصفات والكفاءات اياها، وهي التي تتعلق بصناعة الخذاء، وباستعمال ادوات ونوعية الجلد. مع ذلك، وعلى الرغم من هذه الشروط الضرورية لانشاء جهاز ديموقراطي صرف، فانه لايمكن ان نذكر التعاونية الانتاجية كنموذج يُحتذى للادارة الديموقراطية الذاتية.

وبالفعل، فان تاريخ التعاونيات الانتاجية يوفر لنا الخيارين التاليين: اما انها تفرق بسرعة في الفوضى والانشقاق والعجز بسبب العدد الكبير للأفراد الذين يتمتعون بحق التدخل في شؤون الادارة، واما انها تنتهي بالتحضوع لارادة شخص او عدة اشخاص، وتختصر بذلك صفتها الحقيقية كتعاونية انتاجية. وفي كل الاحوال، فان هذه التعاونيات تنشأ دائماً بفضل مبادرة فرد واحد او عدة أفراد، وهي أحياناً شبيهة بملكية حقيقية مصغرة خاضعة لسلطة وديكتاتورية مدير يمثلها في العلاقات الخارجية والداخلية، وخاضعة، بالتالي، لارادة الشخص الذي ترتبط به الى حد انها تعيش خطر التلاشي والاندحار، فيما لو مات هذا الشخص او قدم استقالته من المنصب القيادي الذي يشغل.

ومن جهة اخرى، فان التعاونيات الانتاجية هي عبارة عن جمعيات تضم افراداً، وهي جمعيات تضعف منافعتها كلما ازداد عدد الاعضاء فيها، كما انها تخضع في تطورها للقوانين النفسية ذاتها والثابتة، اذا جاز التعبير، هذه القوانين التي رافقت ورعت تطور الجمعيات الحزبية ابان العصور الوسطى.

وبقدر ما يتضاعف ازدهار هذه الجمعيات، بقدر ما تتحول لتصبح اكثر خصوصية، وتحيل الى ان يحتكر البعض كل المنافع والفوائد التي تقدمها لعضائها. فهي تعارض مثلاً، وبطريقة غير مباشرة، دخول أعضاء جدد، وذلك عن طريق تعجيز الحصول على حق قبول العضوية فيها بشكل كبير. وهي ترفض احياناً، بكل صفاء وبساطة، طلبات الانساب الجديدة، أو تتحدد الحد الأقصى لعدد الاعضاء الذي لا يجوز تجاوزه وفي حال احتياجها للمساعد والأيدي

العامة. فانها تتعاقد مع مستخدمين وعمال بصفة مأجورين فقط. وليس من النادر أن نرى تعاونية عمالية انتاجية تتحول شيئاً فشيئاً لتصبح شركة فعلية. ويحدث أيضاً أن تصبح تعاونية مامشروعاً خاصاً للمدير.

وهكذا يلعب العنصر الشخصي دوراً مهماً في الحركة الديمقراطية، كما يتغلب، وفي كثير من الاحيان، على العناصر الفعلية المتواجدة في الجمعيات الصغيرة. إلا ان تأثيره يظهر بشكل أكثر قوة في الجمعيات الكبيرة نفسها.

ففي انكلترا مثلاً، يتمتع ثلاثة او اربعة رجال فقط (ماكسد ونالند، كبرهارد، وهاندرسون، و Clynes) بثقة عمياء غير محدودة من قبل الجباهير، بشكل يستحيل معه التأثير على هذه الاخيرة إلا من خلال أولئك، وذلك استناداً للتصير الدقيق لاحد المراقبين.

وفي ايطاليا، استطاع الزعيم الاعلى للتنظيمات العمالية المؤينة ان يؤكد ان التنظيمات التي تحظى بمنظم جيد على رأسها، هي وحدها القادرة على ان تبني نفسها بنفسها، وتوطد هذا البيان وتدعمه. «لم ننظم فئات المهن المنتوعة المنتشرة في مختلف الأوساط، ولم نستطع ان نعلو وان تتجاوز الأزمات التي تعترضها، إلا في حدود تواجد رجال قديمين وفوي ثقة على رأسها، متفرغين للعمل من اجلها. وبالعكس، فان التنظيمات التي لم تحتفظ بقيادتين أكفأ، لم تنجح في تنظيم نفسها، أو أن هذا التنظيم يأتي منقوصاً فيما لو نجحت». R.

Rigola

ان السلطة التي كان ولازال بابل Bebel يتمتع بها في المانيا، تظهر غير آلاف الدلائل ابتداء من الفرحة التي استقبل بها ابنها حضر، ووصولاً الى الجهود التي بذلت في كل مؤتمرات ممثلي مختلف الاتجاهات والزعزعات لكسب تأييده ووقوفه الى جانب قضيتهم. ولقد ادرك الزعماء العماليون تماماً مدى النفوذ الذي يمارسونه على الجباهير. واستناداً الى مبدأ انتهاز القرص وتحسينها في العمل السياسي، فانهم لا يوافقون دائماً على هذا النفوذ وهذه السيطرة، وانما يستخلصون منها، في غالب الأحيان، كبرياء عظيم ولا يعتبرون انفسهم

مخطئين، عندما يتباهون أو يتجشعون بهذا الكبرياء.

لقد ادعى الزعماء الاشتراكيون في إيطاليا وفي غيرها من البلدان، بأن البرجوازية والحكومة تكتان لم يعرفان الجميل، لأنهم حافظوا على تعبيد الجماهير وأبقوها تحت رحمتهم، وشغلوا أعمال تدبير وسياسة الجمهور الذي يتحرك بدافع من عواطفه. وهذا ما يستدعي القول إن الزعماء الاشتراكيين نسبوا لأنفسهم الاستحقاق والجدارة، وبالتالي، السلطة، لمنع حدوث الثورة الاجتماعية التي كانت ستندلع منذ زمن بعيد، لولا تدخلهم المباشر.

إن الزعماء، بشكل عام، لا ينظرون إلى الجماهير بكبير تقدير أو احترام، وهم لا يتورعون عن التأكيد والاعلان بأن هذه الجماهير عاجزة عن ادارة نفسها بنفسها، وبالتالي، عن ادارة ورعاية شؤونها الخاصة. يقولون هذا، اذ قد سمحت لهم الفرصة بأن رأوها عن كثب وخبروها أثناء تجايرة وظائفهم إلى جانبيها، ويضيفون انه ليس من مصلحة الحزب ابدأ أن تغطي أغلبية أولئك الذين لا يملكون رأياً شخصياً حول ما يدور حولهم، على أقلية من الرفاق تثار وتلاحق وتدرس المسائل الحزبية والعامة المطروحة، بعمق وجدية. لذلك يعلن الزعماء وقوفهم ضد مسألة الاستفتاء العام، أو على الأقل، ضد ادخاله واعتماده في حياة الحزب.

ويعترف الزعماء المالئون انفسهم احياناً، وبمنتهى الصدق، بتفوقهم الواقعي على الميليشيات الموكل بهم امر قيادتها، وبقرارهم الصارم في الا يقبلوا ان تفرض عليهم هذه الميليشيات خطأ معيناً من السلوك. ويضيفون أيضاً، بانهم يحتفظون لأنفسهم بحق الثورة والانتفاض، والحالة هذه، ضد الأوامر الصادرة اليهم. وإليك مثلاً ما قاله في هذا الموضوع رجل بمستوى Filippo Turati من الذكاء والثقافة، في مؤتمر عالمي تم عقده في روما في العام ١٩٠٨، وهو زعيم الحزب الاشتراكي الايطالي الأكثر نفوذاً: «إن مجموعة النواب الاشتراكيين هي دائماً بخدمة الترويليتاريا بشرط الا تضطرها للقيام بأعمال فظة تدعو للسخرية». وهذا يعني دون ان نقوله، ان على النواب أنفسهم ان يرتأوا، في كل حالة

خاصة. ما اذا كانت الاعمال التي يفرض عليهم القيام بها مدعاة « للسخرة » ام لا.

ان تجميع السلطة بين أيدي بعض الشخصيات القليلة نسبياً، كما هي الحال في الحركة العمالية، يؤدي بشكل محتم إلى مزالق وانتهاكات عديدة. فهكذا يتحول « الممثل » الفخور بكونه الشخص الذي لا يستغنى عنه، وبكل سهولة وبساطة، من خادم للشعب إلى سيد هذا الشعب. ان الزعماء الذين وصلوا إلى هذا المنصب، وفرضهم اتباعهم فيه، ينتهون، اذا طالت المدة، بأن يصبحوا اسباذهم: فهنا تكمن حقيقة قديمة، اعلنها Goethe فيا مضي، عندما جعل احدي شخصيات قصصه يقول عن لسانه، بأن الرجل يتهاون دائماً ويسمح بأن تسيطر عليه طبيعته البرية الخاصة.

وكضرورة طبيعية حتمية، يتحمل الحزب الذي يشور ويتمرد ضد الانتصارات والانتهاكات التي تتكاثر سلطة الدولة، الانتهاكات التي تقرتها سلطاته الخاصة به. فالجواهر أكثر خضوعاً لزعمائها منها لحكوماتها. وهي تتحمل من أولئك الاسماء أكثر مما تتحملة من تلك.

وتتأثر الطبقات الشعبية أحياناً، وتتحرك، نتيجة الضغوط التي تمارسها عليها الطبقات العليا، فتثور أو تقاوم، كما تؤكد وتبرهنه الهيجانات الشعبية في فرنسا، أو ما يسمى بالعصيان المدني، وحروب القرويين في ألمانيا، وانتفاضات « الفاشيين » والصقليين في العام ١٨٩٣، والتي توصف كلها بأعمال ثائرة دموية، في الوقت الذي لا ندرك فيه تلك الطبقات، أن ما يحدث إنما هو نتيجة ظلم واستبداد الزعماء بها.

واذا ما توصلت الجواهر يوماً لترى بأمر عينها الانتهاكات التي يقرتها قياديو الحزب ضد المثالي الديمقراطي، فأن دهشتها واندهاشها لن يعرّفها حدوداً. ولكن، اذا حصل اذ ذاك واستطاعت ان تثور، فانها سترهن كم هي قليلة المعرفة بطبيعة المشكلة الحقيقية القائمة. وبالفعل فانها تظن ان افضل طريقة تتبعها لمحاربة الأمراض الاوليغارشية التي تتألم منها، إنما تكمن في تقوية

مركزية سلطة الحزب، هذه المركزية التي هي بالضبط مصدر كل هذه الأمراض.

الفصل الخامس

الصراع على السلطة بين الزعماء

ان مسألة قدرة الزعماء اللامحدودة في الاحزاب الديمقراطية نستدعي، في الوقت نفسه، تقييداً.

فعلل الصعبد النظري، يرتبط الزعيم بارادة الجماهير اذ تكفي اشارة منها حتى يضطر للانسحاب او للاستقالة. وهو في كل حين قابل للتغيير والاستبدال. لقد سبق ورأينا، مع ذلك، ان عناصر كثيرة تتراكم لتأمين استقلال تام للزعماء... ولن يبقى اقل من انه اذا لم يستطع الحزب الديمقراطي التخلص من الزعماء المستبدين، فانه يستطيع، على الاقل، ان يغيرهم. يستنتج من ذلك، ان خطاً الزعيم الأكثر جسامة يكمن في ان يكون له ثقة عمياء للغاية بالجماهير.

وهي (اي الجماهير) توفر اقل عدد من المفاجآت للزعيم الارستقراطي منه للزعم الديمقراطي.

وان ما يميز الديمقراطية بالفعل وبصورة رئيسية، هو أن ايأ كان يستطيع، وتحت راية نظامها، أن يكون ماريشالا، بمعنى أنها ترتكز على قاعدة المساواة والعدل.

صحيح أن الجماهير عاجزة دائماً عن أن تحكم نفسها بنفسها، الا ان ما هو صحيح أيضاً، هو ان ايأ من عناصرها، ومهما قلت الصفات الحميدة او السيئة

التي تسمح له بالارتقاء الى ما فوق رفاقه، يستطيع ان يصل الى درجة الزعم،
ويأخذ على عاتقه مسؤولية ادارة المجموع.

الا ان ارتقاء الزعماء الجدد هذا، يستجلب دائماً خطراً يتمثل في تخليهم عن
مراكزهم لوافدين جدد آخرين. كما انه يتوجب على الزعم القديم أن يبقى على
اتصال دائم ومستمر مع آراء ومشاعر الجماهير التي يعود لها الفضل في وصوله الى
مرتبة الزعامة، كما يتوجب عليه أيضاً ان يقر بأسلوبها وان يخضع، ولو
ظاهرياً، لرغباتها.

يستخلص من هذا، أن الجماهير تبدو في الحقيقة مسيطرة على الزعماء. لكن،
وفي كل مرة تصبح فيها سلطة هؤلاء مهددة جديداً، فهذا يعني، في الواقع وفي
اغلب الاحيان، ان زعيماً جديداً أو مجموعة جديدة من الزعماء تحاول فرض
نفسها على الجماهير، وتلقينها آراءها الخاصة المتعارضة، وآراء قدامى قيادتي
الحزب.

وبدو، عندئذ أن على هؤلاء القياديين القدامى، ان يوافقوا على اقتسام
السلطة مع الوافدين الجدد، اذا لم يرغبوا بالانصياع لأرادة الجماهير
والانسحاب. إلا انه، اذا راقبنا الامور عن كثب، نلاحظ، دون مشقة، أن
خضوع هؤلاء وأنصياعهم ليسا بشكل عام، سوى اجراء احتياطي يقصد منه
جعل تأثير المنافسين الشباب دون ذي فائدة تذكر.

ان الطاعة التي يظهرها الزعماء للجماهير في بعض المناسبات، ولو كانت
ظاهرياً على الاقل، ترتدي لدى الضعفاء منهم والأكثر حنكة شكلاً ديمagogياً
أو تحجبياً.

ان الديمagogيين هم الذين يتملقون ويتقربون من الارادة الشعبية. فهم،
وبدلاً من أن يرتفعوا بالجماهير اليهم، ينحنون بالعكس اليها. وفي الواقع، فإن
هؤلاء لا ينفون الا جعل هذا الشعب ينضوي تحت ارادتهم، ويرزح تحت
نبرهم، ليحكموا بالتالي باسمه، وذلك كله عبر الضمانات الكاذبة والمغلوطة التي
يطلقونها مرفقة، في غالب الاحيان، بتصرفات وأعمال هي بالفعل مزيج من

للوثنيين المأساوي والمزلي في الوقت نفسه. اما بالنسبة للمشرقيين منهم، فان سر النجاح يكمن في « معرفة وضع مشاعر الجماهير العمياء في خدمة مخططاتهم الخاصة، المحبوكة بنضج كامل ». K ·chanowoki .

لقد ادعى أن الثورات الشعبية تنتهي بالاجل، بتدمير زعمائها. وذكرت في هذا الخصوص اسماء كل من Masaniello، Cola di Rienzi، في إيطاليا، واسماء Robespierre، و Danton، في فرنسا.

ان هذا التأكيد، وبعيداً عن التكلم بالعموميات، يرتكز على ملاحظة دقيقة. الا ان اتهام المجموع بالتمرد والوقوف بوجه زعمائها، وتحميلها مسؤولية تدمير هؤلاء الزعماء، ليس سوى غلطة كبيرة؛ فليست الجماهير من أوهب الزعماء واعتدى عليهم؛ انهم الزعماء انفسهم وقد تأكلوا بمساعدة الجماهير. مثال نموذجي على ذلك: لقد اوقع Robespierre به Danton واسقطه، ووقع هو الآخر على ايدي اتباع Danton الذين بقوا على قيد الحياة بعده.

ان الصراع الذي يظهر في ما بين الزعماء، والحسد المتبادل في ما بينهم، يدفعانهم لنشر واظهار نشاط متزايد أكثر فأكثر، وحية اصطناعية في الغالب. ويسعى النواب الديموقراطيون ان يبرزوا خصومهم في الحزب من سلاحهم، وان يكسبوا، في الوقت نفسه، سحراً جديداً امام أعين الجماهير عن طريق تقديم البرهان في البرلمان؛ نشاط فائق في خدمة القضية المشتركة. وهذا ما يعتبرونه واجباً ديموقراطياً واجراء احتياطياً شخصياً، في الوقت نفسه.

ويجد النائب نفسه مضطراً للعودة الى ناخبيه والظهور أمامهم، لكي يدلل لهم انهم دائماً في باله، وذلك لأن معظم هؤلاء، بالإضافة الى أن غالبية الرفاق أيضاً، مهياؤون، لا يبل مدفوعون لآتهام بالتراخي والكلل، علماً بانهم لا يدركون الأعمال والوظائف التي يقوم بها ادراكاً دقيقاً محدداً. فهذه الحاجة، حاجة النائب للعودة الى ناخبيه، هي التي ولدت وسببت وفرة الخطابات التي يُعدها ويلقها في كل مناسبة، والتي كان يصفها الاملان بالخطابات التي لانهاية لها، والتي كانت تشكل أكثر من نقاش صاحب داخل المجالس البرلمانية في

النمسا وفي فرنسا وفي انكلترا وفي إيطاليا.

وما يؤخذ بالاعتبار فعلاً، أن السبيل الأكثر فاعلية لابقاء الجاهل يقفلة متنبهة، وجعلها فخورة بزعمائها، يكمن في إثارة الاشكالات او العوارض الشخصية التي هي اكثر اهمية واكثر تناوُلًا، بالنسبة لمستوى الذكاء لدى القسم الكبير من الجمهور، من تقرير. يحكي عن استخدام القوة المائية او عن معاهدة تجارية مع جمهورية الأرجنتين مثلاً.

ويضاف الى ذلك أيضاً في عدة بلدان، وبتنوع خاص في إيطاليا، ان الصحافة الرجوازية، تسجل هذه الانواع من الاحداث بكثير من المراجعة، دواما انقاص في أدق التفاصيل، خاصة عندما تكون هذه الاحداث من صنع نواب الاشتراكيين. ويستنتج من هذا، وحتى في الظروف العادية، ان النشاط الخطائي للنواب الديمقراطيين هو أكثر اعتباراً وظهوراً.

لقد تباهى النواب الاشتراكيون في إيطاليا، انهم نالوا ٣١٢ مرة حق الكلام في البرلمان، في الفترة الممتدة من ٢٥ آذار وحتى عشرة تموز من العام ١٩٠٩. ويمثل هذا الرقم نسبة ٢٠,٤ من مجمل الخطابات التي القيت في المجلس في هذه الفترة من الزمن، في الوقت الذي لا يمثل فيه الاشتراكيون سوى ٨٪ من مجموع عدد النواب.

ان ثرثرة كهذه لا تصلح فقط للحفاظ على هبة الحزب وسحره في عيون خصومه، وانما تطل أيضاً مصلحة كل نائب، فيرى فيها سبيلاً لتأمين إعادة انتخابه ضد اعدائه الخارجيين، كما ضد المنافسين الحقودين في داخل صفوف الحزب نفسه.

ان مصدر الاختلافات في وجهات النظر، هذه الاختلافات التي تسبب نزاعات في ما بين الزعماء، يمكن ان يكون متنوعاً لا محصوراً.

لذلك، يمكن تقسيم هذه الاختلافات الى فئتين بشكل عام: الاختلافات الشخصية، والاختلافات المبدئية او الفكرية. الا ان هذا التقسيم لا يعدو كونه

تقسماً نظرياً صرفاً، لأن الاختلافات المبدئية تتحول بسرعة، في غالب الأحيان، الى اختلافات شخصية، وهذه بدورها، تحاول أن تعطي لنفسها صورة اختلاف حول المسائل المبدئية او التكتيكية كونها تجعل من الظهور بمظهرها الحقيقي، بكل وقاحة وعراء.

ان خطرين جسيمين يهددان وجود الاوليغارشية المشتقة عن الديمقراطية: ثورة الجماهير ودكتاتورية زعيم جسور الى حد الوقاحة، يستخرجو القرف العام لخدمة طموحاته الشخصية. تمرد من جهة، اذن، وأغتناب للسلطة من جهة اخرى. وهذا ما ينتج عنه غياب تام للاخوة الحقيقية في الاحزاب الشعبية الحديثة، أي غياب للنقطة الحسنة المخلصة المتبادلة. وهكذا تعيش هذه الاحزاب في حالة دائمة من النزاع المرير والمهيجان، حالة يعود السبب في وجودها للشك المتبادل ولعدم الثقة في ما بين الزعماء.

ويرتاب كل نظام اوليغارشى من الطامعين اليه، الذين يشتم فيهم، ليس فقط انهم ورثته المحتملون، وإنما أيضاً خلفاؤه المستعدون للحلول مكانه، دون أن ينتظروا انهياره أو موته الطبيعي. فهذا هو الصراع أو النزاع القائم بين من هم في الداخل ومن هم في الخارج، اي بين هؤلاء الذين يعملون داخل النظام وأولئك الذين ينتظرون في الخارج، بين القياديين او الطامعين الى مركز القيادة.

وباسم المبادئ المزعومة خالدة، يعلن هؤلاء الحرب ضد أولئك. ولكنه في الواقع، اعلان يركز على أسباب تافهة قليلة الأهمية. كما أنهم يتواجدون في الاجتماعات متخذين موقف الأخصام الذين يختلفون حول النظريات، وهم فخورين، اشداء، لا يمكن مقاومتهم، يتكلمون بصوت مرتفع وكأنهم يقولون اشياء كبيرة جداً، ويملأون القاعة صراخاً، وذلك كله لهدف واحد فقط، وهو تخويف قيادتي الحزب ودفعهم للتخلي عن قسم من المكاسب للرفاق المشاكسين، والذين لم يعد بإمكانهم الصبر الانتظار. الا ان قدامى الزعماء، غالباً ما يقاومون ويصبرون بعزم وقوة ضد كل ذلك. فيغير المعارضون، والحالة هذه، خططهم

وتكتيكيهم، ويتركون موقف العراك الذي كانوا يتمسكون به، ليلتحقوا بعربة النصر التي لرجال السلطة والنقوذ، أطلين، من وراء ذلك، استالة العطف نحوهم وتحقيق مخططاتهم الطموحة بطريقة ملتوية.

ان الصراع القائم بين قدامى الزعماء والطامحين الجدد يوقف مفعول التهديد الدائم لحرية الكلمة وحرية الفكر. ويوجد هذا التهديد داخل كل تنظيم ديمقراطي جيد التنظيم وشديد البنية

ان الزعماء الذين يمسون بزمام السلطة في الحزب، لا يكتفون ولا يتفنون ارادتهم او رغبتهم القاضية بنقيض حرية الكلمة، قدر المستطاع لدى الرفاق الذين لا يسواقتونهم الرأي. لذلك نرى ان القيمين على السلطة هم دائماً المناصرين او الحزبيين الاكثر تحمساً للسلوك الحسن، والخضوع للقوانين المرعية، اذ يعتبرونها الشرطين الاساسيين لوجود الحزب. وهم بالاضافة الى ذلك، يذهبون الى حد تطبيق الرقابة على الزملاء المشكوك بأمر انخيازهم لجهة القيام بأي تمرد أو عصيان. وهم بالتالي يجبرونهم على ترك المجالات المستقلة التي يديرونها، وعلى نشر مقالاتهم في نشرات الحزب الرسمية ليس الا.

وهكذا ايضاً، حذر الحزب الاشتراكي الالماني اتباعه وحرمهم من المشاركة في عمل الصحف الكبيرة البروجوازية. وبشكل عام، فلقد حرمهم من نشر اي شيء يفلت من رقابة قيادتي الحزب، لسبب او لآخر، حتى لو كان هذا الشيء كلاماً اشتراكياً بحتاً.

يمكن للزعم القديم ان يعتمد في بداية صراعه ضد الشباب، على دعم الجماهير نفسها.

ان جماهير كل الاحزاب العمالية تعيش حالة طبيعية من عدم الثقة بأي عنصر جديد، لم ينتسب الى الحزب، بناء على توصية رسمية من قدامى الاعضاء فيه. الا ان هذه الحالة من عدم الثقة تصبح علانية بشكل خاص، عندما يكون الوافد الجديد هارباً من طبقة اجتماعية اخرى. وفي هذه الحال، يتوجب على

العضو الجديد هذا، ان يخضع لفترة اربعين يوماً قبل ان يكتسب حق التعبير عن رأي شخصي ما. وهي فترة طويلة في الحزب الاشتراكي الالماني يسبها وجوده والامتياز الذي يضيفه على زعمائه الحاليين. وبالفعل، يمكن ان يعتبر الكثير من هؤلاء أنفسهم وكأنهم المؤسسون، وأنهم تحملوا الكثير من الاضطهادات الحكومية، والصعوبات القانونية التي فرضت بحق الاشتراكيين.

ان الاشتراكي الذي يحمل في جيبه بطاقة انسابه الى الحزب، منذ ثماني او عشرة سنوات، يعتبر غالباً في القسم التابع له، وكأنه رفيق «شاب». وان ما يأتي أيضاً ليزيد من قوة هذه الظاهرة، هو الاحترام الذي يُكرَّم للعضر، وللمرتبة. هذا الاحترام العميق الجذور لدى الشعب الالماني، والذي لم تنجح الديموقراطية الاشتراكية في تجاوزه تماماً. يضاف الى ذلك أخيراً أن بيروقراطية الحزب المهالي الالماني، وكلل بيروقراطية قوية البنية، تمتاز بخصوصية عزيزة عليها.

وتفسر كل هذا الوقائع، وبشكل كبير، نقصان العناصر الشابة والقادرة، هذا النقصان الذي تشكو منه الديموقراطية الاشتراكية الالمانية بأعتراف العديد من الاشتراكيين أنفسهم. ولقد وصل بنا المطاف الى حد وصف المؤتمرات السنوية التي يعقدها الحزب «بمؤتمرات الموظفين». ولم يكن هذا التعت مجاناً، دوغماً سبب، وذلك لأن موظفي الحزب (والنقابات) يمثلون نسبة هي، بالفعل، كبيرة جداً من بين الاعضاء المنتدبين لحضور المؤتمرات.

ولكن الاتهامات التي يدور اهتمامنا حولها ههنا، فهي أنما تظهر نشطة فاعلة بصورة خاصة، فذلك عند وضع التسلسل، الاداري للمناصب العليا.

ان ادارة الحزب الاشتراكي الالماني لم توكل يوماً الى عناصر شابة، كما هي الحالة غالباً في ايطاليا، ولا الى كتاب سياسيين أحرار، كما في فرنسا، وإنما أوكلت الى رجال أكبر سناً، «الى قدامى»، الى موظفين داخل الحزب. وتأتي التسمية المحافظة للجياهير إياها لتساعد طموحات الزعماء الأكبر سناً، لأن فكرة تسليم أمر العناية بمصالحها لأشخاص من الدائرة نفسها التي يتبعون لها، لن

نمر في خاطرها مطلقاً، وذلك أستاذاً منه الى أن هؤلاء الأشخاص لا يقومون بأية مهمة، والى أنهم لم يزودوا القيام بأي مسلك بيروقراطي منظم.

كما أنه مافيه الزعماء القدامى يلجأون، بفطرة أكيدة، وفي سبيل محاربة الزعماء الجدد الذين مازالوا يشكلون أقلية ضعيفة، لسلسلة من الأساليب الشريرة الى حد ما، والتي لن تجعل أمد هزيمة هؤلاء بعيداً اذا لم تؤمن لاولئك دائماً، النصر والغلبة. أن تجعل من المعارضين اشخاصاً غير ذي كفاءة وقدره، او أن تجعل منهم اناساً سيئي السمعة، أصحاب جلبه وضوضاء، مشاكسين متزعجين مشعوذين، فهذه وسيلة بمتناول كل الناس، لا يتأخر الزعماء القدامى ولا يخطئون أنفسهم باستخدامها.

الا انهم يحاولون غالباً تبرير سلوكهم هذا تجاه العناصر الشابة، مودين أسباباً من الدرجة العالية جداً. فهم يدعون، بنوع خاص، الى ضرورة صيانة استقامة ونزاهة الحزب والمحافظة عليها، الى ضرورة وحدة عقيدته وتكتيكيه، هذه الاستقامة وهذه الوحدة اللتان يمكن ان يتعرضا لخطر جسم نتيجة غزو العناصر الشابة وأنضمامها في صفوف الحزب، دون أن تكون قد أخضعت لفترة تدريب كافية، ودون أن تملك الخبرة والاختصاص الضروريين.

ويعلم الزعماء المسنون أن من واجهم السهر على ألا تقدم لهم الجباهير أو تقبل بأن ينضم اليهم زملاء غير مرغوب بهم. ولهذا السبب، يفرض هؤلاء الزعماء ويلتصون على المعاهد التدريبية بالألا ترسل للمجلس Reichstag مرشحين لم يحظوا بترشيح ادارة الحزب لهم.

كما يسمى الزعماء المسنون ان يستميلوا اليهم ويربطوا بهم الفئات الاجتماعية الدنيا، الناشئة حديثاً والتي ليس لها بعد زعماء معروفين وقاديرين، اذ تكاد لا تكون قد انفتحت على الحياة السياسية بعد. وبعد الانتهاء من هذا العمل، ينتقل هؤلاء الزعماء الى تحريم ومنع بروز نيارات فكرية جديدة، وخلق التضارب الذي يمكن ان تخلقه في صفوف الحزب.

ففي ألمانيا، ينظر زعماء الديمقراطية الاشتراكية وزعماء التنظيم النقابي، بأدب ذي بدء، بعين الغيرة والريبة لنشوء حركة الاشتراكية الشابة. ولكن، عندما أدرك الجميع، من هنا ومن هناك، بأنه لم يعد ممكناً عرقلة هذه الحركة والوقوف بوجه انتشارها وتوسّعها، عملوا للوصول إلى تزعمها وتحمل مسؤولية الإدارة فيها.

وفي سبيل قيادة وتوجيه هذه الحركة الشابة، تم خلق اللجنة المركزية للشبيبة العاملة الألمانية، المؤلفة من أربعة ممثلين لكل من أقسام الحركة الثلاثة؛ إدارة الحزب الاشتراكي، لجنة النقابات العامة والشبيبة الاشتراكية. وهكذا، ضمت اللجنة المركزية المذكورة ثمانية أعضاء «مسنين»، مقابل أربعة أعضاء من «الشباب». وفي سبيل تبرير هذه الوصاية المفروضة على الشباب، تحتج الزعماء المسنون، بطريقة اقرب إلى المزاورة منها إلى المنطق، بعدم قدرة الشباب، والشباب فقط، باختيار زعمائهم بصورة صائبة، وممارسة رقابة فاعلة عليهم.

على الرغم من عرضنا لكل هذا، لازلنا بعيدين تماماً عن ذكر كل الأسلحة التي هي بتصرف الزعماء المسنين، المتواجدين على رأس السلطة، لتحويل المتنافسين الجدد إلى أشخاص عديمي القدرة، ورميهم في حالة من العجز.

من جهة أخرى، فإن الطريق المؤدية إلى السلطة هي أيضاً مليئة بالصعاب والمشقات بالنسبة لهؤلاء الشباب. إنه طريق مزروع بالمكائد والخوارج العديدة المتنوعة التي لا يستطيع تسهيلها ورفعها إلا قوة الجماهير وعظم اعتبارها.

ومن النادر أن ينتهي الصراع القائم بين الزعماء المسنين من جهة، والزعماء الشباب من جهة ثانية، بالانتصار الكامل لأولئك على هؤلاء. وغالباً ما يؤول النصر إلى صهر التخبّة واتّحادها، أكثر مما يؤول إلى الدوران في الحلقة المفرغة. وتعبير آخر، فإن الغلبة تُفرض إلى توحيد ودمج المتصيرين معاً. وهنا تعرف الاقلّيات المتمردة الثائرة، كيف تصير وتحتل الظروف في انتظار ساعتها الآتية، على قدر ما ترى في هذه الساعة فائدة لها ومصلحة. كما تعرف أيضاً

التظاهر بالتحضوع أو بالانصياع لارادة الاغلبية، والمرافقة العمياء على الاوامر الصادرة التي تحمل في طياتها بذور الاتهام والادانة.

ويجب ان يصبح تنافر الاطباع والأفكار بين الأغلبية والأقلية تنافراً مطلقاً، لكي يخلق انشقاقاً ويجزئه في صفوف الجاهل، يؤدي بها الى خلق أحزاب مختلفة تعمل بدورها، وبالسرية المطلوبة، لاقامة تنظيم اوليغارشى خاص بكل منها.

ويصبح المبدأ الديموقراطي، إبان فترة الصراعات والنزاعات التي يسوق الزعماء أنفسهم فيها. توجهاً للوصول الى الزعامة والقيادة، يجزء فخر أو شرك يقصد من ورائه استئالة الجاهل وأغراضها.

وفي سبيل الوصول الى السلطة والتمسك بها والمحافظة عليها، فان كل الاساليب وكل السبل تصبح جيدة صالحة؛ ومن السهل التأكد من ذلك، عند مراجعة قراءة المناقشات التي أثارها المسألة الهامة المتعلقة بالنظام المفروض أتباعه واعتاده في تسمية أعضاء إدارة الحزب. لذلك ترنو كل الاتجاهات التي تظهر على هذا الصعيد وتطمح الى المهدف نفسه، الى معرفة كيفية محافظة مجموعة معينة على الزعامة.

وهكذا أراد أتباع Guesdes في فرنسا، وهم يعدون الكثير من المناسرين، ان يتم اعتداد مبدأ التمثيل النسبي. بينما طالب أتباع Jaurès، وهم يعدون قسماً أكثر بما يعدون أعضاء، وكذلك أتباع Hervé بالابقاء على نظام التمثيل المحلي أو التمثيل بالانتداب.

أما في البرلمان الاميركي، فان كل حزب يملك لجنة خاصة مهمتها السهر على ان يكون اعضاءه مثابرين على حضور الجلسات، وألا يتخلفوا عن الدعوة اذا ما وجهت اليهم في حالات اتخاذ القرارات والتصويت على أمور وقضايا ذات اهتمام خاص.

وعندما يكون هناك مشروع قانون يحمل بعض الفائدة، على وشك ان

يطرح على التصويت، تدعو هذه اللجنة إذ ذاك، وعلى الفور، الى اجتماع خاص للمجموعة البرلمانية التي تقر في هذا الاجتماع الاتجاه الذي يتوجب على النواب التصويت بوحيه. أن القرار الصادر عن اجتماع كهذا هو قرار ملزم لكل الذين ينتمون الى الحزب.

أما حالات المصيان وعدم التقيد بهذا القرار، فانه من الطيبي ألا يعاقب مرتكبوها طيلة فترة انتدابهم النيابية. الا أن النائب المنفرد كثيراً برأيه، فانه يضمن لنفسه خسارة مقعده في الانتخابات التي تلي مباشرة فترة انتدابه الاولى، وذلك لأن القيمين على الحزب، المقيمين في واشنطن، ومراقبي تنفيذ خطته، يسرعون في اطلاق من في يدهم القرار على التصرف غير الملتزم الذي ارتكبه فلان أو فلان من النواب.

ان اجتماع المكتب السياسي، Caucus الأكثر أهمية، هو ذلك الذي يسبق مباشرة جلسة انتخاب رئيس المؤتمر. فالأفكار التي يطرحها هذا الرئيس وجاذبة شخصيته ونلاطفه، وبما لهذه الصفات من تأثير قاطع على الطريق التي سوف يتم بموجبها تأليف اللجان، وبالتالي، على مجمل مسيرة التشريع طيلة فترة النيابة، يستخلص من كل هذا أن انتخابه يمثل أهمية كبرى لاتضاهيها أهمية أخرى. كما يسبق هذا الانتخاب أيضاً تعقيدات ومكائد وتراكم وراء تأمين الأصوات لفترة تدوم عدة اسابيع متتالية.

وعندما يتملق الامر بقوانين ذات اهتمام ثانوي، فإن كل عضو في المؤتمر يتمتع بالطبع بحرية كاملة في التصويت كما يحلو له. ولكن يفرض على أعضاء الحزب في الفترات الصاخبة، وبالإضافة الى خضوعهم لقرارات المكتب السياسي، خضوع شخصي لسطة زعماء الحزب المعروفين. وينطبق هذا الاجراء بشكل خاص على مجلس النواب، إذ أن أعضاء مجلس الشيوخ هم، بصورة عامة، أكثر غيرة على مساواتهم المطلقة. وفي المقابل، فإن المكتب السياسي يمثل أهمية كبرى في مجلس الشيوخ حيث تحركه فاعل أكثر، إذ نادراً ما يضم أكثر من حسين شخصاً، بينما يتألف من أكثر من مائتي عضواً في مجلس النواب.

أن مجموعة الديمقراطية الاشتراكية الألمانية النيابية تخضع، هي أيضاً، لسيطرة شديدة في بنيتها الداخلية تبعاً لمبدأ الخضوع والالتزام. فالأغلبية هي التي تقرّر موقف القسم (البرلماني) في مختلف المسائل المطروحة في الرايخستاغ Reichstag أو في اللانداغ Land tag. لذا، يحدّد نصوبت الأغلبية الزامية السلوك السياسي لكل النواب، وأستناداً لذلك، لا يحقّ لأيّ منهم الاعتراض أو التمتّع.

ونصوّت المجموعة بكاملها أيضاً في البرلمان وكأنّها شخص واحد. وهذا ليس فقط في المسائل المتعلقة بالاشتراكية، بل أيضاً في كل المسائل التي لامت لها الا بطريقة غير مباشرة، والتي يتوجّب على كل واحد ان يستطيع تجاهها اتخاذ قراره المناسب، تبعاً لأرائه الشخصية.

ولكن هناك حالات تظهر خلالها كل الاجراءات الاحتياطية المتخذة بغير ذي فاعلية ودون جدوى. ان النائب الذي يجوز، من خارج البرلمان، على الدعم الصارم لمعاوي زعماء بعض الاقسام، يستطيع ان يتمرّد ويقف بوجه كل زملائه، متأكداً من أن الناصر حليفه في النهاية. فالناخبون الاشتراكيون، أو غيرهم، يتبعون، بسهولة ووداعة، تذبذبات ومناورات من انتخبهم.

لقد أقال الحزب الاشتراكي الفرنسي من صفوفه الوزراء بريان Briand، وفيفياني Viviani، وميلران Millerand. ولكن التنظيمات الاشتراكية لدوائهم الانتخابية بقيت وفية لهم، وفصلت تقدّم استغالات جاعية من الحزب على التخلي عن الرجال الذين يجوزون على ثقتهما.

تلك كانت حالة جون بيرنز John Burns في انكلترا، وانريكو فيري في إيطاليا. لقد كان كافياً لانريكو فيري أن يكشف، في وقت من الاوقات، عن حقيقة جديدة، ليخلق مباشرة تغييراً جاعياً في الآراء الساسية لمنطقة بكاملها؛ فلقد ارتدّت هذه المنطقة التي كانت مع فيري ثورية، صارمة، وبين ليلة وضحاها، ومعه أيضاً، الى اعتناق مبدأ مشاركة الطبقات وموالة الوزارة الى أقصى حد.

ففي ألمانيا. نوجب على العناصر العليا في الحزب أن تستخدم كامل سلطاتها ونفوذها لكي تستطيع أن تمزق رفاق شمينتز Chemnitz عن نائهم Max Schinnel. ورفاق Mittweida عن نائهم Otto Göhre. لأن هؤلاء الاثنين قد اظهروا ضعفاً في الإرادة وهفوات ملحدة.

ويسعى نواب الأقليات الإصلاحية في الأحزاب العمالية الحديثة، وبكل الوسائل، لأن تقف سلطة الجماهير غير المنظمة وغير الملتزمة بتأخيها، بوجه سلطة جماهير الحزب المنظمة. وهم يدعون، بالإضافة الى ذلك، انه يتوجب عليهم قبل كل شيء، أن يعلموا تلك الجماهير (غير المنظمة) بسلوكهم السياسي. ومن العدل الاعتراف أنهم، وهم يتصرفون بهذه الطريقة، مدفوعين، في غالب الأحيان، بشعور ديموقراطي صرف.

وهكذا نرى غداة مؤتمر لندن (١٨٩٣)، ان اربعة نواب اشتراكيين فرنسيين رفضوا، خلافاً لقواعد مبدأ قبولهم في المؤتمر، استخدام حق التفويض الذي أوكلته اليهم مجموعات سياسية أو نقابية. ولم يتوصلوا، بعد نقاشات حادة للغاية، أن يُقبلوا على الأقل، بصفتهم نواباً، الا بعد طرح السؤال المبدئي التالي: ألا يجب على جسم انتخابي مهم، قادر على ابصال نائب اشتراكي الى المجلس، أن يجوز، على الأقل، على الحقوق نفسها المعترف بها لمجموعة اشتراكية أو لنقابة عمالية محلية، خاصة اذا ما طعن بان هذه المجموعة أو هذه النقابة تتألفان من حفنة قليلة من الاتباع؟

أن ما يميز تاريخ الحركة العمالية الدولية، على الرغم من شباها النسي، هو أن صور زعمائها تظهر على مسرح هذا التاريخ عبر مواقف أكثر ترفعاً مما يظهر في تاريخ أية طبقة اجتماعية حديثة أخرى.

ان الحركة العمالية تقدم لنا، بالطبع، هي الأخرى، أمثلة عن زعماء انحطت قيمتهم وهبطت بسبب تخلفي مناصريهم عنهم. ولكن هذه الامثلة النادرة أساساً، تعني فقط ان زعيماً جديداً تبرز في صراع مع زعيم مسن، ينتهي بالتغلب عليه بفضل دعم الجماهير التي تنجح في الحصول على عطفها ونيل ثقتها. ولكن

ديموقراطية كهذه لا تستخلص أي نتيجة من تبديل مشابه.

وكما يصبح الكاثوليكيون مناصرين اشداء المحرية، في كل مرة يشعرون فيها أنهم أقلية، كذلك يعادي الزعماء الاشتراكيون الذين يرأسون الأقلية المعارضة في الحزب، وبشراسة، كل انواع الاستبداد والتسلط، ويعارضون، بكل قواهم، العقل الضيق والبوليسي للزعماء الذين في يدهم مقاليد السلطة، ويتخذون لأنفسهم موقفاً ديموقراطياً لا يقبل الطعن.

ولكن، ما ان يصل الزعماء الجدد الى متغاهم، وما أن يتنجحوا بأسم الحقوق المسلوقة للجماهير الصامتة، في قهر استبداد أسلافهم البغيض وفي استبلائهم على السلطة بدورهم، حتى نرى للتو خضوعهم لعملية تحول تنتهي بجعلهم مستبدين متسلطين كاسلافهم المعزولين.

أما في حياة الدول ذات الانظمة الملكية، فان معارضة واحدة يقودها أمراء وراثيون، نادراً ما تضمر تهديدات خطيرة بحق الملك من باب كونه مؤسسة. وكذلك هي حال المعارضة التي يشكلها زعماء طبائخون في الحزب؛ فهي معارضة، نادراً ما تكون خطيرة، سواء كانت موجهة ضد شخص الزعماء المستن أم كانت موجهة ضد اتباع نظام هؤلاء الزعماء. الواقع ان نورني اليوم هم رجعيو الغد.

الفصل السادس

البيروقراطية النزعات المركزية واللامركزية

لقد كان للاشتراكيون، في زمان ما كان يُدعى «بأشترابية المهاجرين»، الوقت الكافي لأن يركزوا أنفسهم لسياسة مبنية على المبادئ، مستوحاة من الدولية الكلاسيكية. إن مختلف أنواع الحياة التي كان يعيشها هؤلاء الاشتراكيون الأوائل، وكل المراحل الزمنية الخاصة التي قضاها في تبادل الأفكار خلال أوقات فراغهم اللامتناهية، وإن انصاهم المستمر برجال من مختلف الجنسيات، والمعجز تجاه أظهار أدنى نشاط «ميداني»، كل هذه الظروف فرضت عليهم مفهوماً لاشتراكية مثالية ودولية سامية.

ولكن، وبقدر ما كانت أبواب بلادهم تفتح أمامهم لنشر الدعاية الاشتراكية الصرفة أولاً، ومن ثم لتحقيق عمل إيجابي وبناء، بقدر ما كانت متطلبات الحزب اليومية الزائلة تتقدم على المبادئ الخالدة في أذهان الاشتراكيين. وهكذا كانوا يخسرون دفعة واحدة ما كان يوفره لهم بُعدهم المنظور بكل دقة وتحديد.

وفي أيامنا هذه، يسعى الأمن العام لكل نقابة (النقيب)، لأن يمتد أكبر عدد ممكن من المنتسبين في تنظيمه، وأن يتعمق ويتمتع بدقة الفتاوى الخاصة بتأمين الضمانات ضد الحوادث وحالات المعجز، وأن يتألف مع المسائل الخاصة المتعلقة بمراقبة العمل في المعامل، وبشرعية مجلس إدارتها المشترك (ومن

اصحاب العمل والمال)، ومع نظام التعويض عن الجلسات المتعددة والمطبق في المخازن التعاونية، ومع مراقبة استهلاك الغاز في الادارة البلدية.

ولكن، كلما تخصص قياديو النقابات بهذه المسائل اليومية، كلما خسروا أهليتهم في ان يلقوا، وبلمحة بصر شاملة، بالحركة لعمالية بكليتها، أو على الأقل، بمظاهرها النقابية البحتة. وكلما كرسوا أنفسهم لدراسة المسائل التقنية، كلما تضائل وقتهم، وخفت رغبتهم ومصلحتهم في دراسة مشاكل فلسفة التاريخ الكبيرة، وتصبح طريقتهم في الحكم على المسائل الدولية خاطئة أكثر فأكثر في الوقت نفسه.

وبموازاة هذا التحول، تنمو لدى هؤلاء القياديين نزعة تقودهم لرؤية وعائق واحد، أو التمسك بعدم كفاءة أي من الأشخاص الذين يسعون لأعطاء رأيهم في الامور من وجهة نظر ليست تقنية تماماً. ويظهرون أكثر فأكثر، ثاب ميل لاتهم وتأنيب كل الذين يناضلون خارج الوسط الضيق للاشتراكية. أن هذه النزعة في التخصص الاحتكاري الشغوف، والتي تجعل كل رؤية أكثر شمولاً وأكثر تعمقاً في الأمور المستحيلة، هي ظاهرة مميزة في الحياة الحديثة، بشكل عام، وفي مظاهرها اليومية العادية كما في مظاهرها النظرية والعلمية بشكل خاص.

ان ما قاله الفرد وابر A. Weber عن البيروقراطية عموماً، خلال مؤتمر جمعية السياسة الاجتماعية المتعقد في فيينا في العام ١٩٠٩، يمكن تطبيقه على هؤلاء الأعوان الذين يشغلون المناصب الدنيا والمناصب الوسطى في بيروقراطية الحزب. ان البيروقراطية هي العدو اللدود للحرية الفردية ولكل مبادرة شجاعة على صعيد السياسة الداخلية. أن علاقة بيروقراطي الحزب بالسلطات العليا، وارتباطها بها، تخنق شخصية الفئة الوسطى من المستخدمين، وتساهم في طبع المجتمع بكامله بطابعها الضيق جداً، وهو طابع بورجوازي ومحدود. أن الروح البيروقراطية تحط من قيمة الاطباع والصفات المميزة، وتولد الفاقة الاخلاقية.

ويلاحظ في كل بيروقراطية، اصطباذ الوظائف والتراتكض اليها، كما يلاحظ

الموسى في الحصول على الترقية وتولي المناصب الكبيرة وحالة الاستبداد المثل والتذلل امام الرؤساء والموقف المتعالي والمتشامخ تجاه المسؤولين.

ان ولفغانغ هين Wolfgang Heine ، أحد المدافعين الأشداء في الحزب الاشتراكي الالماني عن الحرية الشخصية والفكرية للرفاق، والمستند دائماً لفرض أمر النزعة الى تطبيق البيروقراطية وابطال الشخصية، يذهب حتى الى حد إثارة شبح الدولة البروسية في نضاله ضد الظلم والاستبداد البيروقراطي.

فهو يقول أنه صحيح أن بروسيا محكومة حسب المبادئ الوطنية عبر بيروقراطية يمكن اعتبارها مثلاً لهذا النوع من الحكم، ولكن ما هو صحيح أيضاً، وبغض هذه البيروقراطية، وعلى الرغم من نجاحاتها الخارجية، ان بروسيا تعيش حالة تقهقر على الصعيد الداخلي. فإذا بقيت هذه الدولة قادرة على ان تنجب بعض الافراد المشكوك منهم، فانه لا يمكنها، في أي من الأحوال، أن تحتلهم وتبقي عليهم، لأن سياستها تتحول اذ ذاك الى سياق آلي من وتيرة واحدة يقضي فيها على كل نفس وكل روح. من هنا تناصب هذه الدولة العدا، لكل تقدم وازدهار حقيقيين.

كما يمكن القول، انه بقدر ما عتاز البيروقراطية بمجيويتها، وباحساسها بالواجب، وبثفانيتها أمام القضية التي تمثل، بقدر ما تظهر مقصرة، ضيقة الافق، قاسية ومقيدة.

وككل نظام مركزي، نجد البيروقراطية، مع ذلك، تفسيراً لها في هذه الملاحظة القديمة، وهي أن معظم الشؤون تتطلب ثمة وحدة إدارية، لكي يتم إنجازها بطريقة سريعة ودقيقة. فالتقيام بعدد كبير من الوظائف في النظام الفدرالي، كتنفيذ مهمات إحصائية جذية مثلاً، لا يمكن ان يتم مطلقاً بصورة مُرضية.

لقد كانت سلطة الزعماء في ألمانيا تظهر، بادى ذي بدء، تحت ستار من الشكل الملكي طبقاً لطابع الشعب، وضعف التربية السياسية لدى الجماهير، وعدم كفاءتها: فقد كانت هذه هي ديكتاتورية الفرد الواحد غير المحدودة.

لقد كان أول تنظيم عمالي انشئ على الاراضي الالمانية هو تنظيم Ferdinand Lassalle .

ولقد دام هذا التنظيم المؤسس في العام ١٨٦٣ واستمر لغاية العام ١٨٧٥ ، عندما اندمج وذاب في القسم الدولي والماركسي للاشتراكية الالمانية ، وهو القسم المعروف بـ «قسم ايزناخ» Eisenach .

وكان هذا القسم المنشأ بمبادرة شخصية لرجل فائق الطبيعة (Lassalle) ، يمثل شخصية هذا الرجل حتى في أدق التفاصيل .

كما زُعم ان هذه الجمعية اللاسالية Lassallienne كانت قد أنشأت على صورة العصبة الوطنية الالمانية القومية جداً آنذاك . يمكن أن يكون هذا صحيحاً اذا ما تكلمنا عن أساس هذه الجمعية . اما اذا تكلمنا عن رأس هرمها ، فان ذلك ليس صحيحاً بالتأكيد . ان تنظيم Lassalle هذا ، كان كالعصبة ، يمثل مجتمعاً توحيدياً كانت اعضاؤه مشتتة في كل بقاع الالمانية ، دونما انتظام في أقسامه المحلية بالمعنى الكامل للكلمة . وكان لانتساب هؤلاء الى هذا القسم أو ذاك ، صفة وطنية ، يخضعون ، بعد ذلك مباشرة ، للجهاز المركزي لكل قسم .

إلا ان هذا الجهاز ، في تنظيم لاسال ، لم يكن يتألف من عدد كبير من الاعضاء ، كما كانت الحال في تنظيم العصبة الوطنية الالمانية : لقد كان يمثل فرد واحد فقط . وكان لفرديناند لاسال ، كما خلفه جوهان باتيست فون شوتيزر J.B.V. Schwitzer ، فيما بعد ، سلطات مشابهة لتلك التي كانت لرئيس جمهورية (Venise) البندقية ، بالإضافة الى كونه رئيساً لحزب العمال الالمان ، مع فاروق واحد ، وهو ان سلطته لم تكن تحدّها وتراقبها مؤسسات اوليغارشية ، كسلطة رؤساء جمهوريات المدن . لقد كان الرئيس ، حسب لاسال ، يحكم وكأنه ملك حقيقي ، مطلق الصلاحية . وكان يعيّن أعوانه ووكلاءه ووزرائه المفوضين ، وحتى خليفته ، دون أية رقابة أو هيمنة من احد . فكان يأمر ويُنهي كما يقول : « ليس على الاخرين سوى الطاعة » .

لقد كانت بنية هذه الجمعية جوابياً، ليس فقط على صفات لاسال الشخصية وطموحه الفذ الى السلطة وطابعه المحوري، وهو الرجل العبقري، بل كانت أيضاً جواباً على مفهومه النظري للمهمة التي تقع على عاتق كل تنظيم حزبي. ولقد قال في خطابه الشهير في Ronadoff ما يلي: « لقد سمعت من أفواه العمال، ايها ذهب، خطابات يمكن ان تلخص بالعبارة التالية: من الواجب علينا، وبكامل ارادتنا وقوانا المشتة، أن نقوم بصنع مطرقة، وان نضمها بين ايدي رجل يضمن لنا ذكاؤه وطبعه ونفائيه انه سيغرب بواسطتها بكل قوة ». وأضاف قائلاً: « ان عبارتي الحرية والسلطة المتعارضتين واللذين ذهب رجال دولتنا الى حد اعتبارهما غير قابلتين للالتقاء، هما عبارتان متحدتان الى اقصى حدود الاتحاد في تجميعنا الذي يمثل، بشكله الحالي، النموذج المصغر للشكل الاجتماعي المقبل! ».

لم تكن الديكتاتورية إذن، بأعين الرئيس، مجرد ضرورة مؤقتة تفرض على تنظيم ما في حالة من النضال، وانما كانت الهدف النهائي، حتى للحركة العمالية. إلا ان هذا المفهوم الديكتاتوري لتنظيم الحزب الاشتراكي الالماني، اخذ يضعف منذ موت لاسال. كما ان إنشاء أو تشكيل اشتراكية جنوبية أقل قساوة من اشتراكية بروسيا وساكس Saxe وأكثر غيرة من الحكم الذاتي الذي تتمتعان به، قد ضعفت هي الاخرى، واصبحت اكثر ليناً. ولكن ما حدث بقي مقتصرأ على ضعف وتراجع هذا المفهوم دون ان يصل الى حد الاختفاء تماماً..

لقد كان زعماء التجمع الدولي يعتمدون شكلاً مختلفاً من التنظيم، في الوقت الذي كان يتم فيه تشكيل تنظيم جماهيري لاتباع لاسال في المانيا. فالفترة للتبادلة التي كانت تحرك ممثلي مختلف الجنسيات، هي، بعد ذاتها، عائقاً يحول دون تأسيس ديكتاتورية شخصية داخل التجمع الدولي للعمال.

وهكذا، ولد، في لندن، المجلس العام، بمثابة السلطة العليا، وكان مؤلفاً من مجموعة من الأعضاء ينتمون لمختلف البلدان الممثلة في المجتمع.

ولقد كان هذا المجلس يحترم على الجمعيات الخافضة له انتخاب رئيس لها ،
لانه كان يرى في ذلك اجراء مخالفاً للمبدأ الديمقراطي . ولكنه كان يعطن
بكل فخر ، وفي ماخصه هو بالذات ، وعلى لسان أحد اعضائه الأكثر خبرة
وأعلية ، أن الطبقة العمالية وجدت فيه « الادارة المشتركة » .

وكان يخشع من بين اعضائه الموظفين المكلفين ادارة شؤونه ، كأمين
الصندوق والأمين العام والأمناء المساعدين لمختلف البلدان . وبالنسبة ، فإنه لم
يكن يتردد ان يوكل عدة مهمات لشخص واحد . فقد كان الألماني انكلز
Engels مثلاً مكلفاً ، في فترة من الزمن ، بأربع امانات سر : اسبانيا ، إيطاليا ،
البرتغال والدانمرك .

بالاضافة الى ان امانه السر كانت تشتمل على امتيازات وصلاحيات مهمة
جداً ، كالاعتراف مثلاً بالاقسام المنشأة حديثاً ، والموافقة او رفض الاعانات
المادية ، وابتعاد الحلول للخلافات التي تنشأ بين الرفاق بين الحين والآخر .

وبما لا يقل الجدل ، ان للتجمع الدولي كان يعاني ، طيلة عدة سنوات ، من
سيطرة الارادة الحديدية لكارل ماركس على كل الاعمال الأكثر أهمية ، سواء
على صعيد الممارسة اليومية أو على الصعيد النظري . فالصراع الذي كان قائماً
داخل المجلس بين الاوليغارشية القائمة بموجب القانون والملكية الواقعية المطبقة ،
كان السبب الرئيسي في تسريع انهيار التجمع الدولي .

لقد تم الاعلان صراحة عن ان السلوك الذي اتبعه المجلس العام ، وبنوع
خاص ، السلوك الذي خطه كارل ماركس ، يتعارض مع مبدأ الاشتراكية ، اذ
كان هؤلاء الرجال ، كما قيل ، يُدخلون في السياسة العمالية مبادئ التسلط
والاستبداد : ولقد بدأت هذه الاتهامات تصدر ، لأول مرة ، من الخارج ،
اي من مجموعات لم تكن ممثلة في المجلس العام المذكور . اما المتهمون (بكر
الماء) فكانوا باكونين ، والايطاليين وأنباي جوراس . الا ان المجلس العام قد
تعرف بهم بسهولة . ففي العام ١٨٧٢ ، وخلال انعقاد مؤتمر La Haye ،
توصل أتباع المذهب « التسلطي » للتغلب على معارضتهم ، باعتمادهم الاساليب

التي لم يكن يوصيهم أحد باعتبارها.

غير أن اصواتاً بدأت ترتفع تدريجياً داخل المجلس العام نفسه، تستكر وتلوم طموح ماركس غير المحدود. وهكذا، حتى معظم اصدقائه القدامى عنه. كما انفصل عنه اتباع الاشتراكي الفرنسي بلانكي Blanqui، بعد ان نقل الى نيويورك المجلس العام، بقرار ذاتي تعسفي. يضاف الى ذلك، ان زعمي الاتحادات المالية الانكليزية النافذين Odger و Lucraft، قد ابتعدا، هما أيضاً، عن ماركس، وذلك لأنه لم يشترهما، وهما عضوين في المجلس العام، بشأن البيان المتعلق بمقاطعة باريس والذي كان يحمل توقيعهما في الوقت نفسه. وقد أعلن المهاجران اللاتينيان المقبان في انكلترا جونج وايكاريوس انهما لا يستطيعان العمل مع اشخاص متحكّمين الى هذا الحد كماركس وانكلز. وهكذا، تخلص الاوليرشيون من النظام الملكي الذي كان قد تألف بشكل مقنع داخل المجلس العام.

ولقد تحول مفهوم الدولية كثيراً عندما تأسس مايسبي بالتجمع الدولي الجديد في العام ١٨٨٩، وعندما اعتمدت الاحزاب الاشتراكية التي تألفت في هذا الوقت في مختلف البلاد، عادة الاخذ بالمداولات المشتركة في المؤتمرات الوطنية.

وفرض التجمع السابق على البروليتاريا الدولية الالتفاف الاكثر صرامة وحزماً، وذلك بغية التمكن، «باقصى سرعة، من وضع القوات الموحدة والمنظمة التابعة للطبقة العمالية بكاملها في الميدان، وفي حالة تأهب في أي مكان ينفجر فيه صراع الطبقات الاقتصادي». وبالعكس، فقد استعمل التجمع الجديد أسلوباً لئياً جداً في مواجهة هذا الصراع، اذ تألفت قوته من عناصر أجنبية مختلفة، لا تعرف بعضها البعض، يشد كل عنصر تنظيم داخلي صلب لا يتعدى حدود دولته الخاصة. وبعبارة أخرى، فإن التجمع الدولي الجديد هو عبارة عن اتحاد اجهزة سياسية مستقلة تماماً بعضها عن البعض الآخر.

لقد كان التجمع القديم ديكتاتورية فردية تختفي تحت عدة أشكال أولفرشية

أما التجمع الجديد، فتمكن مقارنته بدول Pays-Bas القديمة: فهو جمهورية اتحادية مؤلفة من عدة أوليغارشيات مستقلة الواحدة منها عن الأخرى. لقد كان مجلس لندن العام مجلساً قادراً وقوياً. أما السكريتاريا الاشتراكية الدولية لأيامنا هذه، الكاثنة في بروكسل، ليست سوى مكتب مراسلات لا يتمتع بأية صفة سلطوية.

وفي أيامنا هذه، يقف كل حزب على سلاحه متأهباً، بصورة مستمرة، لكي يمنع الآخرين من توسيع رقعة نفوذهم دون وجه حق.

وكذلك، فالقدرة الدولية على إيجاد الحلول المتفق عليها في المؤتمرات الدولية، هي تقريباً غير ذي شأن. ففي المؤتمر الاشتراكي الدولي المنعقد في أمستردام، في العام ١٩٠٤، افهم البلجيكي Anseele المؤتمرين، بكل وضوح، أنه لا يعتبر نفسه مرتبطاً بنتيجة تصويت دولي يحرم على الاشتراكيين دخول تشكيلة وزارية بورجوازية. وحصل الشيء ذاته في المؤتمر الدولي المنعقد في Stuttgart في ألمانيا في العام ١٩٠٧، عندما رفض Wallmer، بموافقة ورضى الألمان، تدخل الفرنسيين في السياسة العسكرية للديموقراطية الاشتراكية الألمانية. كما اعترض مسبقاً على أي حل دولي يتم الاتفاق عليه، لضبط مسيرة وسلوك الاشتراكيين في كل البلدان التي تعيش حالة حرب.

وليس الأوليغارشيات الوطنية على استعداد للقبول بسلطة الحلول الدولية، إلا عندما تكون رغبة في التخلص من قسم من عناصر الحزب المبيعة والمزعجة. ويصادق زعماء الأقلية تارة على براءة مشاعرهم الاشتراكية تجاه الأغلبية التي تتهمهم بالمرطقة، بواسطة بيان عام معلن، وتارة تنعكس الآية، إذ يحاول زعماء الأغلبية، وعلى الصعيد الدولي، التغلب على زعماء الأقلية، وهم لا ينجحون في التوصل إلى ما يُعطيهما الحق في الدول التي ينتمي إليها هؤلاء (زعماء الأقلية).

مثال على الحالة الأولى: لقد سمعت الأقلية - اتباع Gueades في مؤتمر أمستردام ١٩٠٤، أن تُحط من سمعة وتنفذ افكار جوارس Jaurès نسيه الأكبر، على السياسة الداخلية، وذلك أمام الرأي العام الدولي. وقد ظهرت

هذه العملية انها فاعلة. اذ نجح اتباع Gueades بربط Jaurès بمرتبهم وجعله سجيناً في صفوف الحزب الموحد المتراصة.

مثال على الحالة الثانية: يستند الحزبان الاشتراكيان، الالمانى والايطالي، على قرارات المؤتمرات الدولية المنعقدة (باريس ١٨٨٩) وزوريخ ١٨٩٣، لندن ١٨٩٥ للتخلص نهائياً من الاقسام الفوضوية والمناهضة لفكرة دخول البرلمان.

لكن المركزية، حتى داخل الاحزاب الوطنية، ليست مطلقة. هنا أيضاً، نلاحظ اتجاهات وميولاً نحو اللامركزية التي هي عمل الاقليات المتكافئة مع الزعماء الذين يفضلون الانسحاب الى دوائر النشاط المحلية (مقاطعة - اقليم...) من أن يخضعوا للقيادة المركزية.

ان الزعماء الذين يشكلون قسماً من الاقلية لا يوافقون ولا يظهرون أي تعاطف مع تنظيم وطني مركزي. لقد كان بوليس قيصر يفضل ان يبقى الاول في Gaule من ان يكون ثانياً في روما. ولا يستطيع فولار الذي يمارس على البافاريين سلطة كسلوك التي ساهمت بان يدعى «ملك بافاريا غير المتزوج» ان ينصاع لأخذ دور لاعب الكيان الثاني في جوقه الاشتراكية الجرمانية. فالأفضل أن يكون الأول في ميونيخ من ان يكون الرجل الثاني في برلين!

ان كلمة سر الاغليات هي: مركزية. بينما هي، حكم ذاتي، بالنسبة للاقليات.

وهكذا يرتدي الصراع القائم بين هؤلاء وأولئك أشكال الصراع الحقيقي من أجل الحرية. وعندما يشعر زعماء الاقليات انهم باتوا اشد قوة وبأساً، فانهم يذهبون الى حد المطالبة بأبطال كل جهاز مركزي في الحزب ابطلاً تاماً.

لقد اقترح Filippo Turati، زعيم الاصلاحيين الايطاليين، وبالتوافق مع اصدقائه، عزل قيادة الحزب، وذلك خلال المؤتمر المنعقد في ايمولا في العام ١٩٠٢، بقوله: «يجب ابدال هذه المؤسسة الهرمية، السلطوية والساقطة بالحكم الذاتي التام للتنظيمات المحلية، أو على الأقل، استبدالها بجهاز اداري وتنفيذي»

صرف، مؤلف من ثلاثة مستخدمين فنيين». وأضاف قائلا: «أن الرغبة في الحكم من فوق الى تحت، داخل الحزب، إنما هو مبدأ يعقوبي».

ولكن أخصام هذا المفهوم الديمقراطي يواجهونه باعتراض عظيم: يقولون إنه إذا ما تم إلغاء القيادة، فإن النواب هم الذين سيصبحون الأسياد الوحيدين وغير الخاضعين لمراقبة الحزب؛ وسوف ينتج عن هذا، وفي كل مرة وجب فيها اعتماد حل معين بصورة طارئة، ان المجموعة البرلمانية التي تمثل الجماهير الانتخابية، وليس الحزب، هي من يقرّر الخط المفروض اتباعه.

وتُظهر الصراعات التي تشهدها مسألة المركزية أو اللامركزية داخل الأحزاب الديمقراطية الحديثة، أهمية علمية كبيرة جداً.

فإذا ما تبادل الحزبان المتخاصمان عدداً كبيراً من الأسباب النظرية، والجدجج ذات الصلة الاخلاقية، خلال النزاع القائم بينهما، فمن المتحتم التشديد، مرة أخرى اضافية، على معارضة المركزية، دولية كانت أم وطنية، لاعلاقة لها البتة مع الرغبة باكتساب حرية فردية أكبر حجماً.

وغالباً ما تفسر هذه المعارضة بالتفاوت او بالفوارق الاقتصادية والاجتماعية وغيرها التي تفرق وتفصل في ما بين الطبقات المعالية لمختلف المناطق. وبالفعل، ضمن هذه الفوارق الواقعية بالذات، تولد، في معظم الحالات، النزعات نحو الحكم الذاتي المحلي الاقليمي او الخاص بمنطقة معينة.

لذلك يشعر الاشتراكيون في ألمانيا الجنوبية، ونظراً للوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، انهم منفصلون كما لو بحيط عن رفاقهم في الشمال.

وإذا طالبوا لانفسهم بحق الادارة او الحكم الذاتي، وبحق ممارسة التكتيك الوزاري، فذلك لانهم يعيشون في بلاد للبرلمانية فيها تاريخ مجيد، يعود لأكثر من قرن من الزمن؛ بينما لاتزال بروسيا تزج تحت نير التسلط والاقطاع، وذلك ايضاً لانهم يعيشون في ظل نظام زواحي تحكمه الملكية الصغيرة، بينما تنحصر المقاطعات الوسطى والشرقية لنظام الملكية العقارية الكبيرة. يضاف الى

ذلك، ان التفاوت في الطبقات والمقليات في الجنوب أقل تشكياً منه في الشمال.
ولا يجد الحزب نفسه، تبعاً لذلك، امام الخصوم انفسهم هنا وهناك.

كما اننا نجد الشكوى ذاتها في النزاعات الحية دائماً والعنيفة غالباً، والتي
يقودها قياديو الاشتراكية في الشمال وقياديوها في الجنوب: فيتهم البعض منهم
البعض الآخر قائلاً: انتم ابناء بلد ذات مدنية غير متقدمة، وتخلون افكاراً
ونظريات متخلفة. ويعلن «الشاليون» «ان الجنوبيين» لا يزالون يعيشون في
وسط البورجوازية الصغيرة المسالمة والريفية، في الوقت الذي يمثلون هم فيه
المستقبل وسط الصناعة الثقيلة. ويحجب «الجنوبيون» على هذا، ودون تبجح،
انهم يعيشون في الوقت الحاضر في ظروف وسط، يسمى رفاقهم في الشمال الى
الوصول اليها بتدميرهم الملكية الكبيرة والغاء طبقة الامتيازات.

ينتج من كل ما اتينا على ذكره، أن مختلف النزاعات المطالبة باللامركزية،
لا تؤثر في المبدأ الاوليفرشي: يقتصر أثرها فقط على خلق عدد كبير من
الاوليفرشيات ذات الانتشار الضيق، فلكل اوليفرشية قدرة على التحرك
المحدود ضمن دائرتها.

القسم الثالث
ممارسة السلطة وتأثيراتها النفسية
على الزعماء .

الفصل الاول

التحول النفسي لدى الزعماء

ان خول الجماهير وحاجتها لمن يقوم بتوجيهها وادارتها، يقابله لدى الزعماء تعطش لا محدود الى السلطة. وهكذا وجد نمو الاوليفرشيّة الديمقراطية نفسه في حالة مؤاتية، تدعّمها الخصائص العامة للطبيعة الانسانية.

ففي معظم الحالات، يكون الزعيم، في بداية تحمّله المسؤولية، مقتنعاً تماماً، وبكل اخلاص، بسموّ وعظمة المبادئ التي يمثّل. يقول الاستاذ غوستاف لوبون G. Lebon، وبكثير من الحق، ان القائد - الزعيم كان في البداية، وفي اغلب الاحيان، مرؤوساً يقوده سواء. لقد كان هو نفسه منبهراً بالفكرة التي اصبح فيما بعد، رسولاً لها ومبشراً.

وفي العديد من الحالات، ينفصل الزعيم عن الجمهور، وهو الذي لم يكن في البداية سوى جزء صغير منه، بطريقة لا شعورية، دون ان يشاء الى أي مكان سيقدّره تصرفه الفطري هذا، ودون ان يقتفي او يسعى الى أية فائدة من اي نوع كانت. لقد كان في ذلك مدفوعاً برؤيا أكثر صفاء، بشعور أكثر عمقاً، وبرغبة أكثر حدة، نحو الهدف العام، بالاضافة الى ان دافعا أكثر قوة وليونة، وان جذبة مزاجه وحسن معاملته للآخرين قد ساهمت كلها بجعل هذا الدفع شديداً وفاعلاً.

ويصبح كل هذا صحيحاً في الحالة التي يرى الزعيم نفسه فيها امام حزب ضعيف البنية، عاجز عن تقديم وإيجاد الوظائف لعناصره، مما يوجب عليه البدء بتأسيس وخلق حزب جديد. الا انه لا يتصرف دائماً بوحى مصالحه الشخصية، حتى في الاحزاب ذات البنية او الهيكلية الاكثر تماسكاً.

ان كل الذين اصبحوا قياديين، لم يكونوا في البدء يتوقون الى هذا المركز. وليس كل الذين وصلوا، هم بالضرورة «وصوليون».

ولكن الذي وصل الى مركز القيادة، لن يتراجع تلقائياً، ويحضر ارادته، الى الموقع الذي كان يشغله فيما سبق. وأن من تم انتخابه مرة واحدة ليفعل المستحيل من اجل اعادة انتخابه. هذا ما قاله احد اكثر النواب اعتدالاً في المجلس النيابي الايطالي، وهو استاذ القانون الجزائري وعضو المجموعة الجمهورية: بيو فياززي Plo. Viazzi..

ان التخلي عن منصب هام تم الارتقاء اليه بعد جهود مضنية، وسنوات من العمل الشاق عديدة، هو عمل من الدرجة الاولى عظيمة، لا يستطيع القيام به الا سيد كبير، او رجل بلغت روح التضحية لديه درجة استثنائية. ولكن بدلاً كهذا يفوق بكثير قوى انسان عادي.

ان حيازة السلطة تمنح صاحبها دائماً تيجناً يعتقد نفسه معه رجلاً عظيماً. فالرغبة بالسيطرة، سواء كانت من اجل الخير او من اجل الشر، ترقد داخل كل نفس انسانية. وهنا بالذات تكمن التعاليم الاساسية لعلم النفس. ان ادراك الزعيم لقيمة وشأن شخصيته الخاصة، وأن الحاجة التي يبديها الرجال في ان يكون لهم من يوجههم ويدير شؤونهم، يوحيان للزعيم اياه بالشعور بالتفوق والتعالي، والافتناع بأنه لا يمكن الاستغناء عنه. ان اي شخص يتنجح في الوصول الى تسل زمام السلطة، يسعى، بشكل عام، لتقويتها وتوسيع رقعة نفوذها، كما يعمل على تحصين موقعه من كل جانب، بطريقة يصبح معها هذا الموقع متيناً، صعب المنال، وبعيداً عن مراقبة الجاهل.

لقد كان ميشال باكونين، مؤسس الاشتراكية الفوضوية، يؤكد ان

امتلاك السلطة يحول، الى طاغية، حتى الصديق الاكثر اخلاصا وتغانيا في سبيل الحرية.

والحقيقة ان ممارسة السلطة تطع حائزها بعلامة تغير عميق لا يمكن اخفاؤه. وما يشكل حقيقة اخرى، هو هذه الميزة للرجل السياسي، كما خطها Aiphonse Daudet: «اذا كان المقصود هو الكلام على السياسة المخيفة، فان صفاتنا الحميدة تتحول، وبسرعة هائلة، نحو الاسوأ؛ فتصبح الخاسة خبيثاً، والفصاحة ثروة وكلاماً منحطاً، والارتياب الخفيف نفاقاً واحتيالاً، وحب الظواهر البراقة فرحة الكسب وترقاً. ويصبح حسن المعاشرة والاختلاط والرغبة بالارضاء جبناً وضعفاً وتراجعاً»

وعندما لا يملك الزعماء لا ثروة شخصية ولا اية مصادر مالية اخرى كافية، فانهم يتمسكون بقوة وصلابة، ولاسياب اقتصادية يمتد، بالعمل الذي يقومون به، والذي ينتهون باعتباره شيئاً من اشياهم، او ملكاً من ممتلكاتهم لا يقبل البيع والشراء.

من جهة اخرى، فان الهاربين من صفوف البورجوازية قد استنفذت قواهم تماماً، واستهلكت، بعد ان نافلوا طيلة سنوات عديدة في الحزب الاشتراكي. فلقد دخلوا صفوف العمال المنظمين وهم لا يزالون في عز شبابهم، بكامل حيويتهم ونشاطهم. وسرعان ما تزعموا هذه الصفوف. الا ان نوعية الحياة التي عاشوها بصفتهم هذه، ومهما كانت الفوائد التي اكتسبوها منها، كانت مليئة بالمتاعب والمصاعب، مما هزّ جهازهم العصبي، وشاخوا قبل الاوان.

ماذا بقي لهم ان يفعلوا؟ فبدأوا يشعرون انهم غرباء عن اهتماماتهم السابقة، بقدر ما كانت هذه الاهتمامات تبعث عن العلاقات والاهمال السياسية.

لقد كان يمكن لمحامٍ ما ان يستمر في مواصلة مهنته، حتى ولو كترس كامل وقته، دون ان يضطر للانسحاب من الحزب. ذلك ان للنضال

السياسي وللحياة القانونية أكثر من نقطة التقاء واحدة، خاصة إذا عرفنا ان الحياة السياسية ليست الا مرافعة مستمرة. يضاف الى ذلك، ان المحامي الذي يعيش حياة عامة بكل نشاط وحيوية، يجد فيها ما يرضي حبه للخطابات والجدل، كما يجد فيها أيضاً مناسبة لتمارين قوة رثيته وتدريب يديه للقيام بمركات كبيرة بشكل فني.

وتختلف مسألة المثقفين والعلماء مثلاً عن حالة المحامي. فالعلماء الذين اشتركوا في حياة الحزب، سواء بصفة صحفيين او مبشرين بالعقيدة الحزبية، وسواء بصفتهم نواباً يمثلون الحزب، قد شهدوا تدني قدراتهم العلمية، بشكل تدريجي، ومانوا في سبيل سلوكهم، لانه لم يعد لهم الوقت الكافي لتعميق دراسة المسائل العلمية، ومتابعة عملية تثقيفهم واتماء مؤهلاتهم الفكرية.

الا ان التحول النفسي الذي يخضع له الزعماء خلال سنوات عدة، يعود ايضا لاسباب اخرى.

يمكن القول، في ما يخص الزعماء الممالين ذي الاصل البورجوازي، انهم دخلوا الى صفوف البروليتاريا، اما عن طريق شعور ادبي معنوي او عن غيرة منهم، او حتى عن قناعة علمية بذلك. وهكذا، أمضوا سنوات شبابهم، واستعدوا طبقته، وحاربوا وجاهدوا وأتوا بانتصارات عديدة.

وبعد انقضاء عهد الشباب، وبعد المعارك التي خاضوها في سبيل الحزب والعقيدة، انقضت افضل سني عمرهم، واقتربوا من سن الشيخوخة. وهكذا، يصبح العديد من الزعماء الاشتراكيين، وكلما تقدموا في السن، غرباء عما تحويه الاشتراكية من امور جوهرية، أكثر عمقا. ولكن التراجع الى الوراء او الانحباب هو عمل مستحيل بالنسبة هؤلاء. ان ماضيهم يشدهم، ومسؤولية تأمين معيشة عائلاتهم تمنعهم. فيستمررون لذلك في الطريق نفسها، ويحافظون على وفائهم للقضية التي ضحوا من اجلها في يوم من الايام.

ومن المؤكد، انه كلما ارتقى فرد في حزبه مركزا أكثر رفعة، يخضع عائلته النفسي والعقلي، في غالب الاحيان، لتطور ما، يؤدي الى تحول تام لديه.

وعندما يكتمل هذا التحول، لا يعد يرى الزعيم تحولَه الخاص إلا كونه انعكاساً لتغيير مذاهم، على حد زعمه، في العالم المجاور، ويقول إن الظروف الجديدة تفرض نظرية جديدة، وتفرض تكتيكاً جديداً. هذا، ويعود السبب في ولادة النظرية الإصلاحية وإعادة النظر في الاشتراكية الدولية، إلى الحاجة النفسية لإيجاد تفسير وعذر للتحول الذي يطال الزعماء.

إن ما يؤثر بقوة على عقلية الزعماء وعلى تركيبتهم، إنما هو الانتقال المفاجيء من المعارضة إلى صفوف الموالات أو المشاركة في الحكم.

ومن البديهي القول، أن ذهنية زعماء الحزب تحافظ على مستوى أرفع بكثير في مرحلة المصاعب والاضطرابات التي يقودها المجتمع والدولة، منها في مرحلة النصر والسلام. ويعود هذا بالدرجة الأولى، إلى أن ذوي الأطلاع الانانية ومحدودي الطموح، يبقون، عندئذ، على هامش الحزب، ولا يفكرون مطلقاً بلعب دور الشهداء.

وطالما لا يُثمر النضال في سبيل المظلومين، سوى أكليل من الشوك يكفل رؤوس المتطوعين له، فإن على البورجوازيين الذين التحقوا بالاشتراكية أن يشغلوا، في الحزب، وظائف تفرض الكثير من تكرار الذات، والتخلي عن المصلحة الشخصية. ولا يصبح هؤلاء البورجوازيون خطراً على الاشتراكية، إلا ابتداء من اليوم الذي تهوي فيه الحركة العمالية، وهي تنكر طوعاً لمبادئها، في مزالق سياسية تعرضها للشبهات والشكوك.

وفي إيطاليا، لم يتوقف كل أولئك الذين لاحظوا ودرسوا، بانصاف، الحركة الاشتراكية، عن اسداء كلام الثناء والإطراء حول القيمة المعنوية لزعمائها، في مرحلة الاضطرابات.

ويبدو بديهاً، أنه، حينما تواجد الاشتراكيون وكانوا أسياداً، أقي مجالس البلديات إم في المصارف الشعبية، أو في التعاونيات الاستهلاكية، أو في كل مكان آخر يتمتعون فيه بوظائف يتقاضون بدلها اجرا، نرى هبوط مستواهم المعنوي، بشكل ملحوظ، ونرى أيضاً أن المهلة والانانيين منهم يشكون الاغلبية داخل صفوفهم.

الفصل الثاني

الايديولوجية البونابرتية .

لقد كان نابليون الاول يشدد على انه المنتخب من قبل الشعب، بصفته رئيساً للدولة. وكان الامبراطور ينتج في كل تصرفاته العامة وممارساته على انه ليس مديناً بسلطته الا للشعب الفرنسي وحده. وهكذا، وعلى اثر معركة الاهرام، عندما كان مجده قد بدأ يتجه صموذاً نحو القمة، كان الجنرال جيفرس، بغطرس، ان يُمنَح صفة ممثل الشعب الاول، هذا المركز الذي بقي حتى تلك الاثناء، محصوراً باعضاء الجسم التشريعي فقط. وعندما رفعه الشعب، فيما بعد، الى عرش فرنسا، على اثر الاستفتاء العام الذي تم آنذاك، اعلن انه كان يعتبر ان سلطته انما كانت تتركز، بصورة خاصة، فعل الجماهير.

ان ديكتاتورية شخصية تمنح من قبل الشعب بمقتضى القواعد الدستورية: تلك كانت الترجمة البونابرتية لسيادة الشعب.

وتأسست قصيرة نابليون الثالث على مبدأ السيادة الشعبية، وفي حدود فاقلت أيضاً حدود ديكتاتورية نابليون الاول. وقد اعترف الطامح بعرض فرنسا، بالجمهورية الفرنسية التي انبثقت من ثورة شباط، وبنيت على الرضى العالمي، وذلك في رسالته المؤرخة ٢٤ ايار ١٨٤٨، والموجهة من لندن الى الجمعية الوطنية الفرنسية. كما طالب، في الوقت نفسه، لمصلحته وضد الملك

لويس فيليب المنفي، بحق التمرد والعصيان وبحق العرش.

الا ان هذا الاعتراف وهذه المطالبة كانا من النتائج المنطقية لبدأ واحد. لقد قال في هذه الرسالة، انه «وبوجود ملك منتخب من قبل مايتي نائب، كنت استطيع ان اذكر اني وريث امبراطورية مبنية على موافقة اربعة ملايين فرنسي. وانه، وبوجود السيادة الوطنية الناتجة عن الرضى العالمي، لا استطيع ولا اريد المطالبة الا بحقوقى كمواطن فرنسي».

واذا لم يرض نابوليون الثالث بالاعتراف والاقرار بان السيادة الشعبية هي مصدر سلطته، فقد جعل من هذه السلطة الاساس النظري لكل ممارسته وتطبيقاته.

ولقد تحول، في فرنسا، الى زعيم شعبي، اذ قال انه يعتبر نفسه وكأنه عنصر تنفيذي بسيط للارادة الجماهيرية، كما ظهرت واتصحت في الانتخابات، وهو لذلك، سيبقى امينا على هذه الارادة، وهرن اشارتها في كل ما تقرّر. لقد كان يردّد دائما، وبجنانة كبيرة، انه ليس سوى اداة، سوى مخلوق، انجسته الجماهير.

لقد اعلن في احدى خطبه، وهو لم يزل رئيساً للجمهورية، بانه على استعداد، والحالة هذه، اما للتخلي والتسحي عن الحكم، واما للاستمرار فيه. وبتمبير آخر، اما الذهاب او البقاء.

ان ما قاله اوليفيه Olivier، حارس اختام القصر، في قاعة مجلس النواب، خلال احدى الجلسات الصاخبة التي انعقدت في صيف ١٨٧٠، هو اكبر دلالة على الروح البونابرتية:

«نحن ملك لك، تسترجعنا ساعة تشاء. سنبقى هنا دائما، مستعدين لتقبل تأنيبك ولعنائك».

تعترف البونابرتية وتقر بارادة الشعب، دونما تحفظ، الى حد منح هذا الشعب، حق الانتحار: يمكن للسيادة الشعبية ان تذهب الى حد الغاء نفسها.

البونابرتية هي نظرية السيطرة الفردية. وهي تجهد، في ممارستها

الديموقراطي، ملجأ ضد الاخطار التي يمكن ان تتهدها، في حاضرها
المناهض للديموقراطية. يقول E. Laboulaye عن اليونانية ما يلي: «انها
الديموقراطية المتجسدة في شخص، انها الامة التي اصبحت رجلاً، وهي
ايضا خلاصة مفهومين متناقضين: الديموقراطية والحكم الاستبدادي المطلق.

وما ان يخرج اسم المنتخب من صندوق الاقتراع ناجحاً، حتى لا يعد
يعاني اية معارضة على الاطلاق. وكل معارضة له تكون مناهضة ومغايرة
للميموقراطية، وذلك كونه يجسد اقلية الشعب.

ان قرار زعيم ديموقراطية مشابه، هو قرار نهائي لا رجوع عنه، وغير
قابل للنقض، لان الامة التي قالت كلمتها فيه، لا يمكن ان تناقض نفسها
بنفسها.

وهو بالاضافة الى ذلك، رجل معصوم عن الخطأ واثق من نجاح كل ما
يقوم به: «وهو، وبصفته منتخباً من قبل ستة ملايين ناخب، ينفذ ارادة
الشعب ولا يخونها».

ان يهلك خصوم الحكومة باسم سيادة الشعب، هو عمل معقول
وضروري. وهكذا يمكن للمنتخب ان يعتبر نفسه، عن كامل حق، وكأنه
يمثل مجموع الشعب الذي يحضه ثقته بفعل قرار تلقائي. لذا يقال، ان الناخبين
انفسهم هم الذين يفرضون على المنتخب ان يستعمل اجراءات قمع قاسية،
وان يلجأ الى القوة، وان يجمع بين يديه كامل السلطة والقدرة.

ان احدى نتائج نظرية الارادة الشعبية هذه، هي ان العناصر التي تشتمل
عليها، يجب ان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنسبة للسلطة المركزية، التي تتعلق
بدورها، هي الاخرى، بالشعب.

ان ما يميز هذه الفكرة، هو ان سلطان رئيس الدولة يتركز، بصورة
خاصة، على الارادة المباشرة للامة. فاليونانية لا تعترف بوجود حلقات
وسيلة. ولقد قدمت انقلاب الثاني من كانون الاول ١٨٥١ على انه تمحيز
الشعب من نير البرلمان، هذا التحرر الذي برهنت عنه دعوة الجماهير لاجراء

استفتاء عام.

لقد قارن فيكتور هيوغو V. Hugo العلاقات القائمة بين البرلمان والحكومة كما كانت عليه أيام نابوليون الثالث، بالعلاقات القائمة بين سيد وخدامه. فهو معين من قبل الامبراطور وهم معيتون من قبل الشعب.

لقد كان هذا التأكيد غير صحيح نظرياً، كما كان كل عمل صادر عن البونابرتية يعتبر عملاً شرعياً تماماً، من الوجهة النظرية، في الوقت الذي كان يرافقه فيه نهر من الدماء. وهكذا كان الاستفتاء العام كالمظهر الذي يعمل من كل الامور للاشريعة شرعية.

لقد أعلن نابوليون الثالث، بعد تبليغه الاعلان المهيب للانتصار الذي حققه نتيجة الاستفتاء العام، انه، وإن اقترف خطأ تجاوز القوانين بالانقلاب الذي قاده، فلتوطيد الحق ليس الا. ولم اخرج عن الشرعية الا لاعود وادخل الحق. ولقد أحل له ذلك سبعة ملايين ناخب.

ان مبدأ اجراء استفتاء لتثبيت شرعية الحكم، والذي جدده الشعب الفرنسي ثلاث مرات حول حكومة نابوليون الثالث غير الشرعية، قدم حجة سهلة لرغبة الجمهوريين في الاصلاح، للانتقال من المعارضة الى موالة الحكم الملكي.

لقد كان اميل اوليفيه Olivier يقسم أشكال الحكم الى فئتين كبيرتين: الحكم الشخصي والحكم الوطني، بما ان زعم هذا الحكم الاخير ليس سوى «مندوب من الامة لممارسة الحقوق الاجتماعية». وبهذه الطريقة، يمكن ان يرضي ضميره الجمهوري، ويظهر ارتداداه الى البونابرتية، وكأنه ارتداد منطقي ومطابق لمبادئه.

ان تاريخ الاحزاب والنقابات الحديثة، الديمقراطية منها والثورية، يقدم ظواهر مشابهة لتلك التي أتينا على تحليلها. من السهل تفهم اسباب ذلك. فالبونابرتية تجد ارضاً خصبة للغاية ومناسبة لدى الجماهير الديمقراطية، فتوهما انها سيدة اسيادها انفسهم. وبداخلها طريقة الانتخاب واعتمادها،

تعطي البونابرتية هذا الوهم صبغة قانونية ترضي الجماهير المناضلة في سبيل
« حقوقها » .

ان الانتداب والتنازل عن ممارسة السلطة مباشرة من قبل الشعب يتّان ،
بالفعل ، حسب كل القواعد ، عن طريق فعل ارادة واحدة من الشعب اياه ،
وخارج اطار التدخل الالهي الماورائي الذي تطالب به الملكية الوراثية
والشرعية غير المحببة . وهكذا ، يبدو الزعم المنتخب وكأنه محاصر بوظائفه
ومهامه من قبل المشيئة التلقائية ، وحتى من قبل استبداد الجماهير ، التي هي
أحدى مخلوقاتها . ان هذه الطريقة في مواجهة العلاقات القائمة في ما بين
الجماهير والزعماء ترضي كرامة وشعور كل مواطن يقول بينه وبين نفسه :
« لولاي لما أصبح ما هو عليه الان . انا الذي انتخبت ، فهو يختصني » .

وهناك سبب اخر ، نفسي وتاريخي في الوقت نفسه ، يجعل الجماهير ترضى
وتقبل ، دولما معارضة ، درجة معينة من الظلم والاستبداد ، من قبل الزعماء
المنتخبين : هذا السبب يكمن في ان الجماهير تتحمل السيطرة او الهيمنة
بسهولة اكبر ، عندما يكون لكل فرد منها امكانية التقرب من السلطة ، وحتى
انتزاع او حيازة قسم منها . لقد كان البورجوازيون والقرويون الفرنسيون في
اواسط القرن التاسع عشر ، يمتقنون الملكية الشرعية ، لكثرة ما كانوا منغمسين
بالافكار الديمقراطية . ولكنهم كانوا يدلون باصواتهم لصالح نابوليون
الثالث ، عن طيبة خاطر ، لانهم كانوا يتذكرون سهولة وصول آبائهم
للمراكز الجديرة في ظل عهد عمه المجيد .

ونظرا للطريقة الديمقراطية المتمددة في عملية الانتخاب ، فان الزعم
المنتخب من تنظيم ديموقراطي يتمتع بسلطة اكبر من تلك التي يتمتع بها زعم
ويُبد استقراطياً . ويعتبر نفسه وكأنه انبعاث للمشيئة الجماعية ، وهو يطالب ،
انطلاقا من هذا الواقع ، بالطاعة والخضوع لارادته الشخصية . تقول إحدى
الصحف الاشتراكية ما يلي :

« تشكل قيادة الحزب السلطة التي أعطاها الحزب بكامله لنفسه ، والتي

تتجسد فيها سلطة هذا الحزب بالذات. فاحترام هذه القيادة، إذن، هو القاعدة الأساسية الأولى للسلوك الديمقراطي. [إن الطاعة المطلقة التي يتوجب على الجاهير المنتظمة أدائها نحو الزعماء، تُنتج علاقات ديمقراطية تتواجد في ما بينهم وبينها. وليست هذه الطاعة سوى الخضوع الجاهي للإرادة الجاهية المتمثلة هؤلاء الزعماء.

وفي كل مرة يُتهم فيها الزعماء بقياسهم بمعمل أو موقف مناهض للديمقراطية، فانهم يضمنون فوراً ويتذرعون بإرادة الجاهير، تلك الإرادة التي انبثقت عنها، وجعلتهم نواباً منتخبين. بالإضافة إلى ذلك، فانهم يقولون انه: «وما إن الجاهير هي التي انتخبنا واعادت انتخابنا، فاننا التعبير القانوني لإرادتها ونشكل وأياها وحدة مناسبة».

لقد كانت الاستقرائية القديمة تعتقد ان مخالفة اوامر الملك الاوحد، انما هي خطيئة تُعترف ضد الله. اما في ظل الديمقراطية الحديثة، فالاعتقاد السائد هو انه من غير المسموح، لأي كان، عصيان اوامر الاولبرشين، لانه سيُجَد نفسه، فيما لو عصاها، مسؤولاً تجاه نفسه، وتجاه إرادته الشخصية التي يحولها من تلقاء نفسه لمُتنبه. وسوف يشكل العصيان، في هذه الحالة صفة للمبدأ الديمقراطي.

ففي الديمقراطيات، يبني الزعماء حقهم في القيادة على كامل القدرة الديمقراطية للجاهير. فموظفو الحزب وبالإضافة إلى كونهم يقومون بوظائف بموافقة رفاقهم في الحزب، يتبعون ايضاً، وبصورة كلية، مزاج هؤلاء الرفاق ورغبتهم. كما يمكن القول ان كل فرد، في الديمقراطية، يعطي لنفسه الاوامر التي يتلقاها من فوق.

فالتحليل المنطقي الذي ندافع بواسطته عن ادعاء الزعماء الطاعة للجاهير هو، نظرياً، غير قابل للاعتراض او الانتقاد مطلقاً. إلا انه، وفي المجال التطبيقي، يتم انتخاب الزعماء واعادة انتخابهم خاصة، طبقاً لاسباب شتى، وفي ظل إبعازات وتأثيرات قسرية قاسية جداً وصارمة، إلى حد ان حرية اتخاذ القرار لدى الجاهير تنقلص، بشكل ملموس للغاية. وما لا خلاف

حول، انه، وفي تاريخ الاحزاب، تنقلص الطريقة الديمقراطية المتبعة، وتختصر الى الحق الذي تتمتع به الجماهير بانتخاب الزعماء في فترات محددة وتقديم الطاعة المطلقة لهم فيما بعد.

وتولّد هذه الشروط ذهنية خاصة لدى زعماء الحزب، كما لدى زعماء النقابات على السواء: فيفرض هؤلاء والولئك على الجماهير، ليس فقط منحهم الطاعة، وانما ايضا قبول وتنفيذ الاوامر المعطاة من قبلهم، دونما منسجة او ممانعة.

ونظراً لانتعاش الزعماء الكلي بانهم فوق كل الانتقادات الموجهة اليهم من قبل الرفاق، وبالتالي، بانهم فوق الحزب نفسه، فانهم يجدون من غير المعقول بتاتا امكانية مراقبة اعمال السلطة العليا. فانجلز نفسه، الذي كان يتمتع بشعور مرهف تجاه المبادئ الديمقراطية الاساسية، كان يجد انه من المخزي ألاّ يتمكن زعماء الحزب الاشتراكي الاعتياد على الفكرة القائلة بان القيام في وظيفة معينة، او تحمل مهام محددة من قبل رفيق معين، لا يعطي الحق لمعاملة هذا الرفيق بطريقة تختلف عن طريقة معاملة الرفاق الآخرين.

وفي مؤتمر اللجان النيابية الذي تم عقده في الفترة الواقعة بين ١٩ و ٢٣ شباط ١٩٠٦، والذي يحمل علامة خاصة في تاريخ الحركة العمالية الالمانية، شكّى الرفيق بول موللر، وهو مستخدم في احدى النقابات، من ان رفاقه الثوريين في الحزب الاشتراكي يعملون على ابعاد اعضاء النقابات عن زعمائهم الذين قاموا هم بانتخابهم. لقد ذهب بهم المطاف الى حد اثاره وتحريك هؤلاء الرفاق ضد قيادتهم. لقد تم دفعهم بقوة للتعدّي ومخالفة السلوك والاداب. وهذا هو ما نسعى اليه، عندما نقول في الاجتماعات، ان على الرفاق واجب مقاومة زعمائهم.

وما ان يشعر الزعماء ببداية نشوء تيار جديد معارض داخل الحزب، حتى يعملون فوراً على التقليل من اهميته واعتباره، ويتعاملون معه بطريقة قسبية، تسهلا لاستيعابه. والجدير بالذكر في هذا الخصوص، ان الزعماء، وبما لهم من ادوات السلطة، وبالتالي، من قوة السلطة نفسها، يتمتعون دائما بافضلية

الظهور، متوجين بأكليل الشريعة، في الوقت الذي تجد فيه الجماهير نفسها محاطة على الدوام بمظاهر اللاشريعة.

إن الكلام السحري الذي نجح الزعماء بواسطته في كل حين، يخلق كل بذور معارضة متعبة، يدعى: الصالح الجماهيري.

وإذا ما تكلمنا عن روح التسلط، فأننا نجد أنها أكثر ما تكون منتشرة، في المانيا، لدى قياديين التنظيمات العمالية، وحتى لدى زعماء الحزب الاشتراكي وهكذا، فإن هؤلاء وأولئك لا يترددون في وصف الخصام والمعارضين بأنهم ذور «نية قاتلة»، إذ أنهم لا ينفون من وراء هجماتهم وتمدياتهم سوى «نقض السلوك النقائي وتفتيته». وهذا يعني: «تحريض على الثورة ضد السلطات القائمة».

إن كل نقد من إية جهة أئى، هو نقد مُدان مسبقاً، «فليعمل على ألا يُنزع عن الشعب دينه». فباسم هذا المبدأ، يوصف كل نقد حاد موجه ضد اخطاء الحكم الموضوعية الظاهرة وكأنه مؤامرة تُحاك ضد هذا الحكم؛ ويتم التشهير بعناصر المعارضة وكأنهم مقوّضي أسببه واعدائه. R. Luxembourg.

نستطيع مضاعفة عدد الاستشهادات والامثلة، التي تمكن من استنتاج العديد من نقاط الالتقاء، للموجودة بين موقف زعماء الاحزاب الديموقراطية الحديثة، والنظام البونابرتي المبني على «نعمة الشعب»، القائمة على «نعمة الله». وهذا حق من حقوق السيادة الناتج من الاستفتاء العام، والذي لا يتأخر في أن يفرض نفسه كسلطة سليمة، مصانة ومستمرة.

الفصل الثالث .

تعريف الحزب والزعيم « انا هو الحزب »

ها قد اظهرنا فيما سبق ، ان زعماء الحركة العمالية يتبعون في صراعاتهم ضد اعداء الداخل ، تكتيكاً معيناً ويتخذون موقفاً لا يختلفان كثيراً عن تكتيك وموقف الحكم « البورجوازي » في صراعه ضد العناصر « المخربة » .

ان الاصطلاحات اللغوية التي نستعملها السلطات القائمة في هذا الصراع ضد « البؤساء » ، هي نفسها في كلتي الحالتين . فالانتهامات الموجهة ضد المنتمدين هي ذاتها ، وكذلك هي الحجج والبراهين التي يتم استخدامها للدفاع عن الترتيب القائم للامور . ففي احدى الحالات ، تتم الدعوة للمحافظة على الدولة ، وفي حالة اخرى ، تقوم الدعوة على المحافظة على الحزب . وفي كلتي الحالتين ايضا ، يتم الاختلاط نفسه في ما بين مختلف التصورات والآراء ، عندما يكون الامر متعلقا باقامة العلاقات بين شيء وشخص ، وبين فرد ومجموعة .

ان مبدأ تسلط ممثلي الحزب الاشتراكي الالمانى الرسميين ، هذا المبدأ الذي هو احد الشروط الضرورية لكل تنظيم مشدود الهيكلية والبنية ، يقدم اكثر من تناسق او تطابق مؤثر مع مبدأ تسلط ممثلي الامبراطورية الالمانية الرسميين .

فهذا ، من جهة ، غليوم الثاني Guillaume II الذي ينصح « المتأقفين » ، اي اولئك الذين ، من بين رعاياه ، لا يجدون إلا كلى ما هو سائر نحو

الافضل، في فضل الامبراطوريات بنقض الفيار من تحت اقدمهم والاطلاق. وهذا بابل Bebel، من جهة اخرى، يصرخ ان الوقت قد حان لتخلص نهائيا، ومرة واحدة، من المتأففين الأبديين (الدائمين)، وعركي القلاقل في الحزب. وأعلن ايضا، انه يجب إلغاء المعارضة من الحزب، اذا لم نوافق على طريقة عمل القيادة.

هل هناك اختلاف اخر بين هذين الموقفين، سوى الاختلاف الذي يفصل بين تنظيم اختياري (الحزب) تملك تجاهه حرية الانتساب ام لا، وبين تنظيم قسري (الدولة) لا يمكن التخلص او الانسحاب من عضويته، اذ ننسب اليه بفعل الولادة؟

من المحتمل ألا يوجد زعيم حزب إلا ويفكر ويتصرف ويتكلم، كما كان يتكلم «ملك الشمس» على حد ما قيل: «انا هو الحزب».

ويحدد البيروقراطي هويته تماماً مع التنظيم، ويمزج مصالحه الشخصية مع مصالحه. كما يعتبر كل ملامة موضوعية موجّهة الى الحزب، من اي كان، وكأنها اهانة شخصية تصيبه في الصميم. من هنا، عجز كل زعيم حزب عن تقدير انتقادات الخصوم، بطريقة جديّة ومنصفة. وبالعكس، فانه لا يذخر جهداً، في كل مرة يتعرض فيها لهجوم شخصي، في نقل هذه التهجّمات وردها على الحزب بكامله. وفي كلتي الحالتين، فانه يبقي التخلص من ذلك بتغيير ساحة الصراع.

ولكن، اذا ما تصرف بعض الزعماء بهذه الطريقة، فمن النصف الاعتراف ان تحديد الهوية للشخصية، بالنسبة للحزب، لدى البعض الاخر، تصدر اما عن تعصب اعمى، واما عن اقتناع تام وصادق.

ان للفرد الثوري، حسب تعبير الثوري الروسي Netchaïeff، الحق باستغلال ومخادعة وسرقة وتدمير كل اولئك الذين لا يوافقون، دون تحفظ، على الاساليب والاهداف التي يقترحها، وكل اولئك الذين لا يرضون ان يكونوا في صميم المعركة. ويجب ان يكون موضوعه الاوحد، تأمين النصر لا فكاكه الشخصية والفردية بصورة اساسية، دون ان يتوجب عليه تسديد

حسابات معينة لأي كان: انا الثورة! لقد وصف باكونين طريقة التفكير هذه، بشكل جيد، عندما قال، انها وجدت منبعها لدى Netchaïeff في جو ثاق وعنيف على حد سواء.

ان استبدادية الزعماء لا تنتج فقط عن حب مبتذل للسلطة وعن انانية مفروطة، وانما ايضا عن وعي لقببهم الشخصية وللخدمات التي أدوها في سبيل القضية المشتركة. فالبيروقراطية الاكثر وفاء لواجباتها، والاكثر اهلية، ستصبح ايضا الاكثر تسلطاً.

واليكم ما قاله مثلاً Wolfgang Heine بخصوص العلاقات الموجودة في ما بين هذين الواقعين: « يجب الا نعرض على ان نزاوة وقدرات موظفينا، وحبنا للقضية الكبرى المشتركة، نواجه كلها حاجزا كافيا لتشكيل سلطة مطلقة مستبدة، داخل صفوف الحزب. وبالإضافة الى ذلك: هناك موظفون يعرفون مهنتهم العامة جيدا، كهؤلاء الذين يسعدنا ان يكونوا في صفوفنا ويزرعون نحو الرغبة في فرض ما يعتبرونه، هم انفسهم، صحيحاً ومناسباً. وكأنه قاعدة لا تقبل الانتهاك. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فانهم لن يترددوا مستقبلاً، بطرد وابعاد كل نزعة تنفرد وتبتعد عن افكارهم ».

ان تعريف الشيء والشخص، تعريفاً يكسني طابع المنظمة، يتواجد في كل بيروقراطية دولة عظيمة ونزوية، كالامبراطورية الالمانية مثلاً. هنا ايضا، تصدر هذه الظاهرة عن الضمير الهادئ، الطمئن، وعن الحب الكبير للمهنة، هذا الضمير وهذه المهنة اللذان يحركان الموظفين الالمان.

لا يوجد، ربما، بين الافراد الذين تتألف منهم بيروقراطية مشابهة، فرد واحد غير مستعد لاعتبار ادنى طعنة موجهة ضد شخصه وكأنها اساءة موجهة ضد الدولة. وهنا ايضا، وللسبب نفسه، يمكن تفسير التضامن والتكاتف القويين اللذين يشدان جميع هؤلاء الموظفين ويجمعانهم وحدة موحدة كاصابع اليد. ويعتقد كل منهم، انه يجتد في شخصه جزءاً من هذا الكل الذي يدعى الدولة وما ان يظهر اي جزء آخر، في حالة من الفش او الضرر، حتى يتحمل الجزء الاول، بالضرورة، نتيجة هذا الضرر.

وننصف الى كل ذلك، ان البيروقراطي يعتقد، بسهولة وصدق، انه يعرف حاجات الجماهير افضل مما تعرفه هي نفسها. وهذا رأي غير خاطيء تماماً، ربما في بعض الحالات، لكنه بشكل، في غالب الاحيان، خليطاً من غرور ابله وبالغة يغلب عليها طابع الادعاء.

ان موظف الحزب هو، مع ذلك، أقل تعرضاً من موظف الدولة لان يتحول الى شخص متكفي، متحجر، وذلك لانه يقوم بمهام تبقيه، الى حد ما، على علاقة مستمرة بالجماهير: فهو يقوم بجولات دعائية في سبيل نشر الفكر الحزبي، يحضر الاجتماعات العامة حيث تناح له غالباً فرصه التحدث... وانه حقيقي، ان عادة التصفيق الذي يلاقيه في هذه المناسبات لا يمكن الا ان تحت وتحرك لديه غروره الشخصي.

وخلال الصراع الذي شأ بين الزعماء واعضاء النقابات الالمانية، حول مسألة معرفة لمن يعود الحق في تقرير الاضراب، أيد الزعماء ودعموا، اكثر من مرة، هذه النظرية القائلة بان هذا الحق، أدبيا وقانونيا، لا يخص سواهم، اذ انهم هم الذين يقدمون القدرات المالية للعمل اثناء الاضراب ويلاحظ أحد نقاد هذه الحجة قائلاً: «يقال ان موظفي الاتحادات الضعفاء هم الذين يتذبذبون مصاريف الاضرابات، من مصروفهم الخاص». وعلى كل حال، يكمن هنا، البرهان الاكبر، النتيجة النهائية لايدولوجية اوليغارشية تقود، بشكل محتم، الى النسيان الكلي للمبادئ الديمقراطية الحقيقية.

القسم الرابع
التحليل الاجتماعي للزعماء

الفصل الاول

صراع الطبقات وتأثيره الفاعل على البورجوازية.

نبدأ هنا بالقول، ان المباحير لا تملك حسابة مرهفة، تجاه الاشياء، فتبقى روحها بعيدة عن ان تخضع لتعديلات جوهرية، عند وقوع احداث ما تحت أعينها، او عند حدوث ثورات متعددة في الحياة الاقتصادية. وهي لا تستب، بالتالي، وتتيقظ، إلا بعد وقت طويل فقط وتحت تأثير ظروف جديدة.

وتتحمل الشعب، بطريقة غير مباشرة، وطيلة عشرات ومئات السنين، انظمة سياسية مختلفة، تعمق تقدمه القانوني والعنوي الى أقصى حد ممكن. ان دولاً متقدمة، الى حد ما، على الصعيد الاقتصادي، تستمر، في غالب الاحيان، بتحتمل نظام سياسي ودستوري، طيلة فترات طويلة، يرتكز على مظهر اقتصادي سابق. ويمكننا اليوم، وأفضل من اي مكان آخر ان نلاحظ هذا الواقع في المانيا، حيث لم يتمكن بعد شكل الحكم الارستقراطي والاتحادي الذي ولدته ظروف اقتصادية قد تجاوزها الزمن، من التكيف مع فحوى الحكم المرسوم بطابع التصنيع الرأسمالي الأكثر تقدماً.

ان هذه الظواهر التاريخية المتناقضة في ظاهرها، هي نتيجة فئتين من الاسباب.

يحدث، في البداية، ان تستمر بعض الطبقات، في العيش، اذا صح

التعبير، في ظل هذا الشكل من الحكم، وهي تمثل غطاءً اقتصادياً لم يعد موجوداً. ولقد نجحت في انقاذ ما يكفي من النفوذ للعنوي والقوة السياسية الفاعلة من الفرق والتلاشي، وذلك كي تتمكن، فيما بعد، وفي طور اقتصادي أكثر تقدماً، من الحفاظ على سيطرتها، حتى ولو جاء ذلك على عكس ما تشهيه الإرادة الصريحة القاطعة لأغلبية الشعب.

إلا أن الطبقات التي تمثل طوراً اقتصادياً قديماً لا تحافظ، غالباً، على زعامتها الاجتماعية، إلا لأن الطبقات التي تمثل الاقتصاد الحاضر أو الاقتصاد المستقبلي، لم تتأكد بعد من قوتها، ولا من أهميتها السياسية والاقتصادية، ولا حتى من عقدة الذنب التي هي ضحيتها في المجتمع. كما ترضى هذه الطبقات الأخيرة أيضاً بالترتيب القائم للأمور، وكأن قبولها به نازل قُدري.

وطالما لم تنجح طبقة مظلومة في أن تنفض عنها، والحالة هذه، هذه الختمية، وطالما لم تدرك بعد، بصورة كاملة، الظلم الاجتماعي الذي يكبتها ويرهق اكتافها، فهي عاجزة عن التطلع نحو التحرر.

وليس هذا مجرد وجود الظروف القاهرة، أن الإدراك الحسي لهذه الظروف، وهو ما يشعر به المضطهدون، بشكل المحرك القوي لصراعات الطبقات عبر التاريخ. وهكذا، فإن وجود البروليتاريا الحديثة لا يكفي لوحده لخلق مسألة اجتماعية. ومن أجل ألا يبقى صراع الطبقات في حالة من الغموض الدائم والانكفاء الدائم، فهو بحاجة لأساس من الوعي والادراك، إذا صح التعبير. وهذا الأساس هو الشرط الذي لا بد منه لذاك الصراع.

إن البروجوازية هي التي تسهر، دون أن تريد ذلك، على أن تدرك البروليتاريا وتعني موقعها كطبقة مقهورة مضطهدة. إن هذا سلاح تسته ضد نفسها. ولكن التاريخ مليء بمثل هذه السخرية: إنه لواقع متناقض.

لقد استحققت البروجوازية هذا القدر المأسوي بأن تكون الرتبة الباهرة على عدوها الاقتصادي والاجتماعي الميت. وكما شرح كارل ماركس، فيما

مضى، في بيان الحزب الشيوعي، فإن السبب الرئيسي لهذا الواقع يكمن في الصراع المستدم، الذي يتوجب على البورجوازية ان تقاسبه وتخوضه ضد الاستقراطية، وضد هذه الاجزاء المتفرعة عن طبقاتها بالذات، والتي تتعارض مصالحها مع تقدم الصناعة، ومن ثم، ضد بورجوازية كل البلدان الاجنبية».

ان البورجوازية، وبمحكم عجزها عن خوض مثل هذا الصراع بوسائلها الخاصة، تجد نفسها مرغمة، بصورة مضطرة، على التوجه نحو البروليتاريا والتاس مساعدتها، وجعلها تنطلق، هكذا، في خضم الحركة السياسية. وما ان يتم هذا، حتى تطلع البورجوازية البروليتاريا، وتعلمها «بمناصر ثقافتها الخاصة»، اي انها تضع بين يديها «سلاحا» تستخدمه فيما بعد ضد البورجوازية نفسها».

الا أن البورجوازية، وتحت غطاء مظهر آخر، تبدو وكأنها المرتبة واستاذ المبارزة للطبقة العاملة.

ان من نتائج اتصالها الدائم وعلاقتها بالبروليتاريا، فصل مجموعة من الرجال من اصل قواها الخاصة، وهم رجال يضعون معلوماتهم واعصامهم في خدمة الجهاير العاملة. وهكذا، يكلف هؤلاء انفسهم بتشجيع هذه الجهاير في صراعها ضد الترتيب القائم للامور، ويشعرونها ويعلمونها بمكان ضعف توازن النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد.

ان هذه العناصر التي تخرج عن الكتلة البورجوازية لتصب في خانة البروليتاريا ليست، في الحقيقة، متعددة، إلا انها، مع ذلك، العناصر الفضلى. لذلك، فأنه من الممكن اعتبار الافراد الذين يتوصلون الى ان يخطوا مثل هذه الخطوة، وكأنهم رجال عطاء، الى حد ما. وبالفعل، فان تحولهم هو تحول يمل عليهم، في غالب الاحيان، من قبل ادوات محرّكة، لا مصلحة لها في ذلك. وهم (أي الافراد) موجّهون، إما صوبهم لتقريبهم، وإما بفعل الشفقة، وإما بكفاءتهم المعنية واهلبيتهم في ان يسخطوا من المظالم الاجتماعية، وإما بمعرفة نظرية عميقة للقوى التي تفعل في التاريخ، وإما أخيراً

بفعل انهم يعرفون ترجمة مبادئهم الى افعال، بعزم اكبر والتحام منطقي اكبر. فهؤلاء البورجوازيون الماريون من طبقتهم الأصلية، هم الذين، وبالحالة هذه، يقدمون توجيهها واعيا مدركا لفرائز البروليتاريا، هذه الفرائز التي ما تزال مغمورة، والتي يستعملون، هكذا، محورها وانعقادها.

لقد ولدت العقيدة الاشتراكية من تأملات فلاسفة، واقتصاديين وعلماء اجتماع ومؤرخين، ولا توجد كلمة واحدة في البرامج والتخطيطات الاشتراكية لمختلف البلدان، إلا وغفل خلاصة جهد مجموعة من العلماء. لقد كان آباء الاشتراكية الحديثة جميعهم تقريباً، علماء، بالدرجة الأولى، ومن ثم سياسيين بالمعنى الدقيق للكلمة.

لقد كان هناك بالطبع، وحتى قبل ولادة الاشتراكية، حركات بروليتارية نشأت تلقائياً من رغبة فطرية، وتطلع نحو حياة اقتصادية وفكرية أكثر ارتفاعاً وتقدماً. إلا أنها كانت انعكاساً أكثر منها حركات واعية قامت على ارادة مسبقة. ولم تصبح الحركة البروليتارية حركة اشتراكية، كما لم تصبح الثورة الفطرية المجردة من الهدف والاتجاه، رغبة وتطلعا واعيا واضحا عاملا الى هدف محدد، إلا ابتداء من اليوم الذي وضع العلم نفسه فيه في خدمة الطبقة العاملة، ليس الا.

لقد كان كبار مبشري الاشتراكية الاقتصادية، وكبار مثلي الاشتراكية الفلسفية أمثال: Owen و Fourier و Saint - Simon، ومؤسسو الاشتراكية السياسية أمثال: Lassalle و Blanqui و Louis Blanc، وآباء الاشتراكية العلمية، أمثال: Rod bertus و Marx و Engels، لقد كانوا كلهم مفكرين بورجوازيين.

كم كانت تبدو صورة Wilhelm Weitling وصورة الفيلسوف العصامي Pierre Lerouse قليلة الاهمية الى جانب اولئك المفكرين. وحده العامل الطباعي Proudhon ارتفع الى مستوى عظيم كشجرة سرو وحيدة.

لقد شكل البورجوازيون السابقون الاغلبية المطلقة خلال هذه السنوات الاخيرة، حتى من بين كبار الخطباء الذين خلفتهم القضية العمالية، بيتا لم

يشكل الرجال المنتسبون للطبقة المالكة سوى العدد البسيط منها.

فإذا ما أردنا تنظيم لائحة بأسماء كل رجال السياسة الاشتراكية الكبار، المتحدثين من الطبقة البرجوازية، لملأنا صفحة كبيرة لذلك. ونستدرك هنا، بالمقابل، لاستعراض الزعماء السياسيين للاشتراكية ذوي الأصل البروليتاري: انهم Benoit Malon و August Bebel و Edouard Anseele. وعلى الرغم من تعمق هؤلاء ومعرفتهم بالحركة المالكة، وعلى الرغم من كونهم منظمين درجة أولى، فإنه ينقصهم أيضا النبوغ الخلاق كونهم منظرين فقط.

ان وجود العناصر البرجوازية داخل البروليتاريا، هو واقع يُلاحظ في كل البلدان حيث تنخرط الطبقة المالكة في الحركة السياسية. وهنا يحق لكل منا التساؤل (ولقد تم طرح هذا السؤال بالفعل) ما إذا كان وجود عدد كبير من البرجوازيين في صفوف البروليتاريا هو من باب إضعاف نظرية صراع الطبقات؟

وبتعبير آخر، فإن المقصود ههنا، هو معرفة ما إذا كانت دولة المستقبل، هذه الدولة حيث تتلاشى وتلفى التبايزات الطبقيّة التي يحلم بها الاشتراكيون والدستوريون والغوضويون والادباء والمسيحيون الجدد والباحثون الجنائيون الجدد، ما إذا كانت تتمكن من تحقيق ذاتها، على اثر تحوّل نفسي متزايد للبرجوازية نفسها، هذه البرجوازية التي أصبحت تدرك تماما ان امتيازاتها الاقتصادية والاجتماعية امر مجحف. ويمكن بالتالي التساؤل، على حد سواء، إذا لم يكن الانشقاق الحاصل على الساحة السياسية بين احزاب الطبقة المثقلة لمصالح الطبقة، لعبة عقيمة مدانة.

باختصار، هل ان البرجوازيين الذين يأخذون على عاتقهم ادارة وقيادة الحركة البروليتارية، مجرد فارتين فقط؛ أو هل هم، على عكس ذلك، « مبشرين » سوف ينتهون بجرّ كامل طبقتهم الى معسكر العدو؟ وإذا كانت هذه النظرية الاخيرة صحيحة، فما على العمال سوى التسليح بالصبر، وانتظار

استنفاد البورجوازية انتحارها الاجتماعي والسياسي بهدوء وسكينة.

لقد أيد De Amicis و Henri Heine الطرح القائل بأن البورجوازية هي على طريق الوهن وخسارة الشجاعة الادبية والمعنوية لافكارها، والشجاعة المادية ايضا امام المخاطر، وانها بدأت تكلّ من حالة الحرب ضد طبقة البروليتاريا.

لذلك، ونتيجة اقتناع البورجوازية المتزايد اكثر فاكثراً، بأن هذه الحرب لا يمكن ان تنتهي الا بهزيمتها هي، فانها بدأت تتراجع، بخوف ووجل، امام رؤية الانقراض التي مستتھي بتكديسها. وهي هكذا تظهر حاجتها الى الراحة، الى التجديد، الى التأمل. وعندما تبلغ حاجتها تلك حدها الاقصى، وهو امر محتم تقريباً، فسوف تنتقل بأسلحتها وأمتعتها الى معسكر الاعداء. وهكذا، سيجد انتصار البروليتاريا نفسه محققاً دون سكب دماء، ودون أي نوع من العنف، وذلك فقط لان الطبقة الغالية عرفت كيف تفرض نفسها بتفوقها المعنوي، وبأمانها المعلقة بمستقبل زاهر خصب تحمله الى العالم، أساسه الراحة والعدالة.

ومن المؤكد، ان على طبقة الامتيازات ان تملك، في ما تملك من صفات، فاعلية تتوافق بسهولة مع المساواة وغياب الوسوس، من أجل الدفاع عن امتيازاتها بصرامة وثبات. ولكن الافكار الانسانية، والحالة هذه، تجعل البورجوازية، بالتحديد، على الشك بمشروعية حقها الادبي والمعنوي. ومن نتائجها ايضا تشييط عزيمتها وجعلها عاجزة، كما يقول Pareto، عن الدفاع عن مواقفها.

ان الهدف من نشر الدعوة هو زعزعة ثقة الخصم بنفسه. كما يقصد، بشكل خاص، اقناعه بتفوق الجميع والبراهين التي يُجابه بها.

ان الاشتراكية، وهي عكس اية حركة اخرى، تنكر الفاعلية الكبرى التي يتتبع بها الخطيئة، وهي قوة الاقتناع التي لا تُقهر. ويعود الفضل لهذه الاساليب، وبالتحديد، لى النجاحات العظيمة التي حققتها الاشتراكية من

خلال بث دعوتها ونشر الدعاية لها .

إلا ان لقوة الاقتناع هذه، حدود طبيعية وضعتها لها العلاقات الاجتماعية نفسها. كما يتمكن الاعلام، وفي ظروف طبيعية، من الوصول الى نتائج ايجابية، بسهولة كبيرة، وذلك حيث يكون الاقتناع موجها للتأثير على الجماهير الشعبية، أو على الطبقات الاجتماعية التي ترى في التحاقها والتزامها بالحركة كل نصر لها. ولكنه يفشل فشلا غزريا يرى له، عندما يتوجه الى طبقات الامتيازات، من اجل تخويضها على التخلي عن المواقع السامية التي تحتلها في المجتمع.

وما هو صحيح ايضا، هو ان العقيدة الاشتراكية قد ربحت لصالحها عدداً كبيراً من «ابناء العائلات» البورجوازية، وانها استولت على نفوسهم، الى درجة جعلهم يتخلون عن كل ما تبقى لهم: الاب والام، الاصدقاء والاهل، والمراكز والاعتبارات الاجتماعية، وهكذا، ودون أسف ولا تردد، كرس هؤلاء حياتهم للعمل على تحرير الانسانية كما تفهمه الاشتراكية.

الا ان الحديث هنا عن ابناء العائلات هؤلاء، لا يعني سوى بعض الممارين من طبقتهم والمعزولين منها كما انه لا يعني مجموعات متراسة تمثل طبقة اقتصادية كاملة. فالطبقة التي كانوا ينتمون اليها، لن ترى نفسها ابدا ضعيفة بفعل انسحابهم منها، او تغليبهم عنها.

ان اثنائية الطبقة تدعم الطبقة البورجوازية، عوضاً عن بقية العوامل المؤثرة. وهذه الاثنائية هي نفسها التي تتمتع بها البروليتاريا، كطبقة اجتماعية، مع فارق واحد، هو ان اثنائية البروليتاريا الخاصة بالطبقة، تندمج، نظريا على الاقل، مع مثال انسانية لا وجود فيها لطبقات متمايزة.

ولا تنتشر اثنائية الطبقة لدى الفئات والاقسام المختلفة للطبقة المسيطرة الحاكمة على السواء .

ولا يزال، حتى اليوم، بعض ممثلي الرأسمالية القطرية، وبشكل خاص اتباع Junker البروسيين، يعلنون، دونما مراوغة، انه يتوجب ارسال كل من يخطر

في ياله المطالبة بمقوق سباسب؁ اقآصااا او اآآاعاا آااا امآارآام؁ ال الاآآال الشاقا او ال اماآن آآآع ذوا الامراض العقلآا.

ولآن آناك اآضا؁ آناآ اآراى اقل آآراا على الاصلآاآ واقل اآابا فطراى من اآباآ Junker؁ يصآب علآا الوصول؁ مع ذاك؁ ال اآآرام اآآارآا العااا الاآآاعاا؁ الا فى آااا كون آاا الاآآارآا لا آصرا؁ بشآل عآوس؁ بمصلآآا الفطراى كطآقا.

فمن المآطقى آآامآ اذن؁ ان آعآبر البرولآآارآا؁ المآواآا ااآل آزب الطآقا؁ صراعاها صا كل آناآ البورآواآا وكونه السآآل الوآا لآآآق نظام اآآامى لا آكون فآه العلم والمصآا والمآآا؁ كما الوم؁ آآرا على اقلآا.

فما من آناقض واآا بآن ضرورة آواآا البرولآآارآا فى آاا مآاوما البورآواآا ومآاربآا على ارض صراع الطآقاآ؁ وبآن الضرورة الاآرا فى آااآاها والمآاآا على رسآآا الانساآا البآا.

عناا ىآملق الامر بالاسآآلا على السلطة؁ فان الاآناع هو السآآل الفآاق لذلآ بالآع؁ اا ان الطآقا الآا اقآآآت بأن مآال الآصم آا اسآا على أسس واسباب افضل؁ وآآوى مضمونا معنواى اآآر عآقا؁ لن آكون لها؁ بآون شك؁ ما آكفى من القسوى لمآابعا الصراع: فآاى آا خسرا؁ بالآآاآا؁ اآمانها بمآآها؁ آاا الاآمان الذى آعطى وآاآه آبرآا معنواى للمقاومة.

ولآن الاآناع وآا لا آكفى؁ لان طآقا؁ مآا اقآآآت بآفوق الطآقا المآاسفا؁ لن آبآى الآوقف عن مآابعا المآركا؁ ولن آآض؁ فى الغالب؁ إلا لقوة الوقآع والاآاآا.

نعآق انا آآهرنا؁ عبر كل آاا الاآآارآا؁ ان اآآول آناصر بورآواآا فى صفوف العمال المآآآآن فى آزب الطآقا؁ هو امر آآاآا؁ بصورة رأآسا؁ مآركاآ نفسا؁ وآآهر وكونه آآور عآوى لآآا معآا.

كما نقول أيضا ، وقبل انتهاء هذا الفصل ، أن المخرج من الصراع الذي يتلاحق بين الطبقتين الكبيرتين الممثلتين لمصالح متناقضة ، لا يمكن ، في أي حال من الأحوال ، أن يعود لانتقال أفراد ، منزولين ، من طبقة لأخرى .

الفصل الثاني

الزعماء الاشتراكيون المتحذرون من أصل بورجوازي.

يمكن ان يُقسم الزعماء الاشتراكيون الى فئتين اثنتين، من وجهة نظر اصلهم الاجتماعي: فئة المنتمين الى البروليتاريا، وفئة المنتمين الى البورجوازية، او بتحديد اكثر، الى الطبقة المثقفة منها. اما الطبقة المتوسطة (البورجوازية الصغيرة، صغار المزارعين، اصحاب الحرف الصغيرة) فانها لا تؤلف سوى فريق، لا يذكر، من أتباع الاشتراكية. ويتبع ممثلو هذه الطبقة المتوسطة الحركة العمالية في الظروف الاكثر ملاءمة، اما كمشاهدين متعاطفين، واما بصفة اتباع وحسب. ولكنهم، لا يتوصلون مطلقا، اذا جاز التعبير، الى مركز ادارة وقيادة الحركة.

ومن بين هاتين الفئتين من الزعماء، وعلى الرغم من ان الاشتراكية حركة تتعارض مصالحها ومصالح الطبقة البورجوازية، فان الزعماء المتحذرين من هذه الطبقة الاخيرة ينشطون، بشكل عام، بمحبة اكثر من الزعماء ذي الاصل البروليتاري.

يُفسر هذا الفارق، بسهولة، بواسطة سبب ذات صفة نفسية، وهو ان البروليتاري لا يحتاج للتطور تدريجيا نحو الاشتراكية عن طريق الضغط على فطرته، وعن طريق فسخ علاقاته التقليدية: فهو يولد اشتراكيا، اذ صح التعبير، وعضوا في الحزب حتى.

ففي البلدان التي تتواجد فيها الرأسمالية منذ مدة طويلة، نشأ تقليد اشتراكي حقيقي في بعض الأوساط المهالية، وقُلَّ حتى لدى فئات كاملة من العمال. ومثالاً على ذلك، فإن الابن يرث روح الطبقة عن والده الذي أخذها، بدوره، دون شك، عن الجد. فالاشتراكية عندهم تسري في الدم؛ إذا جاز التعبير.

يضاف إلى ذلك أيضاً، أن العلاقات الاقتصادية القائمة، إلى جانب صراع الطبقات المرتبط بها والذي لا يستطيع الفرد، وحتى الأكثر غمراً ضد النظرية الاشتراكية، الانسحاب منه، تُرغم البروليتاري على الالتحاق بحزب العمل فالاشتراكية، البعيدة عن أن تكون متعارضة مع شعورها الطبقي، هي، بالعكس، التعبير الأكثر صفاءً والأكثر بداعةً عن ذلك.

إن البروليتاري، العامل المأجور والعضو في الحزب، اشتراكي، لأن هذه هي مصلته المباشرة. كما أن مسألة انتزاعه إلى الاشتراكية، يمكن أن تسبب له مصائب مادية جسيمة، كخسارة عمله مثلاً، وعدم إمكانية توفير خبزه اليومي حتى ولكن اشتراكه لا تتوقف، لهذه الأسباب، عن أن تكون النتيجة المعقولة لانتزاعه الطبقي، ويتحمل، بذلك، الآلام التي يمكن أن يكون عليه تحملها بفرض وبهجة، بمقدار ما يمي أو يدرك أنه يتألم من أجل القضية المشتركة. هذا، ويشكل عرفاناً جيل رفاقه وامتنانهم له دعماً ممتوياً كافياً.

الواقع، أن تصرف البروليتاري الاشتراكي هو تصرف طبقي، وإن هذا التصرف، وفي كثير من الحالات، يلائم، بقوة كبيرة، مصالحه، حتى الأكثر آنية منها.

وهناك بشكل مغاير، اشتراكيون من أصل بورجوازي، لم يولد أي منهم مطلقاً في وسط اشتراكي. فكلهم يتحدثون، بالعكس، من عائلات بنسب مسبب تقليدياً العدا للعمال، أو هي مثلية، على الأقل، بروح الازدراء واستخفاف تطلعات الاشتراكية الحديثة. وهنا أيضاً، يرث الابن من روح أبيه، وإنما من روح تتعارض مع الروح التي يرث منها العامل؛ أنها روح البورجوازية الطبقيّة. وليست الاشتراكية هنا هي التي تسري في دمه؛ وإنما الذهنية الرأسمالية في إحدى أوجهها المتعددة؛ وإلى ذلك، فهي ذهنية فخورة بتفوق البورجوازية

المزعوم.

وهكذا، فإن الظروف الاقتصادية التي يولد فيها البورجوازي، وحق التربية التي يتلقاها في المدرسة، تبتأه مسبقاً وتعده كمي لا يبرهن إلا عن نفور واشمئزاز من صراعات طبقة عمالية ذات تطلعات اشتراكية. ولذلك، فإن الوسط الاقتصادي الذي يعيش فيه، يجعله يخاف على ثرواته، عند التفكير بالخدمة التي سيتوجب على طبقة تلتقيها يوماً، تحت ضغط الجماهير المنظمة «للدولة الرابعة». وتعمل هذه الفكرة على جعل انانيته الطبقة أكثر حدة، إلى حد تحويلها إلى حقد مشتمل لا تخمد ناره.

كما تساهم تربيته المرتكزة على العلم الرسمي، في توطيد وتقوية ميوله كسيد شاب. أن التأثير الذي تمارسه المدرسة والمحيط على النسل الشاب، له تأثير عميق جداً، إلى درجة أن هذا النسل، ما أن يتحدر من أبوين متعاطفين مع الاشتراكية والحركة العمالية، حتى تنتهي فطرته البورجوازية، في أغلب الأحيان، بالتبنيظ والتغلب على المواطن وحتى على التقاليد الاشتراكية لعائلته.

ومن النادر جداً، بالفعل، رؤية أبناء وبنات الاشتراكيين المثقفين يسلكون طريق آبائهم. نذكر هنا، كمحالات استثنائية، أحفاد ماركس و Longuet و Leibnecht.

والأكيد أيضاً، أن ندرة هذه الحالات تعود لطرق تربية تُستخدم في أكثر من عائلة اشتراكية واحدة، ولا تحتوي، مع ذلك على أي شيء من الاشتراكية.

ولكن، وفي الوقت الذي تتعارض فيه هذه الواقعة الأخيرة مع انتشار وتوسع الإدراك الاشتراكي لدى الأولاد، فإن الشاب المتحدر من أصل بورجوازي يشعر، بقوة، بتحريك وسطه الاجتماعي حيث يولد. فهو يحفظ، حتى بعد انتسابه للحزب الاشتراكي، نوعاً من التضامن مع الطبقة التي تركها لتوه، كما يحافظ مثلاً، وبصورة دائمة، في علاقاته مع الجهاز البشري العامل لديه، على موقعه كصاحب عمل، «كاستغل»، إذا لم يكن بالمعنى المبثذل للكلمة، فبالمعنى الاجتماعي لها على الأقل.

اما بالنسبة للبوجوازي الصغير، فان تطوره نحو الاشتراكية مازال ممكناً ان يتم بطريقة سلمية هادئة. فهو يتقرب أكثر من الاشتراكية بحكم ظروفه الفكرية والاجتماعية. كما يتقرب خصوصاً، من فئات الاشتراكية التي تنقاضي بدل اتعابها اجورا مرتفعة.

ولكن، وبقدر ما هي غنية العائلة التي ينتمي اليها البوجوازي، وبقدر ما هي متعلقة بتقاليدها الخاصة بطبقتها، بقدر ما هو الموقع الذي تحتله مرتفع وبقدر ما هو الانشقاق صعب ومؤلم. وهكذا، فان الخارج عن طبقة الخاصة، وبالإضافة الى تحمله ضرراً اجتماعياً ومادياً جسيماً من جراء فعلته هذه، يجد اصدقاء الجدد يتملصون منه، في الوقت نفسه، ويتحاشون قبوله في صفوفهم، الا بتحفظ وكره.

اما بالنسبة لابن بوجوازي كبير، او لابن موظف في مركز مرموق، او ابن احد النبلاء الاتحاديين، فان التحاقه بالحزب الاشتراكي، غالباً ما يسبب كارثة. هذا، ويسمح له بالتخلي عن بعض التخييلات والتأملات الانسانية الغامضة والبريئة. كما يسمح له ايضاً بان يطلق على نفسه صفة الاشتراكي في احاديثه الخاصة. ولكن، وما ان يظهر النية بممارسة نشاط عام، كمناضل تابع للحزب، ومرافقة جيش «التمردين» في مسيرته الى الامام، حتى يكتسب البوجوازي الفار، داخل طبقة الخاصة، صفة المجنون او العنصر الممي. وتبهط قيمته الاجتماعية الى ما دون الصفر، وتذهب العدواة التي تُشَنّ ضده من قبل طبقة الاصلية، الى حد اِرغامه الى فسخ كل علاقة بعائلته، وتُلغى، فجأة، كل اواصر القرى الأكثر دقة: فيتركه الاهل والاخوة بشكل صارم، في غالب الاحيان. وهكذا يكون قد هدم كل الجسور التي كانت تربطه بماضيه.

ما هي الاسباب التي دفعته للتصرف هكذا؟ انطلاقاً من هذا التساؤل، يمكن تقسيم البوجوازيين المتحولين الى فئتين اساسيتين:

فهناك اولاً رجل العلم الذي لا يلاحق سوى نهايات الامور الموضوعية التي تبدو وكأنها مجردة من كل فائدة ملموسة. وان العالم القادر على تكريس كل

شيء في سبيل العلم ونتائجه، يميل نحو الاشتراكية بسبب مجرد، لما يعتبره حقيقة. مع ذلك، وحتى يتصرفه هذا، فإنه لا يفعل سوى الطاعة لطبيعته التي تظهر، قبل كل شيء، حاجتها للمناسك والالتحام العلمي.

كما يُجمع كل علماء النفس، بالفعل، على الاعتراف بأن حرية ممارسة الرجل لقدراته، توفر له شعوراً باللذة والسرور. إن التضحيات التي يفرضها العالم الاشتراكي على نفسه، من أجل الحزب، تُضاعف من اكتفاء رغبانه الشخصية. وإذا ما تعرض العالم البورجوازي الملتحق بالاشتراكية لبعض الأضرار الخارجية، المادية... فإنه يحفظ في نفسه، بالمقابل، قرحةً معنويةً عميقةً يمّوض عليه كل خسارة مادية.

وبعد العالم، يأتي الرجل الذي يعيش حياة عاطفية حيمة. وغالباً ما يصبح اشتراكياً في طور شبابه، أي في مرحلة من مراحل حياته حيث لا تنفك شخصاً اهتماماته، وأرصادته المادية عائلاً بوجه الدفع الدموي في عروقه وحيثه العارمة. وهو، بالتالي، ملهم بجمرة العقيدة وبالهاجة إلى الإخلاص تجاه أمثاله. ويُظهر أيضاً، وفي سبيل النضال ضد الظلم والتضحية من أجل المظلومين والمتواضعين، فرحاً يجعل من الطبايع الأكثر برودة وسكوناً، طباعاً شجاعة ومحاربة. إن هذه الشجاعة هي شجاعة مدعومة بقسط وافر من التفاؤل بتقدير واستحسان طبيعة الحركة الاشتراكية وقوتها المعنوية، ومدعومة أيضاً باليمان زائد بفعالية التضحية الخاصة بكل فرد، وبإدراك خاطيء لمنطق التطور، وغرور شديد بقرب وسهولة النصر الأخير.

وفي العديد من الحالات، يتغذى الايمان الاشتراكي أيضاً من مصادر حساسية مرفعة، شاعرية: لذا، يُدرك الأشخاص المتمتعون بخيال واسع وبمزاج متقلب، اتساع رقعة الآلام الإنسانية وعمقها، وذلك بطريقة أسرع، ويتصورونها في ذهنهم بطريقة أكثر احساساً وواقعية. ويلتهب تصورهم أيضاً بقدر ما تتسع المسافة الاجتماعية التي تفصلهم عن الغرض موضوع التصور. وهذا ما يفسر كون عدد كبير من الأفراد، ذوي الولادة والثروة البورجوازيين، قد هجر عتبة الاشتراكية. وهذا ما يفسر أيضاً، وجود عدد ضخم من الشعراء والرجال

اصحاب مزاج حاد، عاطفي ومندفع، في الصفوف الاشتراكية.

من الصعب القول، ما اذا كان اولئك الذين يلتحقون بالاشتراكية بدافع العاطفة هم اكثر عدداً من اولئك الذين يلتحقون بها بدافع الاقتناع العقلائي. ومن المحتمل، ان يكون العاطفيون اكثر عدداً من بين اولئك الذين يتسبون الى الاشتراكية منذ شبابهم؛ بينما يقرر اولئك الاكبر سناً دخولهم، بناء على اقتناع علمي في غالب الاحيان. ولكن النموذج المختلط هو المسيطر بشكل عام. وكثيرون هم البورجوازيون الذين لا يلتحقون بالعقيدة بشكل فاعل، الا بعد توصلهم للاقتناع بأن رغبات وتطلعات قلوبهم ليست فقط صحيحة ومعقولة، بل ايضاً ممكنة التحقيق. وباختصار، فان اشتراكيتهن هي، في الوقت نفسه، عملاً عاطفياً وعلمياً.

لقد تم تنظيم استقصاء حول الاشتراكية في العام ١٨٩٤، طال العلماء والفنانين الاكثر شهرة في ايطاليا. ولقد سئلوا، من بين مجموعة اخرى من الاسئلة، ما اذا كان تعاطفهم او لا مباليتهم او عداوتهم تجاه الاهداف التي تعمل لها الاشتراكية، ناتجاً عن بحث واضح للمشاكل التي تتألف منها، او هي من اصل عاطفي بحت. هذا، وقد ردت معظم الاشخاص، موضوع الاستقصاء، بشأن موقفهم من الاشتراكية انما هو ناتج عن استعداد نفسي، تشدّ إزره اقتناعات موضوعية.

ولقد استطاع الماركسيون من اعطاء جواب مشابه على الرغم من استهزائهم الشديد لكل ما هو ايدولوجي ومدعاة للشفقة، وعلى حساب ماديتهم الظاهرة. وبالطبع، فان كل اولئك الذين يتعاطفون مع الاشتراكية، أو هم مقتنعون بالقوة النظرية لمبادئها، لم يتجندوا في صفوفها من اجل ذلك فعلاً.

ولا يفعل ذلك الكثير من الاشخاص لانهم، يظهرون رفضاً للفكرة القائلة بأن عليهم ان يقوموا بمهمات انسانية لا يعرفونها.

وكثيرون ايضاً، هم الذين يقعدهم الكسل او الحب الشديد للهدوء والسكينة، او الخوف المبرر تقريباً من نتائج خطوة كهذه يمكن ان تؤثر على مستقبلهم.

وفي حالات أخرى، فإن فرداً لم يكن اشتراكياً إلا في ضميره الداخلي، ولا يتجرأ على البوح بتعاطفه، يبد نفسه، فجأة، مرغماً على خلع القناع عن وجهه، وذلك لأن عدواً أو خصماً خبيثاً أو صديقاً اعتقد أن من واجبه فضحه علانية دون أن يترك له هكذا إلا مخرجين لا ثالث لهما: إما انسحاباً مخجلاً وتراجعاً على حساب انكماش لا يقل حياءً، أو الاعتراف العلني بالفكر التي كان يعلن إيمانه بها حتى هذا الوقت في قوارة نفسه.

لقد كان العيشي الروسي Netchaïeff قد أقام الأسلوب المتمثل بكشف المتقبلين الخجولين، والاعلان عنهم، وحركته الى طريقة تُعتمد في التحرك الثوري. لقد كان يدعي انه كان للرجل الثوري الحق في أن يمرض للخطر كل اولئك الذين، وهم يقاسمونه معظم افكاره، لا يشاركونه الرأي فيها كلها بعد، وذلك كي يفسخ، بهذه الطريقة، الروابط الاخيرة التي كانت تشدهم الى العدو، وليستعملهم نهائياً نحو القضية المقدسة.

وغالباً ما تم الاعلان عن ان كل المهن الليبرالية ليست سهلة البلوغ للافكار الاشتراكية على حد سواء. فالعلوم النظرية، بالمعنى الدقيق للكلمة، كالفلسفة، والتاريخ والاقتصاد السياسي، وعلم اللاهوت وعلم الفقه، هي علوم مشتعبة كثيراً بروح الماضي، الى حد ان مثليها يظهرون انفسهم، بالدرجة الاولى، متمردين على كل فكرة مخربة. فالعقيدة القانونية تضر، بشكل خاص، ثمة حب وتعلق بالنظام، واحترام مقدس للمظاهر، وبطء في طريقة التعامل، وضيق في الافق، اذا اردنا.

وتقوم روح التسلط والاستبداد بتحريك وتنشيط العلوم الاستثنائية والاخلاقية، بشكل هام، ويشملك ممثلها ميل قوي نحو العقائدية. وبالعكس، يصبح من السهل على العلماء المهتمين بالعلوم الاختبارية والاستدلالية، تأمين طريقة الملاحظة التي يتبعونها لقضية التقدم، هذه الطريقة التي تقودهم تدريجياً الى مبدأ التعميم المتسع اكثر فاكثر. وبصورة خاصة، فإن الطبيب الذي تتمثل مهته بكونها صراعاً مستمراً ضد البؤس والمصائب، يجعل في دماغه وفي قلبه بذور الفكرة الاشتراكية.

ان تحليل المهن الذي يمارسه المثقفون التابعون لمختلف الاحزاب الاشتراكية، لا يؤيد ابدا هذه البنية النظرية.

فتحسب لا نجد، بين مثلي الاشتراكية، عدداً لا بأس به من الاطباء، إلا في فرنسا وابطاليا فقط. وحتى في هذين البلدين، فان هذا العدد ادنى من عدد العلماء والمحامين.

وفي ألمانيا، فان العلاقات القائمة بين العمال الاشتراكيين وهذه الفئة من الاطباء ذي الموقع الاكثر صعوبة، ليست بأقل من علاقات عاطفية ودية.

يمكن القول، باختصار وبشكل عام، ان الطبيب يتطلع الى الاشتراكية بكثير من الفور ويكثر من التحفظ، اكثر من تطلع الفيلسوف المجرد او المنشئ الحر اليها. يجب ان نرى هنا، ربما، تأثير التفسير المادي والمحافظة للعالم، هذا التفسير المستخلص من النظرية الداروينية والميقلية، والذي كان معمولاً به بين الاطباء، خلال الاربعين سنة الاخيرة هذه.

كما نجد، بين الاشتراكيين، عددا لا بأس به من الكهنة، في بعض البلدان البروتستانتية، كهولندا وسويسرا، واميركا ولكن ليس في المانيا حيث الدولة يقظة وقادرة والكنيسة صلبة وصارمة). ويقال أن هؤلاء الكهنة يلتحقون بالاشتراكية على أساس شعورهم المرتفع بالواجب نحو القريب، وربما ايضاً، يلتحقون مدفوعين بالحاجة القوية جداً لدى المبشر، كما لدى الخطيب الشعبي، لان يسمعوهم ويتبعوا، وتغيب بهم الجماهير، أمؤمنة كانت ام غير مؤمنة.

ويتوجب علينا ان نشير هنا، الى ظاهرة مهمة، وهي ان نعرف وجود العدد الكبير من اليهود، بين الزعماء الاشتراكيين والثوريين.

ان الصفات الخاصة للجنس العبري، تجعل من الاسرائيلي، الرجل الذي ولد ليكون قائد جماهير، ناشر دعوة ومنظم. ومن بين صفاته العديدة، تبرز في الطليعة الصفات التالية: تمسكه المذهبي الذي يتفشى، كالعندوى، بين الجماهير، وينتقل اليها بسهولة مذهبة؛ الثقة المنيرة الثابتة بالنفس، والتي تبرغ عنها النبوة؛ مهارة خطابية وجدلية كبيرة؛ طموح كبير؛ ايضاً، حاجة لا تقاوم بالتواجد دوماً

في الطبيعة، واخيراً ليس آخراً، قدرة في التلاؤم لا حدود لها تقريباً.

وما من تيار سياسي أو اجتماعي جديد واحد، برز في الخمس وسبعين سنة الأخيرة، إلا ولعب اليهود فيه دوراً قيادياً. حتى "يمكن القول، انهم أوجدوا وحرضوا لقيام أكثر من حركة واحدة. يهود هم هؤلاء الذين ينظمون الثورة، ويهود، أيضاً، هم أولئك الذين ينظمون مقاومة الدولة والمجتمع ضد القوى المدمرة والمخرّبة. كما كانوا وراء بروز الفكر الاشتراكي، ومبدأ المحافظين اللذين تشرّبوا الروح العبرية.

فإننا نرى، مثلاً، في ألمانيا، ماركس ولاسكالي يُضربان نار الثورة، من جهة، ونرى، من جهة ثانية، اليهودي يوليوس شتال Julius Stahl يُنصب نفسه صاحب نظرية التراجع الاقتصادي، بعد العام ١٨٤٨.

وفي إنكلترا، فإن اليهودي ديسرائيلي Disraeli، مؤسس عصبة الـ Primrose، هو الذي أعاد بناء حزب المحافظين.

كما نرى إسرائيليين على رأس حركات تقوم بغرب الجنسيات التي يحركها محقق ميث متبادل، الواحدة ضد الأخرى. ففي البندقية Venice نرى Daniel Manin يرفع لواء النظام من أجل الحرية ضد النمساويين. وإبان الحرب الفرنسية الألمانية، فإن Gambetta هو الذي نظم الدفاع الوطني.

وفي إنكلترا، فديسرائيلي هو أيضاً من ابتدع شعار "كألية الامبراطورية البريطانية". وفي ألمانيا، فإن اليهود الثلاثة: ادوارد سيمسون وبامبرغر Bamberger ولاسيال، هم الذين صنعوا من انفسهم أبطال هذا التحرر المصبوغ بالوطنية، والذي ساهم، الى حد كبير، ببناء الامبراطورية.

وفي النمسا، شكّل اليهود طبقة كل الأحزاب الشوفينية الوطنية تقريباً. ومن بين التشيكيين، وانصار اتحاد الاجناس الألمانية، ومن بين الايطاليين والوطنيين البولونيين، فإن اليهود قد شكّلوا العناصر الأكثر تحمساً والأكثر اندفاعاً في مفالات أفكارهم ومشاعرهم.

وعلى كل، يمكن القول، أن ليس من حركة إلا ويستطيع اليهود تنظيمها.

كما نجد متحدثين من أصل اسرائيلي حتى، بين زعماء حركة مناهضة السامية.

ان حصة اليهود في الحركة العمالية الالمانية هي كبيرة جداً، ولقد تكلّمنا، فيما سبق، عن فرديناند لاسال وكارل ماركس اللذين كانا المؤسسين الكبيرين لهذه الحركة. ويمكن اضافة اسم اليهودي Moses Hess المعاصر لها. نذكر ايضاً، جوهان جاكوبي، أول رجل سياسي ليبرالي التحق بالديموقراطية الاشتراكية، واليهودي المثالي Karl Hochberg الذي أسس أول مجلة اشتراكية المنيّة، وهو ابن احد التجار الاغنياء في Francfort - sur - le - Main (١٨٨٥). كما كان Paul Singer يهودياً هو الآخر، وهو الرئيس الذي اعتاد رئاسة المؤتمرات الاشتراكية.

ومن أصل الواحد وثمانين نائباً، المنتخبين من الرايخستاغ الالمانى في الانتخابات ما قبل الاخيرة، كان هناك تسعة نواب يهود (وهو عدد مرتفع جداً بالنسبة لتجموع السكان اليهود في المانيا، وبالنسبة لتجموع عدد العمال اليهود، او مجموع عدد اعضاء الحزب ذوي الاصل اليهودي). وقد كان اربعة من اصل النواب التسعة، ييشرون بالدبانة الموسوية (موسى). (وهم Haase و Wurm و Singl).

ونذكر على سبيل المثال: Jacob Stern و Adolf Braun و Edouard Bernateln كمنظرين. وكصحفين، نذكر: Gradnauer و Eloner و Joseph Bloch. وكمنظمين في مختلف فروع النشاطات الاشتراكية، هناك: Ludwig Frank و Leo Arous وقد قدم كل هؤلاء اليهود للحزب، خدمات جلى لا توصف. ونجد ايضاً، وعلى رأس كل الفروع المحلية تقريباً، رجالا يهود.

ان دور اليهود في الحركة الاشتراكية النمساوية، هو دور قيادي بارز، لن نذكر هنا سوى: Fritz Austerlitz و Ellen Bogen و Victor Adler.

وكذلك الامر في امريكا، وفي هولندا وفي ايطاليا.

اما في ما يخص فرنسا، فان دور اليهود في هذه الحركة الاشتراكية، هو دور مختصر جداً. (Edgar Mithaud والمساهمين في ال Humanité (١٩٠١).

ولكن، فقد كان لليهود في هذا البلد حصة كبيرة في تأسيس الحزب. لذلك، فإن المؤتمر التأسيسي الأول للحزب الممالي (١٨٧٩)، لم يتمكن من الانعقاد لولا السخاء المالي الذي قدّمه اليهودي Isaac - Adolphe Crémleuse، الذي كان حاكماً للجزائر إبان عهد Gambetta.

وفي العديد من البلدان، كرومانيا وروسيا وبولونيا، وخصوصاً في البلدين الآخرين، كانت قيادة الأحزاب المالئة كلها تقريباً، بين أيدي اليهود. وهذا واقع يدهش كل أولئك الذين يترددون لحضور المؤتمرات الاشتراكية الدولية.

ومن جهة ثانية، فإن روسيا تقدّم للأحزاب الاشتراكية في البلدان الأخرى، عدداً لا بأس به، من الزعماء ذوي الأصل اليهودي: Rosa Luxembourg والدكتور Israel Helphand، اللذين حارباً في ألمانيا، و Ch. Rappoport في فرنسا، و Angelica Balabanoff في إيطاليا، والأخوة Reichesberg وسويسرا، و M. Beer و Th. Rothstein في إنكلترا.

ومن الضروري أيضاً، ذكر الواقعة التالية، وهي أن عدداً من الزعماء الاشتراكيين غير اليهود، قد تزوجوا من يهوديات مثقفات: وهم على سبيل المثال: Turati و Kropotkin و Plechanoff. وللانتهاء من هذا التعداد الطويل، نذكر أيضاً بأن معظم زعماء الفوضوية الألمانية الأكثر شهرة، هم من اليهود: Gustave Landaver و Siegfried Nacht و Pierre Ramus...

ولا تكفي سهولة تلاؤم اليهود وحبوبتهم ونشاطهم الثقافي، الذي تكلمنا عنه آنفاً، لتفسير وجودهم، وخاصة لتفسير قوتهم الكمية والتنوع داخل الحزب الممالي.

وليس المقصود هنا ما سنحاول تسميته «يهودية» الحزب الاشتراكي أي احتكار الحزب من قبل الرفاق اليهود، إذ أنهم يملكون الوسائل المالية الوفيرة.

إما في ما يخص ألمانيا وبلاد أوروبا الشرقية، فإن الظاهرة التي شغلنا الآن تُفسّر بالموقع الخاص الذي كان يحتله اليهود فيها مضي، ولا يزالون يحتلون حتى اليوم.

ولم يأتِ محرّره وانماقهم القانوني بعد ، لانعام تحرّره الاجتماعي والمعنوي في هذه البلاد . ولم ينجح الشعب الالماني بعد ، اذا ما اخذناه بمجمله ، في تجاوز الحقد الذي يكتنه له اليهودي ، او على الاقل في تجاوزه شعور الازدراء الذي يحسن به تجاهه . ويرى الاسرائيلي نفسه مقيداً في مسيرته ، مستبعداً عن شغل الوظائف الادارية والقانونية ، وحتى عن شغل منصب ضابط في الجيش . كما يستمر الجنس العبري في تغذية شعوره الثوري القديم ، وشعوره القانوني ، ضد المظالم التي تتلاحق لتزيد من حالته المذرية . ونظراً للأساس المثالي الذي يبقى ثابتاً لدى هذا الجنس البشري المحكوم بالالام الاكثر قساوة ، فان هذا الشعور يُحرّجهم ، بسهولة ، ويتحوّل الى رغبة ثورية في اصلاح كوني عظيم .

ويؤلف اليهود ، حتى الاغنياء منهم ، ولي اوروبا الشرقية على الاقل ، فئة من الاشخاص المحرومين من اية منافع اجتماعية يؤمنها النظام السياسي ، الاقتصادي والايديولوجي السائد ، لقسم مقابل من السكان المسيحيين . كما يرتاب منهم المجتمع ، بالمعنى الضيق للكلمة ، ويتقاضى اياهم الرأي العام . وغالباً ما تضاف الى الاحساس الذي خلقت له مساواة تعسفية في المعاملة كهذه ، لدفعهم في احضان الحزب الممالي ، نزعة عالمية اوصلتها مصائرهم التاريخية الى درجة عالية جداً . وتسمح لهم هذه النزعة ، وهم يحافظون على صفاتهم القومية ، بالعبور ، قفزة واحدة ، فوق الحاجز الذي يعمل الاتهام البورجوازي لهم ، بانهم « دون وطن » ، على نصبه امام المد المتصاعد للثورة .

ولكل هذه الاسباب ، فان الطريق الذي يقود اليهود الى الاشتراكية هو طريق اقصر ، دائماً تقريباً ، من الطريق الذي يتوجب على المثقف « الأري » سلوكه . إلا ان هذا الواقع ، لا يقلل في شيء ، من عرفان الجميل المترجب على الحزب الاشتراكي تجاه المثقفين من الجنس اليهودي . اقول المثقفين فقط ، لأن بورجوازية التجارة والصناعة الكبيرة ، والبورجوازية الصغيرة ، ترفضان بطريقة مطلقة ، الالتحاق بالحزب ، على الرغم من انها تصوّتان ، غالباً ، لصالح الاشتراكيين .

ان مصلحة الطبقة تفوز على مصلحة الجنس لدى البورجوازي . وهذا ما هو

مختلف تماماً لدى اليهود المتقنين، فإذا نظمنا احصاء حول ذلك، فالتنا نرى، بالتأكد، انهم يشاركون في الحزب الاشتراكي بنسبة تتراوح ما بين ٢/٣ الى ٣/٣. وإذا ما تمكن هذا الحزب من الصمود حتى الآن، ودون أدنى تردد او خوف من محاولات اللاسامية التي تمكنت من التسرب حتى داخل صفوفه، فإن ذلك لا يعود فقط لتفوره النظري ومعارضته لكل ادعاء او مطلب « قومي »، ولكل زعم باطل بحق الجنس. لقد استمر هكذا، لانه كان دائماً مدركاً تماماً لواجباته في عرفان الجميل، تجاه اليهود المتقنين.

لقد ظهرت « الاشتراكية اللاسامية » حوالي العام ١٨٧٠. وكان Eugen Dühring من افتتح اول حلة وعلن الجهاد لصالح اشتراكية « الثانية ». ولقد وضع هذه الاشتراكية بمواجهة اشتراكية ماركس « اليهودية » وانصاره، وهي اشتراكية، كانت ستجر، حسب رأيه، اخضاع الشعب التام للدولة، على حساب القياديين اليهود ورفاقهم للمساعدين.

وحوالي العام ١٨٧٥، جمع Dühring حوله مجموعة صغيرة من الاشتراكيين البرلينيين، من بينهم Johann Most والاسرائيلي Edouard Bernstein. إلا أن نفوذ هذه المجموعة، لم يصمد أمام الامتحان الكبير في المناقشة التي قادها زعيمه ضد Engels، الاخ الروحي « لليهودي ماركس ». فكان ان تراجع تصاعد Dühring وتزعمه للجهاهير الاشتراكية، في الحدود نفسها التي شهدت تصاعد لاسامته. وكان أن توفي حوالي العام ١٨٧٨ من اجل الديمقراطية الاشتراكية.

وهناك محاولة أخرى لجبر الاشتراكية الى التيار المناهض للسامية، قام بها في العام ١٨٩٤، Richard Calwer، وهو اشتراكي ذي نزعات قومية قوية. وكان يومها، محرراً صحفياً. لقد كان يقول: « هناك نصف دزينة من المقالات التي لا قيمة لها لكاتب يهودي جيد. ولكن هناك رزانة فائقة، طلاقة لا تنضب، قلم ممل وقلق، ونفاذ اي فهم للاشتراكية ».

إلا أن حلة Calwer لم تحظ بأي نجاح كالحملة التي قادها Dühring، وذلك لأن الحزب الاشتراكي كان قد دان في إحدى المرات، وخلال انعقاد مؤتمر Cologne في تشرين الاول ١٨٩٣، كل ارادات القومية واللاسامية الضعيفة التي

ابصرت النور في داخله .

ولنضف أيضاً ، بعض الملاحظات حول ظاهرة الانضمام الغفير الى الحزب من قبل بعض ممثلي مبدأ حكم الاثرياء .

وهناك عدد من الاشخاص الطيبين والمحسنين المتمتعين بكل ما هم بحاجة اليه بصورة وافرة ، يُظهرون احياناً حاجتهم للقيام بنشر الدعوة ، بطريقة تتلائم وموقعهم الخاص . فهم يرغبون مثلاً بعمل قريبهم يشارك بالرفاهية التي يتمتعون بها هم انفسهم . هؤلاء الاشخاص هم الاغنياء الذين يحبون خير الناس . وغالباً ما يصدر سلوكهم عن نوع من العاطفة الرقيقة او الاحساس : فهم لا يستطيعون تحمل آلام الغير ، وذلك لان رؤية الالوجاع تؤلم اعصابهم الخاصة ، وتصدم شعورهم المرهف ، أكثر من كونهم يُظهرون شفقة حقيقية لمن يتألم ويتوجع .

ومن بين الاغنياء ايضاً ، هناك من يعتقد ان من واجبه الانسحاب الى الحزب الاشتراكي ، اذ يعتبره وكأنه ملجأ سخط الفقراء وغضبهم .

وغالباً ما يميل الرجل الذي ايضاً ، للتقرب من الاشتراكية لانه يشعر ، كما كان قد اظهر برنارد شو - فيما مضى ، بالصعوبة الكبرى في ان يوفر لنفسه ، من الان فصاعداً ، ملذات جديدة . فيبدأ اولاً ، امام العالم البورجوازي ، باظهار قرف يمكن ان ينتهي به بخنق كل ادراك طبقي لديه ، او على الاقل بالقائه الفطرة التي كانت قد دفعته ، حتى الان ، لمحاربة البروليتاريا باسم المحافظة على نفسه .

يمكن ارجاع هؤلاء الرجال بدورهم الى نموذجين : الرسول ذو النفس المحبة ، الذي يفهم كل شيء ويؤد ، بقبلة مثالية ، ضم الإنسانية باجمعها اليه ، و « المؤمن » المتدفع ، الصارم وغير المتساهل .

ولكن هناك عناصر اخرى أقل ليونة وتماطفاً بين الاشتراكيين ذوي الاصل البورجوازي .

هناك ، قبل كل شيء ، كتبة اولئك الغاضبين « بالبدأ » ، واهو الاعصاب ، وصعاب المراس .

وعديدون ، هم ايضاً اولئك الذين يمود اشمزازهم وغضبهم لأسباب

شخصية : الدجالون المشعوذون، وذوو الطمرح.

وكثيرون هم الذي يمتنون سلطة الدولة، عن وعي أو عن غير وعي، لأنها غير مقبولة. هذي هي القضية القديمة للشعوب والكرام الذي لم تنضج ثماره بعد. وهذا ما يدفعهم: انها الغيرة، انه التعطش غير المرتوي للسلطة.

وهناك أيضاً نماذج اخرى تقترب من تلك التي أثبتنا على ذكرها أنفأ.

المتحرفون اولاً: يجد هؤلاء، أمر أولئك الذين هم تحت، ويودون بلوغ أعلى القمم، أمراً طبيعياً. إلا ان هناك من هم فوق، ويظهرون حاجة ملحة للنزول الى تحت، اناس يجدون انفسهم في ضائقة، وهم على اعلى القمم، ويعتقدون ان من هم تحت يتمتعون بحرية اكبر، وبأفاق فسيحة شاسعة. انهم يفتشون عن «الخلاص»، عن «الشعب» الذي صنعوا له، في مخيلاتهم، صورة مثالية. انهم مثاليون قاربوا الجنون.

وننصف ايضاً الى كل هذه الفئات، فئة المخدوعين والخائبيين الذين لم ينجحوا في ان يجدوا اليهم انظار البورجوازية، وان يفرضوا انفسهم بفعل تفوقهم الثقافي المزعوم. فيندفعون، بصخب، الى اعناق البروليتاريا، وفي غالب الاحيان، على أمل النجاح، بسهولة اكبر، بالظهور ولعب دور معين، وذلك نظراً للقليل من الثقافة التي لهم زيادة عن الطبقات الهائلة الاخرى.

ويمارس الحزب الاشتراكي على الازدهار اجتذاباً قوياً، بمقدار ما هو قوي، واسع الانتشار، ويتمتع بسلطة كبيرة لدى الجماهير الشعبية.

ففي البلدان حيث الروح الجماعية اكثر تقدماً وانتشاراً، كالمانيا مثلاً، يحكم على الاحزاب الصغيرة بوجود عابر، لا ديمومة له. لذا يعتقد العديد من البورجوازيين، أنهم «وجدوا» في الحزب الاشتراكي الكبير، ما لم يجدوه في الاحزاب البورجوازية: حقلاً واسعاً من النشاط السياسي. (Bebel) وفي هذه الحالة، وخاصة عندما ينتقل الحزب من المعارضة الى المشاركة في الحكم، فاننا نرى تضاعف عدد أولئك الذين لا يبرون في الحزب، سوى السبيل لاشباع غرائزهم الدنيا، وغرورهم، وعدد أولئك الذين لا يبرون في نجاحات الحزب،

سوى السيل لظهار شخصيتهم الخاصة.

ان انتصار هؤلاء الاشخاص امر مخيف، كما تخيف الحيوانات المتصورة جوعا عند فك قيدها، على حد تعبير Areoles. ولكن، وعند النظر اليهم عن كثب، فإننا ندرك اننا على مقربة من كتلة من حيوانات لا فقرية، متلهفة لفريسة ما، انما ليست مؤذية في الصمم.

وينطبق هذا على الوقائع الصغيرة، كما على الكبيرة. ففي كل مرة يؤسس فيها الحزب العالي تعاونية او مصرفاً شعبياً يوفر للمتقنين خبزهم اليومي وموقعاً مؤقتاً، نرى تسابق مجموعة من الافراد المجتردين من كل شعور اشتراكي، لا يسمعون الا وراء وظيفة جيدة. فالنجاح، في الديمقراطية، كما في كل مكان وفي كل زمان، يعني موت المثالية.

الفصل الثالث

التحولات الاجتماعية الناتجة عن التنظيم

ان الطبقات الاجتماعية الجديدة التي خلقها التنظيم في مداره، تطبع بمجموع الحركة العمالية بتعديلات، تم جمعها تحت تسمية شاملة هي، سلوك الاحزاب العمالية طريق الترفه (البرجزة). ان هذا الترفه ناجم عن ثلاث ظواهر مختلفة.

اولا: انضمام البورجوازيين الصغار الى الاحزاب البروليتارية.

يبحث الحزب عن دعم البورجوازية الصغيرة لاسباب انتخابية في غالبيتها. فينتج عن ذلك سلسلة من النتائج التي تطبع الحزب بتعديلات عميقة جوهرية، الى حد ما، ويصبح حزب العمال، في بادىء الامر، حزب «الشعب». وهكذا، لا يعد يوجه نداءاته، بعد الان، الى الاخوة العمال فقط، وانما يتوجه الى كل الشعب المنتجع، الى «كل الشعب العامل»، اذ تنطبق هذه التعابير على كل الطبقات وكل فئات المجتمع، ما عدا اولئك العاملين عن العمل والذين يعيشون من اذخاراتهم.

لقد شدد اصدقائه واعداء الحزب الاشتراكي، وأقروا تكراراً، على واقع ان أقسام البورجوازية الصغيرة تنزع، اكثر فاكثر، نحو ود القمم العالي الى الورا. وخلال النضالات التي شتها الحزب الاشتراكي ضد «الشباب»، في بداية العام ١٨٩٠، أشار التأييد الذي نتج عن تحول كامل للقوات

الاشتراكية خلال هذه السنوات الاخيرة، عاصفة حقيقية .

هل كان هذا التأييد تمييزاً عن الحقيقة، او كان، كما ادعى البعض، اغترافاً باطلاً ؟ فالسؤال معقد جداً لكي نستطيع تقسيمه الى عدة عبارات ذات فعالية .

لقد وجدنا، بشكل عام، وحيثما كان ممكناً تحليل تركيبة الحزب الاشتراكي، سواء على صعيد الطبقات او على صعيد مهات أتباعه، ان العناصر البورجوازية والبورجوازيين الصغار ممثلون فيه، بنسبة ضئيلة، على الرغم من كونها ملموسة .

ولقد اظهرت الإحصاءات الرسمية التي قام بها الحزب الاشتراكي الايطالي الارقام التالية :

عمال الصناعة ٤٢,٣٧٪ / عمال زراعيون ١٤,٩٩٪ / قرويون ٦,١٪
حرفيون ١٤,٩٢٪ / مستخدمون ٣,٣٪ / ملاكون ومتفرقات ٤,٨٩٪
طلاب ومثلو المهن الحرة ٣,٨٪

اما ما هو ديموقراطية اشتراكية المانية، فلقد أظهرنا في مكان اخر، ان نسبة البروليتاريا في كل اقسامها، دون استثناء، هي اكثر ارتفاعاً، وتتراوح بين ٧٧,٤٪ و ٩٤,٧٪ ويمكن القول مع Blank، انه اذا كان هناك من حزب يسوده العنصر البروليتاري، فان هذا الحزب هو الحزب الاشتراكي الالمانى، وينطبق هذا على جمهور المنتسبين اليه، اكثر من انطباقه على جمهوره الانتخابي .

الا ان نسبة تحيانه الاجتماعي هي التي تجعله قوياً، الى هذه الدرجة، على الصعيد الانتخابي، وتعطيه تماسكاً تفتقده بقية الاحزاب الاخرى، اليسارية منها خاصة .

لقد كانت الليبرالية الالمانية دائماً، او على الاقل، ايمان عهد توحيد الامبراطورية، مزيجاً من الطبقات، متعبد الانوار، تجمعهم الايديولوجيات المشتركة اكثر مما تجمعهم الضروريات الاقتصادية المشتركة .

ونستقي الاشتراكية، بالعكس، مواردها الانسانية من الطبقة الوحيدة التي ترضى بالظروف الاقتصادية، والاجتماعية، والمعدية الضرورية لاعطاء الصراع القائم ضد العالم القديم أكبر قوة ممكنة. ساذج هو من يشغل رأسه لمعرفة ما اذا كانت البروليتاريا، طبقة العمال الأجورين (العمالين بأجر)، هي التي تشكل المصدر الذي يتغذى منه الحزب الاشتراكي الألماني. بالإضافة الى ان هذا المصدر يصعب استنفاده.

من الواجب اذن، تقبل تأكيد اولئك الذين يكشفون النقاب، ويفضحون «تروقه» الحزب، كالاشرائيين الفوضويين، والمتطرفين البورجوازيين، وذلك لاننا نتحقق من وجود عدد معين من صغار الصناعيين وصغار التجار داخل صفوفه.

ان تروقه الحزب هو امر أكيد، لكنه يعود لاسباب مختلفة. يكمن السبب الرئيسي منها في التحول الذي يصيب زعماءه، ذوي الاصل العالي، ويصيب معهم ايضا الجو الذي يدور فيه النشاط السياسي للحزب.

ثانياً: التنظيم العالي كمنشئ لفئات بورجوازية - صغيرة جديدة.

يحدث صراع الطبقات تعديلات وتغيرات اجتماعية في الحزب نفسه المطلوب منه تنظيم هذا الصراع وتوجيهه. فيفضل هذا الصراع، تجد بعض مجموعات الافراد نفسها، وهي قليلة العدد وذات اهمية نوعية كبيرة، منزوعة من اعماق الطبقة البروليتارية ومرتفعة الى مقام البورجوازية.

وحيث يشمل حزب العمل عدداً كبيراً من البورجوازيين، كما في ايطاليا مثلاً، فان المثقفين يشغلون معظم المناصب التي يتمكن هذا الحزب من توفيرها للعمال.

اما في انكلترا، وخصوصاً في ألمانيا، فان هذه الحالة تختلف، لان طلب موظفين اشترائيين، يقابله عرض كبير جداً من قبل العمال انفسهم. لذلك، فان قيادة الحزب في هذه البلدان محصورة، بشكل رئيسي، بين ايدي العمال. ويصبح الدخول الى تراتبيه ادارته ايضاً، موضوع طموح وتطلعات

البروليتاري.

ان زعماء الحزب والتقابات البروليتاريين هم من نتاج الصناعة الثقيلة غير المباشر.

وعند فجر العهد الرأسمالي، نجح بعض العمال، الاكثر ذكاء وطموحا من الآخرين، وبفضل جهد متواصل، في الارتقاء الى مرتبة المتعهدين، مستفيدين في ذلك من ظروف مناسبة. ولكن، في ايامنا الحاضرة، ونظرا لتراكم المشاوير والثروات، والثمن المرتفع للمنتوجات، لا يعد يلاحظ تحول مشابه بناتا، إلا في بعض مناطق الاميركتين (وهذا ما يفسر التوسع الضئيل للحركة الاشتراكية في هذه البلاد).

وفي اوروبا، وحيث لم يعد هناك من ميادين عذراء يمكن استغلالها، اصبح الرجل المعصامي صورة من عصر ما قبل التاريخ؛ فمن الطبيعي ايضا ان يطمح بعض العمال المثيقتين لاجياد تعويض لهم في فردوس احلامهم الضائع.

ان حزبا ضحفا، ومنظما تنظيما رائعا كالحزب الاشتراكي الالمانى، لمو بحاجة لجهاز بشري كبير، لا يقل تنظيما: بحرون، امناء سر، محاسبون، امناء مكينات، وجهور آخر من المستخدمين من كل نوع. ولا يملك الحزب الاشتراكي الالمانى، كما سبق ورأينا، وللاسباب التي ذكرنا، العدد الكافي لتزويد هذه المراكز بالعنصر البشري المطلوب. فهناك فقط عدد صغير جدا من البورجوازيين الهاربين من طبقته. وهذا ما يفسر كون معظم هذه المراكز مشغولة من قبل رجال ينتمون للطبقة المالية، استطاعوا، بفضل قوة نشاطهم ودراسهم، حيازة ثقة رفاقهم.

يمكننا القول اذن، انه توجد غبة عالية تتوصل لممارسة مهات تتعارض مع مهات الحزب الاشتراكي او اهتماماته العادية، بعد اتمام عملية اختيار طيبعية تجري داخل هذا الحزب. وفي سبيل الاستعانة بتمبير لا يقل سهولة، نقول، ان الافراد الذين يؤلفون هذه النخبة يتخلون عن العمل اليدوي

يلتفتوا الى العمل الفكري .

يتضمن هذا التغيير منافع جسيمة للأفراد الذين أصابهم حتى ولو تجاهلنا أولئك الذين يقوم العمل الفكري الثقافي بتقديمهم بنفسه .

فالعامل الذي يصبح موظفا في الحزب الاشتراكي ، لا يعد عاملا مأجورا ، خاصا لتبعية شخصية صارمة ، كما لا يعد يشكل مرتزقا بالنسبة للمتعهد ، او لمثله في المصنع : انه رجل حر ، مكلف بالقيام بعمل فكري لحساب مشروع هام .

إلا ان هناك أكثر من ذلك : انه مرتبط بهذا المشروع ، ليس فقط بدافع مصالحه المادية الاقوى ، وانما ايضا بدافع الروابط الثينة بفكرة الصراع والتضامن معه .

ليس المستخدم ، بنظر الحزب ، مجرد رجل مأجور فقط ، وانما هو بالاحرى ، عضو شريك بالأرباح ، علما بأن ليس المقصود هنا الارباح المادية ، بل للمنافع ذات الطابع المثالي للبحث .

ان طريقة الحياة الخاصة بموظفي الحزب ليست مُرضية ، كما كنا نحاول ان نعتقد . وفي هذا الخصوص ، لا يمكننا هنا الا تكرار ما سبق وقلناه في مكان اخر : يتوجب على المستخدمين ان يقدموا كمية هائلة من العمل تهدم صحتهم ، قبل الاوان ، مقابل الخبز اليومي الذي يوفره لهم الحزب ، والذي لا يتجاوز ، الا نادراً ، الحد المطلوب ليس الا .

ومها يكن ، فان العامل القديم ، له ما يعيش به بكرامة وبيجوحة نسبية . فالعامل الذي يعمل ، بصفة مستخدم ، براتب محدود ، يعيش وجوداً يؤمن له طمأنينة داخلية اكثر مما يؤمنه له وجوده كمامل مأجور . فاذا ما حدث ان سجن ، يتكفل الحزب عندئذ ، بتأمين حاجاته وحاجات من يقوم هو بإعالتهم . وبقدر ما يُضطهد ، بقدر ما يكون له حظ في الحصول على تقدم اسرع ، في ميدان عمله كموظف اشتراكي ، مع كل ما لهذا التقدم من فائدة .

ان عدد الزعماء الذين يتقاضون تعويضات مقابل خدماتهم ، يتزايد بسرعة

كبيرة، كما في النقابات كذلك في مختلف الأحزاب الاشتراكية.

لقد كان المستخدمون المعتمدين في العام ١٨٤٠، من قبل نقابة عمال الحديد الانكليزية، زعماء الحركة العمالية الاوربية الاوائل. ولقد حظوا فيها بمراكز ثابتة، وبراتب شهري. اما في أيامنا هذه، فان التنظيمات النقابية في المملكة المتحدة، تعد أكثر من ألف مستخدم.

لقد كان عدد موظفي النقابات العمالية في ألمانيا، في العام ١٨٩٨، ١٠٤ موظفين. وفي العام ١٩٠٤ كان العدد ٦٧٧.

ولا يعود هذا التزايد السريع لاتساع رقعة انتشار النقابات فقط، فهو ناتج، وبصورة خاصة، عن التقدم والازدهار الحاصلين في تنظيم المؤسسات. وليس للتبجح القول، ان ما من جمعية عامة تُعقد بدعوة من المجالس المركزية لمختلف الاتحادات، إلا وتناقش خلالها وتطرح مسألة استخدام موظفين جدد، وهو اجراء اصبح ضروريا بفعل التمايز المتزايد، أكثر فأكثر، للوظائف النقابية.

ويتضح هذا الاتجاه نفسه ايضا، منذ بضعة سنوات، في الديمقراطية الاشتراكية الألمانية. فاستنادا لتقرير قيادة الحزب المائد لعام ١٩٠٩، تستخدم كل تنظيمات المقاطعات اليوم، باستثناء بعضها الاقل اهمية، ابناء سر ينقاضون تعويضات، لقاء قيامهم بهذه المهمة. ولقد ازداد عدد هؤلاء في فترة سنة واحدة، من ٤١ الى ٦٢ امينا للسر.

كما يخضع العامل ايضا لتحول آخر، وهو يتخلى عن عمله اليديوي ليقوم بالعمل الفكري. بالاضافة الى تأثير هذا التحول على كامل وجوده. فيخرج، رويدا رويدا، من البروليتاريا ليرتقي الى رتبة بورجوازي صغير.

لم يكن المقصود في البدء، كما رأينا، سوى تغيير موقعه المهني والاقتصادي: فالرواتب المدفوعة من قبل الحزب، ومهما كانت متواضعة، ليست اقل من متوسط اجر العامل، قبل دخوله الديمقراطية الاشتراكية، وهي تناسب مع طريقة حياة بورجوازية صغيرة.

لقد واجه Wilhelm Leibknecht مجموعة الزعماء، رفاقه في الحزب، بالتأنيب الثاني، خلال المؤتمر الاشتراكي الألماني: «يا مَنْ اجتمعتم ههنا، انتم، من وجهة النظر المالية، ارستقراطيون بين العمال. وما ترمونه بمثل مال قارون Grésus، بالنسبة للسكان العاملين، او بالنسبة لعمال الحياة في سيليزيا».

ان سلك الوظيفة، ودون ان يتمكن المرء من ان يصبح معه رأساليا، بالمعنى الصحيح للكلمة، يرفع العامل الى ما فوق طبقة الاصلية. ومن هنا التسمية الدقيقة لعلم الاجتماع: (الوجود العمالي ذات المستوى المرتفع). لذلك، لم يتردد كارل ماركس نفسه، في تقسيم العمال الى فئتين: (عمال الطبقة العليا، وعمال مثقفون) والعمال، بكل معنى الكلمة، وعمال حقيقيون».

يصبح عامل الامس، عاملا سابقا وبورجوازيا صغيرا، او حتى بورجوازيا، تبعا للحالات والظروف، وذلك كما سيظهرونه لنا بالتفصيل فيما بعد.

ولكن، بالإضافة الى هذا التغيير، وعلى الرغم من اتصال العامل المتكرر بالجاهلير العمالية المريضة، فانه يخضع ايضا لتحويل نفسي عميق. فالعامل الذي يحتل، من الآن فصاعداً، مستوى اجتماعياً اكثر ارتفاعاً، لن يكون له مطلقاً قوة مقاومة اغراءات الوسط الجديد الذي وجد نفسه متغولاً اليه. ولن تكفيه تربيته السياسية والاجتماعية دائماً، للاعتماد عن تأثيرات حالته الجديدة.

ولم يكن هناك الا August Bebel الذي لفت بنفسه، لعدة مرات متتالية، انتظار الحزب الى المخاطر التي سيجرّها الزعماء ضد وحدة فكرته وصفاء طبقة. لقد كان يقول: «ان مستخذي الحزب البروليتاريين، هم اشخاص وصلوا الى نقطة، يرون فيها، ان مركزهم الشخصي قد انشئ، بطريقة نهائية تقريباً».

ان هذه الواقعة المدروسة عن كسب، نكتسب اهمية اجتماعية كبيرة، لم نمنحها حتى الان كل الاهتمام الذي تستحق. فالحركة العمالية تحفظ للطبقة العاملة الالمانية اهمية مشابهة لاهمية الكنيسة الكاثوليكية، بالنسبة لبعض

أقسام البورجوازية الصغيرة، وللسكان الريف. وتستخدم هذه وتلك، كرافعة للارتقاء الاجتماعي، بالنسبة لعناصر هذه الطبقات المحترمة الأكثر ذكاء.

وغالباً ما ينجح ابن القروي، في الكنيسة، بتسلق بعض درجات السلم الاجتماعي الذي بقيت معادلاته، في بقية المهن الحرة، حكراً على اناس ذوي القاب، او على الأقل، حكراً على انصار الارستقراطية المالية. فلا يتواجد ابداً أبناء المزارعين بين ضباط القيادة في الجيش، ولا بين الحكام، وإنما يتواجدون، بكثرة، بين الاساقفة. فالكرسي الرسولي يشغله اليوم احد أبناء القرويين ان ما تقدمه الكنيسة للقرويين ولصغار البورجوازيين، اي سيلا سهلاً نسبياً للارتقاء الاجتماعي، يقدمه ايضا الحزب الاشتراكي للعمال المثقفين.

فالحزب الاشتراكي، وبمقدار ما هو مصدر التحولات الاجتماعية، يقدم تقارباً من مؤسسة اخرى ايضاً، تمكن مقارنته بها في ظل العديد من الصلات: هي مؤسسة التنظيم العسكري البروسي. فعندما يدخل ابن احدي العائلات البورجوازية الى صفوف الجيش النظامي، فانه يصبح، هو ايضاً، غريباً عن طبقته الاصلية. واذا نجح في الوصول الى درجة عالية، يمنحه امبراطوره لقباً نبيلاً. وفي مطلق الاحوال، فانه يتخلل عن بورجوازيته، اذا صح التعبير، ويتبنى تصرفات وآراء وسطه الاقطاعي الجديد.

وبالطبع، فان العسكريين لا يقومون الا باتباع النزعة نحو الشرف التي تستميل البورجوازية بأكملها. لذلك نرى عدة مئات من أبناء العائلات البورجوازية الكبيرة، وحتى المتوسطة، يتقدمون، في كل عام، من السلك العسكري، وبرغبة وحيدة، هي ان يرفعوا مقامهم، ويكتسبوا اعتباراً وتقديراً اجتماعياً اكبر. ففي الحزب الاشتراكي، غالباً ما تتم عملية التغير الاجتماعي للفرد، بالضرورة، دون ان تتدخل ارادة الفرد نفسه في ذلك. الا ان النتيجة واحدة.

وهكذا يؤثر الحزب الاشتراكي على بعض فئات الطبقة العمالية عن طريق استخدامه الآلة الرافعة. وبقدر ما تتوسع ما كنيته البروقراطية وتعتقد،

بقدر ما يزداد عدد الذين يرفعهم الى مرتبة اعلى من مرتبتهم الاجتماعية السابقة.

لقد وقع على الحزب الاشتراكي واجب القيام بالمهمة المفروضة، التي تلخص بإبعاد بعض عناصر البروليتاريا الأكثر قدرة والاكثر تمكلا، إذ ان التغيير الاجتماعي والاقتصادي، واستنادا لمفهوم المادية التاريخية، يهتد، وريدا، لتغيير ايدولوجي. كما اننا نرى لدى العديد من العمال السابقين، ترقها يتم بصورة سريعة للغاية.

ومن المؤكد، ان عدد العمال الذين يستمرّون، طيلة حياتهم، متعلّقين بالقضية الاشتراكية، وهم قد بلغوا مقاما اقتصادياً واجتماعياً أكثر ارتفاعاً، لا يزال عددا كبيرا. وفي هذه الحالة فان العامل، على غرار البورجوازي، هو رجل « ايدولوجي »، لان ذهنه لا ترتبط بالمكانة التي يحتلها في المجتمع.

لقد تحول التغيير النفسي الذي نتكلم عنه، الى عمل مستحيل في بعض المرات، لاننا امام ذهنية اشتراكية متاسكة وحازمة، تتناقل وراثيا: فبعد الاب نرى ابنائه وابناء ابنائه يتابعون الصراع في صفوف الحزب المالي، على الرغم من المكانة المرتفعة التي يحتلونها فيها. الا ان المنطق والخبرة يُعلّمانا ان وقائع كهذه، انما هي، بالاحرى، نادرة. ان ما نراه غالبا، هو ان الصلة الوحيدة التي كانت تربط الاب بالطبقة المالية، وبالايمان بالمعقدة السياسية الاجتماعية للاشتراكية، تبدأ بالتفكك لدى الابن، الى حد انه يُفسح في المجال للامبالاة مطلقة ولعداوة صريحة احيانا.

من هنا، للبروليتاريا كما للبورجوازية خوارجها. لذلك، فان العائلات المالية المتواجدة داخل البروليتاريا التي تؤمن لها مكانة رفيعة، على أمل ان تجعل هكذا من الصراع ضد البورجوازية اكثر فاعلية، تنتهي بأن تندمج مع هذه البورجوازية، ابتداء من الرعي الثاني غالبا.

ويتنتج عن ذلك تبادل اجتماعي بين الطبقة التي تمثل رأس المال، وتلك التي تمثل العمل.

الا أننا، بالتأكيد، نحتاج الى القول ان هذه التبديلات الشبيهة بالتموجات التي لا تصيب الا سطح الماء، ليست، بطبيعتها، قادرة على التخفيف، او حتى على حزم الخصومات العميقة الموجودة بين البرجوازية والبروليتاريا. وهي، من جهة اخرى، لا تؤثر الا على الاقليات الوضيعة. وهذه، بالحققة، هي الاكثر تأثيراً، كونها تتألف من زعماء عصامين. وفي ذلك، والحالة هذه، تكمن اهمية التطور السوسيولوجي، موضوع اهتمامنا.

ثالثاً: «حماية ذوي الشأن» بصفقتها منشأة لفئات بورجوازية صغيرة جديدة

لم يكن ترقه بعض فئات المال ناجحاً عن الآلة البروقراطية للحزب، وعن التنظيمات النقابية والتعاونيات الاستهلاكية فقط. فمن اسبابه ايضا، ما تم التوافق على تسميته «مجاية ذوي الشأن».

ففي زمن الشدة والازمات، أيام كانت التنظيمات ما تزال ضعيفة ومضطهدة، كما كانت الحال في ألمانيا عند صدور القانون القاضي بملاحقة الاشتراكيين، وجدّ العديد من البروليتاريين أنفسهم على الارض، إما بسبب وفائهم السلي للحزب او للنقابة، واما بسبب موقفهم الاشتراكي المعلن «والمخرب» ضمنياً.

لم يكن لدى هؤلاء الضحايا، ضحايا اقتصاص ذوي الشأن منهم، سوى وسيلة واحدة، وهي ان يستقلوا، وذلك بدافع حاجتهم لتأمين الخبز اليومي. وهكذا، فقد عملوا على فتح محلات بيعون فيها أي نوع من البضاعة، سواء من الخضار او الورق او السبابة او التبغ... وتحولوا الى بائعين متجولين او اصحاب فنادق ومقاه، كل ذلك في سبيل رفضهم وتخليهم عن المهنة القديمة التي كانوا يشتغلونها.

وغالباً ما كان يدعمهم اخوان طبقتهم القدامى بتضامن عجيب. فقد حلق هؤلاء انفسهم واجب مساعدة رفاقهم السابقين، وهدم تركهم يتخبطون بالفاقة؛ فاصبحوا بذلك من زبائنهم. كما كان يحدث أيضاً، ان ينجح

هؤلاء البورجوازيون الصغار الجدد، في التقرب من الطبقات الوسطى في المجتمع، والدخول في صفوفها.

والى جانب ضحايا حاية ذوي الشأن، اي ضحايا الصراع من اجل تحرير البروليتاريا، يوجد ايضا عدد لا بأس به من العمال الذين يتحولون، من طبقتهم، ليس بدافع الحاجة للمتاجرة، بل بدافع جهم لها، وبرغبتهم في تغيير او تحسين موقعهم.

هكذا، وبنتيجة هذه الحالة، تألف جيش حقيقي من البروليتاريين السابقين، هم اليوم، بورجوازيين صغارا، وتجاراً صغارا، يطمحون جميعا بواجب مساعدة رفاقهم لهم، باسم القانون الادبي الاعلى، عن طريق مشترياتهم. وغالبا ما تتحول طريقة عيش هؤلاء التجار الصغار الى نوع من الطفيلية الاجتاهية، على الرغم من ارادتهم الحسنة، وعلى حساب جهودهم الخاصة، لان الرسائل المتواضعة التي يمتلكونها ترغمهم على تقديم بضاعة سيئة للمستهلكين، اي لعمال التنظيمات، وباسعار باهظة في الوقت نفسه.

اكثر اهمية ايضا، هو الدور الذي يلعبه الرفاق، اصحاب الفنادق، في الاشتراكية الالمانية. لقد كان عليهم ايام القوانين المناهضة للاشتراكيين، ان يتموا مهمة سياسية ذات اهمية كبرى، لا جدال حولها، وما زالوا، حتى اليوم، يمارسون مهام متعددة، لا يمكن الاستغناء عنها تقريبا، ففي فنادقهم تجتمع اللجنة التنفيذية للمحلة، وفيها يلتقي العمال للمناقشة والتداول وقراءة الصحف والمجلات... يمكن القول، بالاجمال، انهم الادوات الضرورية للصراع الاشتراكي المحلي.

إلا انهم يصبحون جرحا حقيقيا في جسم الحزب، في المراكز الكبيرة، بفنادقهم غير الملائمة. يضاف الى ذلك ايضا، ان الصراع الشرس من اجل الوجود، يدفع هؤلاء البورجوازيين الصغار الى ممارسة الضغط الاكثر قوة على التنظيم الاشتراكي. فيُضطر الحزب ان يحسب حساب هذا الضغط، وذلك لانهم يتمتعون بنفوذ محسوس على بقية الرفاق. وفي معظم الحالات، يأتي هذا الضغط مضراً بمصالح البروليتاريا.

لقد أثارت المحاولات التي قامت في ألمانيا، وخصوصاً منذ العام ١٨٩٠، في سبيل تشجيع العمال على هجر هذه الفنادق البالية والعمل في مقام جديدة ذات الصلات الفسيحة، أثارت «معارضة» عنيفة، من قبل اصحاب حانات المشروبات الروحية الاشتراكيين. كما اعترض بائعو الكحول، اعضاء الحزب، وطيلة سنوات عديدة، على بناء بيوت الشعب: لقد كانوا يخافون المنافسة المصرة بمصالحهم الخاصة، التي كان يمكن لهذه البيوت ان تسببها، على الرغم من تعاطفهم النظري مع هذه المؤسسات.

لقد بقيت هذه المعارضة دون نتيجة في معظم الحالات. ولكننا، مازلتنا نعيد، حتى اليوم، مدنا من ٢٠ الى ٣٠ ألف نسمة، بشكل تواجـد فندق فيها، السبب الوحيد الذي منع، حتى الآن، التنظيم العمالي المحلي من بناء «بيت الشعب»، هذا على الرغم من كون هذا الفندق ملكاً خاصاً بأحد اعضاء الحزب.

وتبدو حانات المشروبات الروحية الاشتراكية، اذا صح التعبير، وكأنها مصيبة حقيقية بالنسبة للحزب، ولسبب اخر ايضاً: فهي تضع حاجزاً قوياً بوجه الحركة المناهضة للكحول، هذه الحركة التي انتشرت خلال هذه السنوات الاخيرة، انتشاراً واسعاً، وتمثلت بتأسيس مجتمعات تهذب النفس وتطهفها.

ليس سرا بالنسبة لاحد، انه في الدوائر الاشتراكية، وقبل انعقاد مؤتمر ايانا Iéna في العام ١٩٠٧ بكثير، كان الحزب قد أعلن صراحة موقفه ضد المشروبات الكحولية، وكان طبق، فيما بعد، قرارات هذا المؤتمر بحزم وقوة، لو ان قيادتيه لم يتمسكوا بالخوف من الحاق الضرر بمصالح فئة نافذة من صغار التجار المنتسبين الى الحزب، من جراء الاجراءات المتخذة، وحتى من الحملة المعادية لانتشار المشروبات الكحولية.

ومن الطبيعي، استحالة تحديد عدد الافراد الذين اصبحوا «بورجوازيين صغار» مستقلين، على اثر المعارك، التي خاضتها الطبقة العمالية، ودعمتها

العقوبات السياسية المستعملة من قبل اصحاب الشأن والنفوذ. لذلك، فإن عددهم لن يكون الا تقريبياً. وحدهم بالمو السجائر والسماتون يفتنون من كل عملية استقصاء. اما المعطيات الوحيدة الاكيدة، الى حد ما، والتي نمتلكها، هي ما يتعلق باصحاب الفنادق.

ففي العام ١٨٩٢ كانوا يتلون ٤ من اصل ٣٥ عضوا في القسم البرلماني الاشتراكي، اي ١١,٤٪ وفي العام ١٩٠٣، ٥ من اصل ٥٨ عضوا، أي ٨,٦٪، وفي العام ١٩٠٦، ٦ من اصل ٨٤ عضوا، اي نسبة ٧,٤٪. وكذلك، فإن عدد اصحاب الفنادق يتوازي في الاقسام الاشتراكية المحلية لمختلف المدن.

في Leipzig حوالي ٣٠ صاحب فندق في العام ١٨٨٧. في العام ١٩٠٠، كانت المراكز الاشتراكية في Leipzig Compagne تملك ٨٤ ممالك مطعم وحانة من اصل ٤٨٥٥ منتسباً، اي ما يعادل ١,٧٪ وفي العام ١٩٠٥، نجد في Leipzig - Ville ٦٣ صاحب فندق ومطعم من اصل ١٦٨١ منتسباً، اي ٣,٤٪

وفي العام ١٩٠٦، كانت ميونيخ Munich تملك ٣٦٩ مطعم وفندق من اصل ٦٧٠٤ منتسبين، أي ٥,٥٪ هذا عدا بالمي الخمر والحليب والسجائر والاجبان. وفي Francfort - sur - la - Main، كان هناك ما يزيد عن ١٢ بائعا لليرة بالمرتق، و٢٥ صاحب مطعم وفندق من اصل ٢٦٢٠ عضوا، أي ١٪

تُظهر هذه الارقام، ان هناك فندقاً لكل ٢٠ رافيقاً في بعض المدن، وبما ان الفندق الاشتراكي يعتمد تقريباً فقط، على الزبائن الرقاق، فإنه ينتج عن ذلك، ان على هؤلاء العشرين رافيقاً واجب تقديم كل المصادر المالية لهذا الفندق - المشروع.

ان افضل برهان على القوة العددية والاهمية الكبيرة لهذه الفئة من اعضاء الحزب، يكمن في انها أسست في برلين جمعية نافذة دُعيت: «جمعية اصحاب

الفنادق الاشتراكيين البرلينيين.

ويجب ألا ننسى، بالطبع، ان الفضل في تأسيس هذه الجمعية يعود لاعتبارات مأخوذة من ان على الفندقيين الاشتراكيين مهات اخرى تجاه زملائهم والبورجوازيين. ومن المؤكد ايضا، على حد سواء، ان اعضاء هذه الجمعية يشكلون فئة من الاشتراكيين المختارين، ذوي وفاء ملموس، بفضل الخدمات الهامة التي قدموها للحزب في حملاته، وتحركاته السياسية. ولكن، لا بد لتنظيم مشابه يمثل مصالح ذات صفة اقتصادية من ان يسبب، غالبا، المصاعب، ليس فقط لمنافسيه البورجوازيين، وانما ايضا للاشتراكيين انفسهم، وان يتجه لتشكيل حزب داخل الحزب.

وفي النتيجة، نقول، ان البورجوازية الصغيرة ذات الاصل البروليتاري، تشكل عائقا ضخما أمام مسيرة الكتائب العمالية نحو الامام، على الرغم من ان ظروف وجودها ليست افضل من ظروف وجود الفئات التي نشأت هي نفسها عنها. ولم ندخل ايضا في الحساب علامة البورجوازية الصغيرة التي تطعن الحزب من الناحية الذهنية.

الفصل الرابع

الحاجة الى التمايز داخل الطبقة العمالية..

يتطلع كل عضو في الطبقة العمالية الى الارتفاع الى طبقة اعلى، تضمن له وجودا افضل واكثر رحابة. انه الارتفاع الى مرتبة الرجولية الصغيرة: ذلك هو المهدف المثالي للفرد العامل. ولا تمثل الجباهير العمالية التي يتألف منها الحزب الاشتراكي، جهورا كثيفاً، موحداً ومتناسكا. كما لا ينزع هذا التأكيد اى شيء من الامر القائل بان العمال يشعرون، نظريا على الاقل، بأنهم موحدون تجاه مالكي ادوات الانتاج، وتجاه القوة التي يتمتع بها هؤلاء في الدولة.

وتوجد لدى الجباهير العمالية حاجة للتمايز، يسلم منها، بسهولة، الاشخاص الذين لا علاقة مستمرة لهم معها. ويخلق نوع العمل ومستوى الاجور واختلافات الاجناس والمناخ عددا كبيرا من التقلبات، كما في طريقة العيش، كذلك في رغبات وميول العمال. وقد امكن القول، منذ العام ١٨٦٠: وان هناك فئات وترتبا ارسقاطيا بين العمال. يأتي الطباعيون في الدرجة الاولى، ثم يتبعهم منظفو المراحيض والاقنية الصحية، E.Abont. ومن وجهة النظر الثقافية والموقع الاجتماعي والاقتصادي، فان هناك اختلافات مطلنة، واضحة بين عامل المطبعة والصحفي التابعين لبلد واحد، اكثر منها بين عامل المطبعة من بلد معين وصناعي صغير من بلد آخر.

يتضح الفاصل بين الفئات العمالية المختلفة، بصورة واضحة، حتى في الحركة

التقابة.

وبالفعل، نحن نعرف ان السياسة المتبعة مثلاً من قبل الاتحادات عمال المطابع في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، تعتمد عن تلك المتبعة من قبل باقي الاتحادات، وحتى من قبل اتحاد الحزب الاشتراكي؛ وهي تتحول الى اليمين، على الاخص، من جهة كونها اكثر انتهازية، واكثر تساهلاً واستسلاماً.

ان عناصر الطبقة العمالية الارستقراطيين، الذين يتقربون اكثر من البورجوازية كونهم يتقاضون رواتب عالية، يتبعون تكتيكاً خاصاً بهم. فالتاريخ العمالي يفيض بأمثلة تظهر ان بعض الفئات، او بعض الاقسام البروليتارية، تنفصل عن المجموعة، وتخلق قضية مشتركة في ما بينها وبين البورجوازية، وفي بعض المناسبات وتحت ضغط مصالحها الخصوصية.

وهكذا، فان عمال ترسانة الاسلحة ليسوا، بشكل عام، رقيقى التصرف مع رفاقهم السلميين، المناهضين للامال العسكرية.

ولقد شن مثل عمال اكبر مصنع للأسلحة في Woolwich، وخلال مؤتمر حزب العمل المستقل المنعقد في لندن في العام ١٩١٠، هجوماً عنيفاً، ضد مندوبي العمال الذين كانوا يودون تأييد قرار حل لصالح الحد من التسلح والضمانة الدولية الاجبارية. كما ان الفشل الذي رافق الاضراب العام في البندقية ضد حرب Tripolitaine، يعود، هو أيضاً، للموقف العدائى، الذي وقفه قسم من عمال مصانع الاسلحة.

وان لم يكن التوقف عن العمل نهار أول ايار، الا توقفاً جزئياً، فانه، مع ذلك، يسمح بتقسيم العمال الى فئتين: اولئك الذين يستطيعون، بفضل ظروف حياتهم، ومعيشتهم الفضلى، وبفضل ظروف أخرى مناسبة، ان يعيدوا اول ايار برفاهية وترف، واولئك الذين يرغمهم البؤس والحظ السيء على العمل.

وتظهر هذه الحاجة الى التمايز ايضاً، وبصورة نقية اكثر، عندما نأخذ بعين الاعتبار، مجموعات عمالية اكبر عدداً.

وبالطبع، فان الفارق في ما بين هذا وذاك، هو في أصله، ذات طبيعة

اقتصادية بحتة، وينضج في تنوع ظروف وشروط العمل، الا ان هذا الفارق الاقتصادي يتحول مع الوقت، الى اختلاف طبقي حقيقي.

يبقى ان العمال المثقفين والذين يتقاضون رواتب مرتفعة، يتركون فسحة بينهم وبين العمال غير المثقفين والادنى أجورا، حتى على الصعيد الاجتماعي. ينظم اولئك في نقابات، اما هؤلاء، فانهم عمال منزليون. كما تمثل الصراعات الاقتصادية والاجتماعية الشرسة، التي يقودها البعض ضد البعض الآخر، إحدى الظواهر الأكثر أهمية في التاريخ الاجتماعي الحديث.

ويتشدد العمال المنظمون في الطلب الى اولئك غير المنظمين، للتضامن الصارم والالتزام الكلي ويرفضون لهم حق العمل، في كل مرة يجد هؤلاء انفسهم فيها في صراع واختلاف مع المنهدين. وعندما لا يحظى غرور اولئك بالرضى المباشر، فانهم يشتتون رفاقهم، ناعتينهم باللقاب شتى.

ومن المسلم به، ان الشكاوى التي يظهرها المنظمون ضد رفاقهم غير المنظمين، هي في قسم كبير منها، شكاوى مبررة. ولكن الاكيد ايضا، هو ان الاشتراكيين وذوي الشأن الذين يريدون نفس الصراع الذي تخوضه هاتان الفئتان بتبريرات ذات صبغة ادبية اخلاقية، انما هم يجانبون المسألة ولا يطلون عمقها.

ان الصراع المقصود هنا، هو، بكل بساطة، الصراع القائم بين عمال يقبضون رواتب مرتفعة، وبين فئات البروليتاريا الأكثر فقرا، الذين لم ينضجوا اقتصاديا بعد، الى حد التائل بذوي الشأن، والمطالبة برفع الاجور. حتى اتنا، غالبا ما نرى العمال الأكثر بؤسا، الواعين لوضعيتهم السفلى، يعلنون ان اجورهم مرتفعة الى حد ما، في الوقت الذي يصف فيه زملاؤهم هذه الاجور بأنها اجور الحد الأدنى، او اجور لا يمكن ان تقف بوجه المجاعة.

لقد قالت إحدى النساء الاشتراكيات الفرنسيات، وعن حق: «نحن نتجه تقريبا نحو التسامح، بشأن خيانة هؤلاء العمال، عندما نرى بأن اعيننا كل المأساة، مأساة مشكلة العاطلين عن العمل في انكلترا. ففي مرافئ الجنوب والغرب الكبيرة، نرى آلاف العمال الجائعين مصطفين على طول حائط

الرصيف، منهكي القوى، يأملون في ان يُستخدموا كجبالين. وعندما تفتح أبواب الاستخدام، فأنهم يتراكمون سوية، في الوقت الذي تكون فيه الحاجة لشرة عمال فقط. انها زحمة هائلة، معركة حقيقية، ولقد توفي، مؤخرًا، أحد هؤلاء العمال مخنوقًا في هذا المراك، Mlle Sorgue.

ولا يعتقد المنظمون، من جهتهم، ان عليهم ان يتضامنوا مع غير المنظمين، حتى في حالات اليأس المشتركة، كالبطالة مثلاً. وغالباً ما تفرض مكاتب العمل الألمانية ان تُوزَّع التعويضات الممنوحة لمستحقيها، من قبل بعض المدن الكبيرة، في سبيل الصراع ضد البطالة، على العمال المنظمين، بشكل خاص، لا على باقي العمال والذين ليسوا أهلاً لأية مساعدة، على حد تعبيرها.

ولكن، لا يكفي الاكثر بحسبوة من العمال بملاحقة رفقة الاقل سعادة بكل الاساليب الممكنة. فهم يذهبون الى ابعد من ذلك ايضاً. اذ يميلون الى الانفصال كلياً عنهم. وغالباً ما تشكل العلاقة الاتحادية شهادة نبلى، تميز بين حاملها وبين الرعاع.

وهذا ما يحدث في اغلب الاحيان، في الوقت الذي لا يطلب فيه العمال غير المنظمين، اكثر من ان يتحدوا برفاقهم المنظمين.

كما نلاحظ هذه النزعة نحو الفتوية، نحو اقامة استقرائيات عمالية متراسة، في كل الاتحادات الانكلو - سكسونية الكبيرة تقريباً. ولا تعد النقابات، وقد أصبحت كبيرة وغنية، تسعى لتوسيع صفوفها عن طريق تجنيد اتباع جدد. فهي، بالعكس، تبدأ بجعل شروط القبول صعبة اكثر فأكثر عن طريق ايجاد رخصة دخول يصعب الحصول عليها، فارضة ابراز شهادة تفيد بان المعني قد تتلمذ، او تدرب على مهنة ما، بصورة نظامية...

وهكذا، فانهم، وعبر هذا الاجراءات التي تحول، بالواقع، دون توسع انتشارهم الخاص، يريدون الابتعاد والانزعال عن باقي الجماهير العمالية قدر المستطاع، والحصول على امتيازات لا يستفيد منها سواهم.

وتولد هذه الاجراءات، الانسانية المهنية الضيقة، وخاصة بين العمال الاميركيين والاستراليين، وتظهر في الرغبة بعدم تشغيل اليد العاملة الاجنبية،

وذلك باتخاذ اجراءات اخرى قانونية، كتنقيح توطئتها مثلاً، او الحد منه. وعندها تتبع النقابات العمالية «سياسة» قوية واضحة، ولا تردد ابداً في المطالبة «بدولة الطبقة»، لإبعاد الأشخاص «غير المرغوب فيهم». عن الساحة. وتغارس هذه النقابات على حكومة بلدها، ضغطاً يمكن ان يضع هذه الحكومة على شفير اعلان حرب، ضد الدولة الاجنبية الاخرى المصدرة لليد العاملة. ويلاحظ في اوروبا، على حد سواء، ولو بدرجة اقل، قيام مجموعات صغيرة مغلقة وزمر داخل الحركة العمالية (وفي هذا تكمن النزعة نحو الاوليغارشية) تقف بمواجهة مبادئ الاشتراكية النظرية وتعارضها.

وهكذا، فعمال مصنع الاسلحة في نابولي ليسوا غريباً عن عالمنا، ولا متخلفين، كما يمكن الاعتقاد لأول وهلة. فهم يطالبون الحكومة، ان «يؤخذ بدل ثلث العمال المطلوب تغييرهم، من بين ابناء العمال الحاليين، اذ يكونوا قد تعلموا مهنة آباءهم».

وكما يقول Grasserie، وعن حق: «ان الغرض من صراع الطبقات هو رفع الطبقة الدنيا الى مستوى الطبقة العليا. وهكذا تنجح غالباً الثورات، لا في ادخال الديمقراطية الى مسألة تحسين النسل، بل في تحسين نسل الديمقراطيين...»

ان سياسة الاصلاحات الاجتماعية نفسها، والتي تجد في التشريع العمالي اوضح صورة لها، لا تقدم المنافع اياها لكل اقسام الطبقة العمالية.

ان للقانون نفسه تأثيرات متنوعة من قسم لآخر، تبعاً للقوة التي تتمتع بها التنظيمات، وتبعاً لمستوى الاجور وظروف سوق العمل في فروع الصناعة والزراعة المختلفة، كالقانون الذي يرفع الحد الادنى لمعم الاولاد لقبولهم في العمل داخل المصانع مثلاً.

كما تترجم ايضاً هذه التأثيرات بضغط عابر، بالنسبة لبعض الفئات، وبارتقاء دائم للبعض الاخر، مما يُنتج تحريكاً اكبر للبنية قيد الانشاء التي تعمل لها البروليتاريا، من باب التأييد الوطني والمحلي والتفني.

وهكذا ترسم تجزئة جديدة داخل الطبقة المالية الحديثة. ففي إحشاء الدولة
الرابعة تبدأ الخفاصة بالتحرك. ومن هنا، يتجم خطر من أكبر الأخطار جسامة
على الاشتراكية: يمثل هذا الخطر بتشكيل ارسقراطية عمالية، قليلة العدد
نسبياً، تصبح، فيما بعد، وريداً وريداً، غريبة عن التطلع الثوري، الناتج عن
الحرمان والألام، نحو نظام اجتماعي يختلف كلياً عن النظام الحالي.
ودون التخلص من هذا الشعور الانساني المتمثل بالتقلب وعدم الثبات،
والذي لم يتوصل الاثرياء انفسهم للتملص منه، فان الارستقراطية العمالية لن
تعلن عن رضاها ومرورها من مصيرها. وانطلاقاً من هذا الواقع، ستجد
الطبقة العمالية نفسها منقسمة قسمين لا متساويين، خاضعين لتقلبات دائمة.

الفصل الخامس

الزعماء العماليون المتحدرون من اصل بروليتاري

كيف يجب ان تُقاد الجماهير العمالية المناضلة في سبيل تحريرها الاقتصادي والاجتماعي، ومن الذي يقودها ؟

لقد لقي هذا السؤال الذي ما برحت العقول المفكرة، تطرحه على نفسها، منذ بداية نشوء الحركة البروليتارية الحديثة، اجوبة عديدة ومتنوعة، على حد سواء. لن يشغلنا هنا، سوى جواب واحد، هو الجواب الذي يشير الى ايلاء ادارة الحركة الى العمال، ودون سواهم من المثقفين. ويستند هذا الجواب في طرحه، على بعض العبارات الاشتراكية ذات الصلة العامة، سواء كانت ضمنية او مبنوية او مشروحة بطريقة مختصرة، كالبدء المعلن، مثلاً، في المؤتمر الدولي الاول للمعقد في جنيف في العام ١٨٨٦، والقائل بأن تحرير العمال يجب ان يكون شغل العمال انفسهم.

وبدعي، في المقابل، متاصرو هذا الحل، ان الزعماء الصاعدين من الجماهير هم اكثر قدرة على فهمه، فهم يُظهرون ويشعرون بالحاجات نفسها، وتُحرّكهم،

بالتالي، الرغبات نفسها. وهناك الكثير من الحقيقة طبعاً، في هذا الاتبات
الآخر، الا انه اقرب الى استخلاص نتيجة مطلقة منه الى الادعاء بأن العامل،
ما ان يصبح زعيماً، حتى يحافظ على الذهنية نفسها التي كانت له يوم كان لا يزال
يناضل في صفوف الحزب، كجندي عادي ليس الا.

وتكمن النقطة الاساسية للنظرية النقابية في عمل النقابة العمالية المباشر،
المنتهضي لوصاية الزعماء الاشتراكيين ذات الاصل البورجوازي، والمسؤول،
بالتالي، تجاه نفسه، محققاً ايضاً الاكتفاء الذاتي. فالعمل المباشر يعني: تحريك
البروليتاريا، دونما تمثيل لها (غير مباشر) في البرلمان. ويُعتَمَد هذا التمثيل بأنه
تمجيد للحكم الذاتي البروليتاري. وهو يركز على النشاط والمبادرة والشجاعة
الفردية للعامل. ويجب ان تكون البروليتاريا المنظمة، وحسب المفهوم النقابي لها،
جيشاً من المتطوعين، متخلصاً من وهن اركان البيروقراطيين الاشتراكيين،
جيشاً حراً في تحركاته، مستقلاً سيداً.

لكن، اذا انتقلنا من الشعور الى النثر، فاننا ندرك ان الحركة النقابية تختلف
عن الديموقراطية الاشتراكية، وذلك، بصورة رئيسية، بأفكارها المتجانسة مع
طبيعة واصل جهازها السياسي القيادي. ان من يقود التنظيم النقابي هم انفسهم
الافراد العامل.

والنقابيون هم الذين يدعون بان الحركة العمالية لا تستطيع ان تستمد منهم
الا المنافع الكبيرة، لان زعماء عماليا واحدا لا يتمكن من التصرف بدون تجانس
كامل مع مصالح واهواء وتطلعات رفاقه. وهكذا، يصبح العامل الذي يقودون
شؤون نقاباتهم، عامل نخبة مختارة، وذلك استناداً لوجهتي النظر الفكرية
والمعنوية. ويبدو الزعم العمالي المتحدر من اصل عمالي ايضاً، في هذا المفهوم،
وكأنه المسيح المخلص، المكلف بشقاء التنظيم البروليتاري من الامراض التي
يشكو منها. ويُعتَبَر، في النهاية، وكأنه افضل الممكنين.

وبالكاد نشعر بالحاجة الى القول، بان البروليتاري سوف يدير شؤونه مباشرة، افضل من ان يولي أمرها الى محامين أو أطباء. وفي هذه وتلك من الحالات، فانه يقوم بإدارتها بواسطة أشخاص آخرين.

لقد رأينا ان الزعم، في الحركة العمالية، يجد نفسه في استحالة مطلقة للبقاء امياً، وفياً لعمله اليدوي السابق. وفي الوقت الذي تكلف فيه نقابة ما احد الرفاق العاملين في المصانع بإدارة مصالح المجموعة بشكل نظامي لقاء تعويض محدد، فانها تدفعه بذلك، دوناً دراية منها، الى خارج طبقته، لتدخله في طبقة جديدة هي طبقة المستخدمين. وهكذا ينتهي زعم البروليتاريا العمالي، وللحال، من حالة كونه عاملاً، وهذا ليس فقط بالمعنى الفني للكلمة، بل بمفهومها النفسي والاقتصادي ايضاً. فيسمى وسيطاً، تماماً كما زميله المحامي أو الطبيب.

وبعبارات أخرى: يخضع الزعم المتحدر من اصل بروليتاري، بصفته مندوباً أو ممثلاً، للنزعات الاوليفرشيّة نفسها، الموجودة لدى البورجوازي الحارِب من طبقته، والذي اصبح، هو الآخر، زعيماً عمالياً. فعامل الامس هو اليوم خارج طبقته، بعيداً عنها.

لقد زعموا ان مسألة القيام بمهمة بسيطة بين اصحاب العمل والعمال، قد أُنمت لدى زعماء النقابات صفات ممتازة وجديرة: الفطنة والدقة، الصبر والنشاط، الطبع الحازم والاستقامة الشخصية.

ولقد ذهب المطاف بالبعض الى حد امتداح طهارتهم وعفتهم، وإلى نعتهم بغيباب الحاجات الجنسية لديهم، حسباً اعتقد Guglielmo Ferrero، هذه الحاجات التي تميز كل أولئك الذين يملكون اطلاقاً صلياً على واجباتهم.

هناك مبالغة ظاهرة في كل تلك التأثيرات، لان الاوساط البورجوازية مسرورة جداً برؤية المنظمين العمال يندفعون نحو الممارسة اليومية، اذ انها تنتظره من وراء ذلك، سقوط الاشتراكية الثورية. ان كل ما يمكن قوله في هذا

الصدد، هو ان زعماء الجمعيات المهنية يمثلون نموذجاً يتبعه، بشكل ملموس، عن نموذج الزعم الاشتراكي.

الا ان نموذج الزعم الثنائي نفسه يتنوع كثيراً، حسب الطور الذي تتواجد فيه الحركة المهنية. ولذلك فان ادارة تنظيم فقير، يستخدم بصورة رئيسية اساليب الدعاية والاضراب، توجب صفات اخرى، غير تلك التي توجبها ادارة نقابة غنية بالمؤسسات، وتسمى للحصول على نتائج محسوسة، بصورة اساسية.

في الحالة الاولى يجب اولا تأمين الحماية والحفاة وموهبة مباشر. و عمل المنظم مع الدعوة الى التمرد والدعوة الى الرسالة. وتتوافق كـ هذه الصفات، على حد تعبير البعض، مع اكمل صورة من الجهل، وخاصة في بداية نشوء الحركة البروليتارية. وخلال هذه المرحلة، تُبرز الدعاية طابعاً عاطفياً، كون هدفها ذات صفة معنوية اكثر منه هدفاً مادياً.

ولكن الهدف نفسه يختلف تماماً في مرحلة اخرى متقدمة. وتفرض كثرة المهام التي تفرق فيها آنذاك النقابات، والاهمية الكبيرة التي تكتسبها المسائل المالية والفنية والادارية في حياتها، تفرض ان يترك العضو المحرك مكانه للمستخدم المتمتع بمعلومات خصوصية. ويتراجع النشاط الخطائي، بدوره، امام النشاط الاداري الذي يكتسب اهمية من الدرجة الاولى.

وكذلك، تتضاءل اهمية الطريقة التي يدير الزعماء المهليون الحركة بواسطتها الا انها في المقابل تقوى وتشد، لانها مبنية على اختصاص واهلية واقعية اكيدة.

وابتداء من هذا الوقت، يتمايز زعماء الجاهير، ليس فقط بصفاتهم الخصوصية كرجال، وانما هم ينفصلون ايضاً بالحوافز القانونية التي تحكمهم، والتي يحكمون بواسطتها الجاهير. لذا نرى ان مجموعة قوانين اتحاد عمال الحديد الالمانى تشمل ٤٧ صفحة، مقسمة بدورها، الى ٣٩ مقطعاً، يتألف كل منها بدوره من ١٠ الى ١٢ عنواناً. من هو العامل الذي لا يضح افن في معضلة كهذه؟

يتوجب على الموظف النقابي الحديث، وخصوصاً إذا ما كان على رأس اتحاد ما، ان يملك معلومات محددة حول الفرع الصناعي المعني، وان يعرف كيف يوازن، في كل لحظة، في ما بين القوى الخاصة به، وتلك الخاصة بتنظيم الخصم، على حد سواء. وعليه بالتالي، ان يـ على بيته، كما من الناحية الفنية، كذلك من الناحية الاقتصادية للصناعة: نحن تصنيع البضاعة الخاصة بفرع من الفروع موضوع المسألة، مصدر اسعار المواد الاولية، الموقع العام للسوق، مستوى الاجور وظروف حياة الطبقة العمالية، طبقاً للمناطق. كما يستدعي ان يكون في المقابل، موهوباً فكرياً، من الناحيتين الاستراتيجية والدبلوماسية في الوقت نفسه.

الا ان الصفات المهنية الحسنة للزعم العمالي لا تتوافق دائماً مع النظام الديمقراطي. فغالباً ما تجد نفسها على خلاف وتناقض مع ظروف هذا النظام.

وبشكل عام، لا يكتسب الطموح بالوصول الى السلطة حدته القصوى، الا لدى العامل السابق. وهو اقل استعداداً من اي كان في فرض قيود جديدة على نفسه، عندما يصبح مرتبطاً بالجاهير، خاضعاً لها، لانه بالكاد يكون قد تخلص من القيود التي كانت تجعله متاعباً مأموراً (اجبر) وعبداً لراس المال. لا بل، بالعكس فانه يسعى للاستفادة، ما استطاع من حريته، الى حد اساءة استعمالها احياناً.

وتظهر لنا التجربة، ان الزعيم العمالي المتحدر من اصل بروليتاري، هو رجل متقلب الاهواء ومستبد. فهو يتحمل تناقضات رفاقه رغماً عنه، ويهود هذا، دون شك ايضاً، لطبعه كشخص حديث النعمة. وبالفعل، فنحن نعرف ان حديث النعمة ينهر على صيانة كامل سلطته الجديدة، بفترة متناهية، ويرى في كل نقد. موجه اليه، محاولة لاحتقاره والتقليل من اهميته، وتلميحاتاً ضمنية خبيثاً لماضي. وكذلك، لا يجب اليهودي المرتد ان يذكره احد بجنسه الاصلي، ولا الزعيم العمالي الخارج من البروليتاريا ان يلمح اليه بحالة تبعيته، وبصفة كونه مستخدم.

ومن الواجب الا ننسى ايضاً ان زعيم النقابة، وككل الرجال العصامين، هو

فو زهو وغرور فائقين، ولا يتعب من الاعجاب بعمله وعمل زملائه. ومع ذلك، فإن هذه المعرفة الفنية العميقة للحياة العالمية، والتي يتبجح بها زهاء النقابات، هي معرفة خالية من أية ثقافة عامة، لدى معظم هؤلاء الزعماء على الأقل، وخالية أيضاً من أي مفهوم فلسفي للامور، وهي لا تمنهم، فوق ذلك، من الوصول بسهولة الى نجاحات ترضي، الى حد ما، البورجوازيين او شخصيات اخرى ذات مراكز مرموقة.

واليكم مثلاً ما كان F. Engels قد كتبه عن انكلترا في إحدى رسائله الموجهة الى Sorge: «ان ما يظهر هنا كأكثر ثورية، هو هذا الوفاق الذي نفذ الى دم المال انفسهم. فتقسم المجتمع الى عدة فئات تسلسلية، لكل منها كبرياؤها الخاصة واحترام فطري لمن هم احسن او اعلى مرتبة، له جذوره القديمة جدا والعميقة، والتي ينجح البورجوازيون، حتى في يومنا الحاضر، في اغراء من هم ادنى منهم مرتبة بمداهناتهم وثنائهم. لست متأكداً تماماً، مثلاً من ان John Burns ليس مغشوشاً في ان يعيش تحت رحمة الكاردينال Manning، واللورد العمدة، والبورجوازية بشكل عام، من ان يتمتع بالشعبية بالقرب من طبقت الخاصة. حتى ان Tom Mann نفسه، الذي اعتبره افضل من كل هؤلاء الزعماء ذوي الاصل العالي، كان يفرح بان يغير من حوله بأنه كان مدعواً الى مائدة اللورد، عمدة المدينة».

وفي ألمانيا، لم يجرؤ احد المال الاشتراكيين القلائل، الذين تقربوا من غلبوم الثاني، ان يعبر عن اقتناعاته امام عرش الملك. وانتهى بأن أنكر المبادئ الاساسية لحزبه. وتستحق هذه القصة ان تسرد:

وقعت هذه الحادثة في العام ١٩٠٠، عندما دُعي ممثلو المؤسسة الملكية للتأمينات الى البلاط الملكي، على اثر حفلة افتتاح القصر الجديد لهذه المؤسسة، ومن بين اعضاء الوفد الذي لبى الدعوة، كان هناك Buchholz، عامل الجص، المعروف في الاوساط النقابية. ولقد تكرم غلبوم الثاني بتوجيه كلامه اليه، اذ كان يعمل وسام الصليب المعكوف Croix de Fer بصفته من المحاربين القدامى، قائلاً له: «هل صحيح ان كل الاشتراكيين هم اخصام الملكية؟»

سأل القيصر Buccholz وهو مع ذلك، ما كان ليجهل افكاره السياسية. فرد عليه بسرعة عفوية بديعية: «ليس كلهم، سيدي».

الا انه يوجد، منذ الآن، وداخل صفوف البروليتاريا، فئة من مديري التعاونيات وامناء سر النقابات ورجال تنظيات ذوي ثقة، تكيفت نفسيّتهم تماماً مع نفسية الطبقات البورجوازية، اذ هم على اتصال مستمر بها.

وهكذا، يمارس الوسط الجديد تأثيراً عميقاً على العامل الساسق، فترق وتهذب اساليبه، وتصبح اكثر ارفاقاً، ويتململ البروليتاري السابق، ويتدرب على ممارسات وتصرفات المجتمع الراقي، عن طريق علاقاته اليومية مع اشخاص عظيمي الشأن بالولادة، كما يسمى الى التمثل بهم.

وليس من النادر ابدأ رؤية نواب يعملون على حجب التعبير الذي حصل في داخلهم.

كما يرغب الزعماء الاشتراكيون، مسيحيون ديموقراطيون، نقابيون.... المتفرعون عن الطبقة العالية، في وصف انفسهم كمثال، عندما يتكلمون الى الجماهير. وهذا اسلوب يعتدونه للثت انظار هذه الاخيرة اليهم، وكسب عطفها وثقتها.

لقد كان النمط المتبع في فرنسا، في انتخابات العام ١٨٤٨، هو ان يعلن كل المرشحين انفسهم عمالا. فكان هذا بالنسبة اليهم، ليس عنوان مجد وحسب، وانما ايضا عنوان نجاح. وهكذا نجح واحد وعشرون منهم بفضل هذه الطريقة - الحيلة.

وبالواقع، ان ما يعنيه هذا العنوان، نراه من خلال لوائح المرشحين التي يقدمها الاشتراكيون في ايامنا هذه، في فرنسا واطاليا وغيرها من البلدان، فترى، على الأخص، اسماء اصحاب الاعمال القصدية واصحاب المحوانيت (بورجوازيون صغار اذن) تبرز على هذه اللوائح، ويخفون، بعناية، صفتهم كأصحاب عمل. ولقد رأينا ايضا حالات اخرى حيث يُظهر هؤلاء الاشخاص انفسهم كمثال في نداءاتهم الانتخابية الموجهة الى الطبقة العاملة، وكأصحاب

عمل. في التداءات الموجهة الى البروجوازية..

وغالباً ما يحمل العمال الحقيقيون علامة مخصصة، للدلالة على ماضيهم، وهم يتباهون بها ويتفاخرون. ولقد استمر بعض العمال الزعماء بالظهور بالقبعة (baret) والقميص وعقدة الرقبة الآخرين، في البرلمان الانكليزي، حيث تفرض العادة ارتداء ملابس من الدرجة الاولى..

ولكن، ليس باظهار الاصل البروليتاري من الخارج فقط، نتوصل الى النجاح في الغاء هذه الظاهرة العامة في الموضوع الذي كان يقول عنه جوراس Jaurès قبل التحاقه بالاشتراكية ما يلي: « يترفع النواب العمال الذين يصلون الى البرلمان، بسرعة كبيرة، بالمعنى السيئ للكلمة، فيخسرون نخوتهم وفعالياتهم السابقة، ولا يبقى لهم سوى نوع من العاطفة والحنين لمنصة من منصات المجلس النيابي ».

هذا، ويستولي شعور بالاكتفاء والشبع على العامل السابق، بسهولة كبيرة، بعد ان يكون قد حصل على نوع من ارضاء تافه لذاته، ارضاء يمتد حتى في الوسط الذي يحيط به. وغالباً ما يبقى لا مبال وعدائي حتى، تجاه كل طموح او تطلع الى الامام، بالمعنى الديمقراطي للكلمة. ويرتاح ايضاً لترتيب الامور الذي ينتهي بالتوافق والانسجام معه. ما هي الفائدة اذن، التي يمكن ان تقدمها له، من الان فصاعداً، الثورة الاجتماعية؟ فالثورة الاجتماعية، بالنسبة اليه، قد قامت وانتهت. وفي الاساس، فان كل افكار هؤلاء الزعماء تتمحور الان حول رغبة واحدة، هي ان تتواجد، لفترة طويلة بعد، بروليتاريا تنندبهم لتمثيلها وتعطيهم الحياة.

ويؤكدون ايضاً، ان المقصود قبل كل شيء هو التنظيم، والتنظيم المستمر، وان القضية العالية لن تنصر، الا يوم ينضم اخر عامل الى هذا التنظيم. وككل المسكينين بزمام الامور، فأنهم ليسوا بمحاربين. فهم يملون، كما في انكلترا، نحو مفهوم يرتبط بموجبه العمال والراساليون بنوع من ميثاق تحالف، ويتفاسمون، ولو بصورة غير متوازنة ايضاً، الحصيلة الصافية للعمل الذي تم انجازه بجهد مشترك.

ان هذا المفهوم الناتج عن النظرية المسماة بنظرية سلم الرواتب، يُبدل ستاراً على كل الخصومات الطبقية القائمة، ويطيح النهاية الخاصة بالتنظيم بطابع ماركانتيلي (تجاري) وتقني بحت.

وإذا ما أصبح صراع ما واقعاً لا محالة، يستخلص الزعيم منه حجة لاجراء مفاوضات طويلة مع الطرف الآخر. وبقدر ما تطول هذه المفاوضات، بقدر ما يتكرر اسمه على الساحة العامة، وعلى صفحات الجرائد. فان حصل وعبر عن آراء منطقية ومعقولة، فانه يستطيع ان يتأكد، ايضاً، من حصوله على مديح وثناء الخصوم، واعجاب الجماهير به، على حد سواء.

كما تتوافق الانانية الشخصية والخوف والسفالة لدى الكثير من هؤلاء مع التفكير السلم وحسن الدراية. ولا يعتقد البروليتاريون الذين اصبحوا زعماء، ان من واجهم تطبيق سياسة اعتدائية، لا يمكن الا ان تعرض النتائج المكتسبة للخطر والاذى، في الوقت الذي تكون فيه بعيدة عن اعطاء وتقديم نتائج جديدة.

وغالباً ما تلتقي الادوات الانانية مع الاسباب الموضوعية لوضع سياسة تريت واعتدال، وهكذا، فان مستخدماً في نقابة المانية، وصف الزعماء العمال، من غير ارادته، قائلاً: «لا اريد ان ألوهم أحداً». ولكن الاكيد اننا سنكون اكثر اهتماماً لتنبير سريع وممكن، في الوقت نفسه، للترتيب الاجتماعي القائم، لو كنا بقينا نعمل في المصانع، ولو كان توجب علينا ان نكتفي باجور منخفضة بالنسبة للاجور التي نقاضاها حالياً.

ان استبدال الزعماء البروليتاريين بزعماء بورجوازيين، في ادارة الحركة العمالية، لا يقدم، اذن، أية ضمان، نظرية كانت ام تطبيقية، ضد الخيانة السياسية او الادبية والمعنوية للزعماء.

كما يعلمنا المورخون، ان هناك عشرة من اصل احد عشر ممثلاً للشعب، تابعين للطبقة العمالية، قضت الانتخابات التي اجرتها الحكومة المؤقتة، بادخالهم الى البرلمان الفرنسي، قد تخلوا عن البرنامج العمالي الذي تم انتخابهم على اساسه. وفي هذا الخصوص، يُظهر لنا تاريخ زعماء القسم الايطالي في «الدولية»

(١٨٦٨ - ١٨٧٩)، مثلاً أكثر بيانية أيضاً؛ لقد وُجد، بين الزعماء المتحدرين من أصل عُمالي، أفراد عرفوا بسلوك مذبذب، في الوقت الذي برهن فيه الزعماء المتحدرون من أصل بورجوازي، والذين كانوا يشكلون الأغلبية، عن أروع الفضائل الانسانية: لقد استولى Stefano Caprusso، الذي كان يصف نفسه بالعامل النموذجي، على صندوق مركز نابولي الاشتراكي. وفضّح امر Carlo Tersagli، الذي كان مسؤولاً عن قسم Turin، بأنه كان يعمل بخدمة البوليس ولصالحه، فطُرد من الحزب.

بشكل عام، فإن تاريخ الحركة العمالية يُعلمنا انه، وبقدر ما تُدان الصفة البروليتارية لحزب ما وتتهم، بقدر ما يمرض هذا الحزب لتأثيرات الوسط السياسي.

لقد سارع Antonio Maffi، مؤسس الرموز الطباعية، والثائب الاول الذي ارسله الحزب الاشتراكي الايطالي الى البرلمان في العام ١٨٨٢، هذا الحزب الذي لم يكن يقبل في صفوفه الا عمالا يدويين، سارع اذن، بالانضمام الى القسم البورجوازي اليساري، معلناً ان انتخاب عامل لا يمكن ان يكون له صفة التعارض مع بقية طبقات المجتمع.

وكذلك فعل كل من Henri - Louis Tolain و Friebourg الزعيمان البرودونيان الفرنسيان اللذان انقلبا ضد الكومون Commune (العامة) في العام ١٨٧١، وتحالفا مع Thiers. وقد كلفهما هذا العمل، طردهما من الدولة، من هذه الدولة نفسها، التي طالباها في مؤتمر جنيف الاول في العام ١٨٦٦، وبكل قوة، لاصدار مادة اضافية الى مجموعة القوانين السابقة، تقضي بطرد كل العناصر المتفقة، وذات الاصل البورجوازي من الدولة. نضيف الى ذلك، ان Tolain انتهى مسيرته، وهو مستلق على كرسي سيناتور في ظل الجمهورية المحافظة.

لقد ترك الزعيم العامل الانكليزي Odger الدولية، التي كان يشغل فيها منصب عضو المجلس العام، على أثر عصيان باريس. وقد فعل ذلك حقاً، بصورة جزئية، بسبب الموقف السلطوي لماركس، الا ان هذا الاخير لم يكن

مخططاً، تماماً، عندما كان يقول ان Odger لم يكن يرغب في استخدام الدولية، الا لكسب ثقة الجماهير، شرط ان يديرها ظهوره، عندما يرى ان الاشتراكية كانت عائقاً، بوجه مسيرته السياسية. ان مثل Odger ينطبق تماماً على Lucraft، زعيم عامل انكليزي آخر، عضو المجلس العام ايضاً، والذي عين من قبل الحكومة مقبلاً تريبياً.

وباختصار، لقد كانت الكتابات العالية تقاد لمواجهة البورجوازية، في كل مرة تسنح الفرصة لعامل تقشفت بداه، باستلام زمام القيادة. بالاضافة الى ان هذه المواجهة، كانت تتم بأقل حجة مما لو كانت القيادة بين ايدي رجال متفرغين، من طبقات اجتماعية اخرى.

واذا نكلمنا عن السلوك السياسي للزعماء، عمال البروليتاريا، فأن كاتباً فرنسياً قد قال ان هؤلاء هم، على الصعيد الثقافي والمعنوي، اقل درجة من الزعماء ذي الاصل البورجوازي لانهم لا يملكون تربيتهم ولا ثقافتهم.

وانطلاقاً من الانتقاد نفسه، فان سلوك عدد كبير من الزعماء العمال ذي الاصل البروليتاري، لا يمكن الا ان يساهم في الثقافة المكثفة للنزعات اللابرلمانية. لقد توالى حكم البورجوازية بعد حكم الاقطاعية، وبعد هذا الاخير، هل يأتي حكم رئيس العمال؟ ان عدونا هو سيدنا، قال لاغونتين. ولكن السيد الاكثر رهبة، هو ذلك الذي يخرج من صفوفنا، والذي عرف كيف يرتفع الى مستوى السلطة، بقوة اكاذيبه وغشائته Flex.

ان زعماء الاحزاب الديمقراطية لا يُظهرون نموذجاً موحداً في كل البلدان. فالطابع الوطني، والتقليد التاريخي... تجعل هذا النموذج متنوعاً من بلد لآخر. ان الولايات المتحدة هي، في الاساس، بلد الدولار، وليست الحياة العامة، في اي بلد آخر من العالم، بحكومة بالدرجة نفسها من قبل التعطش الى الذهب. وبالطبع، فان قدرة الرأسمال غير المحدودة هي التي تنشر الفساد. ولكن الفساد في امريكا لم ينتشر انتشاراً ضخماً فقط: لقد ارتفع فيها الى مستوى المؤسسة، وفي الوقت الذي يثير فيه هذا الفساد ملامة وسخطاً، في اوروبا، فانه، في اميركا، لا ينجو سوى الابتسامات الساخرة. وبظن Lecky، انه، اذا اردنا

الحكم على الاميركيين من خلال الطريقة التي ينصرفون بها في الحياة العامة فقط، فاننا نعرض لتبيان الاحكام غير المناسبة وغير العادلة بحقهم.

ان اميركا الشمالية هي البلد حيث توسعت النزعات الاستقرائية للزعماء العمال، النزعات التي يشجع الوسط المتداخل والمادية الجافة والقيحة، كما ذكرنا سابقاً، قيامها، بحرية تامة، وتبعاً لاروع مقياس ممكن، وانتلاقاً من هذا، لم يفعل زعماء البروليتاريا سوى التوافق مع العادات التي تولدها الرأسمالية. هذا، وتحمل طريقة معيشتهم طابعاً خاصاً، يحكم الاثرياء.

نذكر هنا، انه بعد ان يحصل رسميو النقابات على نسبة مئوية جديدة، تضاف الى الاجور، وعلى منافع اخرى متشابهة، يجتمعون في جلسات مسائية مع اصحاب الاعمال وذوي الشأن، حول مأدبة فاخرة. كما جرت العادة ايضاً، على تقديم هدايا ثمينة (جواهر....) للمتدربين الاجانب ولسائهم ايضاً، خلال انعقاد المؤتمرات. بالإضافة الى مكافأة مزايا الزعماء الخاصة، عن طريق زيادات في مناصبتهم المالية، تصل احياناً الى ارقام خيالية هائلة.

ومن الشائع، ان لا يرى الزعماء العمال وينوع خاص، قياديو النقابات المهنية، وفي وظائفهم، سوى انها خطوة في سبيل ارتقائهم الشخصي.

ان الطبقة العمالية الاميركية، وبشهادة اشخاص على اطلاع واسع بالموقف، لم تعط حتى الآن زعماً تستطیع التفاخر به، عن حق. فان معظم الزعماء يستغلون، بقليل من الحياء، ومن اجل فائدتهم الشخصية، المراكز التي يشغلونها، وذلك بفضل ثقة رفاقهم رفقاء الطبقة والعمل.

وبالاجمال، فلقد وُصف الزعماء العمال الاميركيون بأنهم جشعون واغبياء. واليكم الصورة التي رسمها Gaylord Wilshire وهو اشتراكي ايضاً، عن الزعيم الاشتراكي الاميركي: «انه، في الغالب، رجل يقوم باتهام المجتمع، وكأنه كان احدى ضحايا تنظيمه السيء، وهو بالتالي اكثر قدرة على خلق البلبلة من ان يعمل ويشغل. كما تنقصه التربية، بشكل صام، بالإضافة الى ان افكاره وتصوراته ليست مبنية في غالب الاحيان، الا على الجهل».

ان العمال الاذكياء والشرقاء محاصرون من قبل عدد كبير من الزعماء ، على هامش التنظيم . ويقوم الرأسماليون بالتمسك بهؤلاء الاشخاص ، وجعلهم في متناول ايديهم كلياً . فالزعماء العمال ، وبصفتهم حديثي النعمة ، يفتقرون الى التربية والثقافة ، ويكونون بشكل خاص ، حساسية تجاه المداينات والتعلق . الا ان اقل اخطائهم تكمن ههنا ايضاً ، لانهم غالباً ما يلعبون ، بكل بساطة ، دور الخدم المأجورين لرأس المال .

كما يقوم الاشتراكيون انفسهم ، باطلاعتنا على امور لا تصدق تقريباً ، عن بعض فئات العمال الاميركيين ، الذين اكتسبوا موقعا خاصا مميزا ، وهم مجردون كلياً من اي حس اديني او اخلاقي .

وهناك بعض النقابات من بين تلك التي تمتاز بأفضل تنظيم ، تعمل على توقيع اتفاقات ، وفقا للاصول مع رأسماليين يمثلون فرعاً صناعياً معيناً ، بقصد استغلال المستهلك والاقسام الاخوي للمعام .

لقد كانت إحدى اتحادات النقابات ، فيما مضى ، تنظم وتدعو الى الاضرابات في مركز ما ، لصالح مركز اخر ، وبامواله الخاصة . وبالعكس ، فان الكثير من الاضرابات التي كانت تعلن في الوقت المناسب ، وتحمل المنافع للعمال ، كانت تقاطع فجأة وتُغلق ، لان صاحب العمل منح زعم التحرك مبلغاً معيناً من المال ، كدخول يستمر في تسديده له مدى الحياة .

ان غياب النزعات والاتجاهات الاشتراكية لدى العمال الاميركيين ، أثار اعجاب عدد كبير من الكتاب المشهورين والصناعيين الكبار ، الذين مدحوا واقتضروا بذكاء هؤلاء العمال ، وقدّمهم مثلاً لعمال اوروبا الفاسدين والفساد . الا ان ذكاء هؤلاء العمال المزعوم ، لا يمنع العمال الاميركيين من تحمل قيادة زعماء يستغلونهم ، ولا تمنعهم ايضاً من ان يكونوا وحدهم لا يدركون ولا يَؤمنون الاساءات التي ترتكب من حولهم ، لا بل يشجعونها ، حتى ويرمون ارضاً اساءات وفاقهم الذين اجتذبوا عداوة الزعماء ، عندما كشفوا خداعهم وتزويرهم وفضحوا مآثراتهم .

من ناحية ثانية، لم يُظهر الزعماء العمال الانكليزي انفسهم وكأنهم اعلى مرتبة من زملائهم الاميركيين. فقد روى Bebel خلال مؤتمر امستردام ١٩٠٦، وفي حديث خاص، ما كان ماركس وانجلز قد قالوا له مرة في لندن: «ان الاشتراكية الانكليزية متقدم، بالتأكيد، اكثر مما هي عليه اليوم، اذا لم يكن للرأسماليين المهارة في تعييد الحركة العمالية، عن طريق افساد الزعماء».

ففي مذكراته يقول Hyndmann، الزعيم الماركسي الاشتراكي الانكليزي الكبير، البورجوازي الاصل، ان العديد من الزعماء العمال، من بين الاكثر فعالية والاكثر موهبة، قد اكتسب ثقافة سياسية حقيقية بفضل الاشتراكيين ذوي الاصل البورجوازي. ولكن هؤلاء الزعماء لم يتأخروا في بيع هذا المكسب الجديد من البورجوازية نفسها.

ولم يشك العمال انفسهم من ذلك، لانهم، وكلهم اعجاب بما سموه حكمة زعمائهم، جعلوا الارتقاء التدريجي لهؤلاء امراً ممكناً بواسطة التصويت لصالحهم في الانتخابات. ويذهب بقية العارفين بأمر الحركة العمالية الانكليزية، الى حد وصفها بانها «مذبح لكل صيت جيد».

وهكذا نرى في الولايات المتحدة وفي انكلترا، كما في اي مكان اخر، فئة خاصة من الزعماء العمال، ذوي الاصل البروليتاري، تتألف في قسم كبير منها، من أناس هم انصاف مثقفين، متكبرين، وانانيين. ولقد قيل ان Diderot، كان قد فكر بهذا النموذج الخسيس السمج، عندما قال على لسان Lumpazines: «سأصبح ككل الصعاليك المتلبسين: سأصبح الوغد الاكثر مهانة الذي رأيتاه حتى الآن».

الفصل السادس

الاحزاب العمالية والمسألة المساءة: مسألة المفكرين

في المرحلة الاولى من نشوء الحركة العمالية، تمتع اعضاؤها البورجوازيون والمفكرون، بتقدير كبير من قبل الجماهير. ولكن الحال لم تكن هي هي في الاطوار الاكثر تقدماً، اذ ان هذا التقدير، سرعان ما تحول الى حالة عنائية، تؤكدها الاسباب المأخوذة من وجهتي نظر متناقضتين مقلوطين، على السواء. وهكذا، بينما يُصنّف البعضُ معظمَ المفكرين على أنهم من الاصلاحيين ومن الاشتراكيين اليمينيين، يعتبرهم البعض الآخر، على عكس ذلك، وكأنهم من غلاة التوريين، ومن أقصى يسار الاشتراكيين وذوي نزعات قوضوية.

ففي ايطاليا، وجد مفكرو الحزب أنفسهم بين نارين، حوالي العام ١٩٠٢ لقد كان يدّعي الاصلاحيون أنهم يمثلون القوة الصحيحة، القوة البروليتارية لتنظيمات الفلاحين والقرويين الاقتصادية، ضد سائر الحركات الاخرى المؤلفة خاصة من بورجوازيين وبورجوازيين صغار، كما كانوا يؤكدون؛ هذا من جهة. ومن جهة ثانية، دخل ثوريو الاشتراكية الميدان باسم الضمير البروليتاري لطبقة العمال الصناعيين، ضد الموظفين والرعايا البورجوازيين.

لقد كان المفكرون، بالنسبة لهؤلاء ولاولئك، الاشخاص الذين يشتملون اخطاء غيرهم، والمسؤولين عن كل الاعلاط وعن كل العيوب والمفوقات التي كان يتألم منها الحزب. إلا ان الفريقين كانا على خطأ؛ لانتنا، اولاً، لم نفهم

لماذا يتوجب على البورجوازيين، المتحولين عن طبقتهم، أن ينضموا بالضرورة الى أقصى يمين الحزب. فهناك، بالاحرى، اسباب ذات صفة نفسية وتاريخية، من طبيعتها جعل الحجة المعارضة أمراً محتملاً.

أولاً: لنبدأ بالاسباب النفسية: يقدم Kentucky، مستنداً على المرحلة والتي كانت فيها الاشتراكية موصوفة بالجريمة او الجنون، حتى من قبل اشخاص مثقفين، يقدم هذه الملاحظة السديدة القائلة بأن البورجوازي القادم الى الاشتراكية، بحاجة لمزيد من الحزم في طباعه، ولمزيد من الوله الثوري، ولمزيد من عمق الاقتناع، اكثر من حاجة البروليتاري لكل هذه الامور. (فضلاً عن أنه اخطأ باعتقاده أن هذه المرحلة هي مرحلة مغلقة).

ان الصراعات الداخلية والخارجية العنيفة، والايام المليئة بالمرارة، والليالي التي لاتعرف النوم والتي تضج خلالها الايمان الثوري، قدمت كلها للاشراكي المتحدر من البورجوازية، ومن فئاتها الاعلى خصوصاً، حبة وصلابة، قل ما شهدناها لدى الاشراكي ذي الاصل البروليتاري. وقد قطع، نتيجة لذلك، كل علاقاته مع العالم البورجوازي، وانتصب امامه كعدهو لدود، لاجال المصلح او للتفاوض. وكذلك، فان الاشراكي المفكر، الصميم، سيعطي الافضل، بكل سهولة، للنزعة الاكثر ثورية في صراعاته ضد البورجوازية.

الا ان هناك سبباً آخر يدفع بالبورجوازي السابق، لخلق قضية مشتركة مع الاشراكيين الأشداء، غير المتساهلين: تلك هي ثقافته التاريخية، ومعرفته العميقة لطبيعة البورجوازية الخاصة.

ان الاشراكي البروليتاري عاجز دائماً عن ادراك قدرة خصومه وطبيعة الاساليب التي يتمتعون بها بقصد الصراع. وهو يظهر غالباً، إعجاباً ساذجاً امام محاولات الاصلاح الاجتاهي المقبولة التي تقودها بعض الاوساط البورجوازية. كما يجد نفسه أيضاً، في موقع القروي المنصت، المشدود للمُشغَو الذي يمتدح أمامه الفضائل العجائبية لادويته الشاغية من كل الامراض، والتي يعرضها امامه، سواء كانت جدية ام لا.

وبالعكس، فان الخارج من البورجوازية يُقَسَّر، بدقة اكبر، الجهود المبذولة

من الطبقة الاصلية لضرب الحركة الهائلة وايقاف تحركها ، ويكشف ، بسهولة ،
الاسباب الحقيقية الكامنة وراء مختلف مواقف الخصم . وهذا ما يبدو لرفيقه
البروليتاري عملاً نبيلاً ويتكشف البرهان عن روح البورجوازيين التوفيقية امام
اعينه ، وكأنه عمل من اعمال التزلف ، عمل من اعمال الفساد السافل الديني .
بالاضافة الى ان ما يعتبره الاشتراكي البروليتاري خطوة كبيرة الى الامام نحو
المهدف ، يعتبره هو ، وكأنه مرحلة لاتذكر على الطريق الطويل ، للا محدود ،
لصراع الطبقات .

ان فارق المستوى الفكري القائم بين ممثلي فكرة واحدة ، يجب ان يظهر ،
اذن ، بالضرورة ، في طريقة تحقيق هذه الفكرة ، وفي الاملوب التكتيكي الذي
يتبناه تجاه الاصدقاء والاعداء على السواء .

يرتكز اذن التطور النفسي الذي يحدث لدى اشتراكيي هاتين الفئتين ، ذي
الاصل الاجتماعي المختلف ، على قاعدة منطقية . فالبروليتاري الذي لايشغل
مركزاً رسمياً داخل الحزب ، يتبع ، باهتمام بالغ ، النجاحات المتعددة التي تحقّقها
الفكرة المعززة على قلبه في كل الميادين . فهو يتحقق من نمو الحزب
واضطرابه ، يسجل على نفسه ويلمس التحسن في مستوى الاجور الذي تم
انتزاعه من اصحاب العمل . وهو ايضا ملحق ، ليس فقط بالقسم المحلي
للحزب ، وانما ايضا بنقابة الفرع الصناعي . وهو في الكثير من الحالات ، عضو
في تعاونية استهلاكية . لذلك ، فان المشاعر التي يحس بها ، والتجارب التي حقّقها
في هذه التنظيمات المختلفة ، تؤمن له غالباً ، الرضى والاكتفاء الذاتي . وهو يرى
التطور الاجتماعي حاصل في اليوم المناسب ، كما يظهر نفسه متغائلاً جداً ، عندما
يفكر بالطريق التي يتوجب على طبقته ان تسلكها بعد ، لإتمام رسالتها التاريخية .
وهكذا يبدو له التقدم الاجتماعي وكأنه حركة مستمرة ، مستقيمة .

أن يستطيع البروليتاري تحمّل الهزيمة والدمار ، هو امر يبدو له غير محتمل
الوقوع ، ومستحيلاً تماماً حتى . واذا حصل ووقع ذلك ، فانه لا يرى في حدوثه
إلا ظاهرة عابرة فقط . ان هذه الحالة النفسية تجعل منه شهاً ورفيقاً ، حتى تجاه
خصومه . ويظهر ، بالتالي ، مستعداً لقبول فكرة السلم ومشاركة الطبقات لبعضها

البعض. وبالكاد نحتاج هنا، ان نضيف، ان كل هذه الاستعدادات، تعود فتجد نفسها اكثر قوة لدى البروليتاريين الذين يتمتعون بمركز رسمي، بارز في الحزب.

ثانياً: لقد اثبت التاريخ كل هذه الملاحظات. وبالفعل، لنأخذ بعين الاعتبار، بشكل خاص، الثوريين المنحدرين من الارستقراطية والبورجوازية الكبيرة: ميشال البكسينيل Michel Bakounine، والامير Pierre Krapotkine (وكلاهما فوضويان)، انجلز F. Engels، وكارل ماركس Karl Marx.

واستناداً لقاعدة عامة، يعطي الاشتراكي البورجوازي السابق، الافضلية للحلول الراديكالية، الاكثر تصلباً والاكثر توافقاً لمع المبادئ، في كل المسائل الكبيرة.

وما هو صحيح ايضاً، من جهة ثانية، ان الكثير من التيارات «الاصلاحية» كانت تضم في صفوفها، العديد من العناصر المفكرة. فمن المؤكد مثلاً، انه اذا لم يكن الاصلاحي قد وُلد في المانيا من قبل الكتبة الصغيرة المجتمعة حول مجلة دورية في برلين، فانه لم يكن ليصبح، منذ ولادته، ميسوولاً ومدعوماً من قبل هذه المجموعة. ولكن، اذا ما نظرنا عن كثب، فاننا نتأكد، بسهولة، ان من قام باعطاء الدفع للاتجاه الاصلاحي في الديمقراطية الاشتراكية الالمانية، فاما هم زعماء من الحركة النقابية، أي اشخاص من اصل بروليتاري.

على كل، فان الحركات العمالية الاكثر استقلالية، هي التي تداخلت فيها الروح الاصلاحية، اكثر من غيرها. سوف نتذكر هنا، وفي هذا الخصوص، المجموعة الفرنسية «للجمعية الدولية للعمال»، التي اجتمعت حول Tolain و Fribourg، والاشتراكية المسماة «بالاشتراكية النامة»، والتي كان لها «المجلة الاشتراكية»، بادارة الصحفي السابق Benoit Malon. (لقد قام طالب الطب Paul Brousse بدق ناقوس الخطر ضد هذه الاشتراكية في بادىء الامر، وقام بعده الماركسيون المتصلبون، وعلى رأسهم Paul Lafargue، الذي كان قد حصل لتوه آنذاك، على دبلوم الطب في انكلترا، واخيراً الاديب المفكر Jules Guesdes). نذكر ايضاً «حزب العمل المستقل» مع «لجنة العمل التمثيلية»

الخاصة به، ومجموعة الاشتراكيين لمدينة جنوا بقيادة الدهان Pietro Chiara وقروتي Reggio Emilia.

وتظهر هذه الظاهرة منذ البدايات الاولى لنشؤ الحركة العمالية الحديثة. يقول E. Bernestein وعن حق: «عما لا شك فيه، أن مفكري الحركة الدستورية الانكليزية، كانوا، وعلى الرغم من التأكيدات المغايرة، يتميزون عن غيرهم بثورتهم الشديدة». وفي الحقيقة، فإن كلمة توري لم تكن دائما، في شعب الاراء التي كانت تفصل في ما بين الدستوريين، مرادفة لكلمة بروليتاري، ولا مرادف معدلاً لكلمة بورجوازي. لقد كان الممثلون الأكثر شهرة للتنزعة الثورية بورجوازيين، ادباء، وهكذا دوليك. بينما كان الكثيرون من بين الزعماء، ذي الاصل العالي، أتباعاً لأسلوب اوتكنيك معتدل.

وإذا تركنا جانبا مسألة معرفة ما إذا كان التيار الاصلاحي يشكل خطراً أو شراً بالنسبة للطبقة العاملة، فإنا نستطيع القول، ان الزعماء العمال المتحدرين من اصل بروليتاري، قد أظهروا انهم مستعدون، كقاعدة عامة، لتوجيه تصرفاتهم الطبقيّة نحو اليمين. يكفي هنا، أن نذكر اسماء Anoele من بلجيكا، و Legien من ألمانيا، و Rigola في إيطاليا. أن تعبير «امكانية هائلة» يختلف تماماً عن كونه بدعة مأكرة.

ولكن، إذا شكّل المفكرون فرقة كبيرة من الثوريين المتصلبين، فإنه لا ينبغي ذلك دائماً، كتحصيل حاصل، ان يكونوا متعارضين مع أي شكل من اشكال انتهاز القرض «وتسوية الامور». وبالطبع، لقد كان الطريق المؤدي الى الاشتراكية، في بداية نشوئها، مزروعاً بالحواجز والمصاعب. ولم يكن ممكناً الانتساب اليها، إلا بعد صراعات عنيفة، كان يستدعيها الايمان الثابت بالهدف المثالي، والشراسة المشتركة. ولكنه أصبح، رويداً رويداً، أكثر ملائمة وأكثر سهولة من ذي قبل. كما خسر التصلب، تدريجياً، وهو مبدع الفعالية الثورية الجياش، سبب وجوده وظهور البورجوازي المنضم الى الاشتراكية اليوم، أقل استقلالية من ذي قبل، في اختيار اساليب التحرك. وبالفعل، يُظهر لنا التاريخ الحديث للاشتراكية، أن المفكرين منقسمون،

وينسب مسؤولية الى حد ما ، بين كل الاتجاهات التي تتألف منها الحركة العمالية الحديثة . وفي سبيل اختصار الحديث ، والاكتفاء بالكلم عن المانيا فقط ، فان Raphaël Friedberg ، الدكتور في الطب ، هو الذي دسّن وقنّح طريق الاشتراكية الفوضوية . ومن الذين تقرّبوا منه ، نذكر Otto Buck ، الدكتور في الفلسفة ، و Ernest Thesling ، الدكتور في الطب وملزم سابق في فرقة الخيالة .

ويعود الصراع ضدّ المفكرين داخل الحزب الاشتراكي ، إلى اسباب مختلفة . فاذّا لم يكن العمال الحقيقيون أول من يقرع ناقوس الخطر دائما ضدّ الحركة الفكرية ، فان الحقيقة ايضا ، هي ان الطبقة العمالية كانت ترتاب دوما من اعضائها ، الذين كانوا يتوافدون اليها ، من اوساط اجتماعية غير الوسط البروليتاري .

تقول Clara Zetkin ويحيى : « ان الذي يتحوّل عن الطبقة البورجوازية ، غالبا ما يكون منفردا عن رفاقه ، غامضا لايفهمونه . وكما هو غريب ومواطن ، في الوقت نفسه ، في المكان الذي يسكنه اولئك الذين يملكون تربيته وعادته التي بها يتعلّق ، فأنه يشعر ، على حد سواء ، انه غريب ومواطن ، ايضا ، في اعالي القمم حيث تقوم البروليتاريا التي تقرّبه اقتناعاته منها » .

إن التقاليد هي التي تمثّل الشخص المثقّف ، بالتحديد ، حلاّ ثقيلاّ للغاية . وكذلك ، فان الاستقبال الجاف الذي يطالع المفكر في الوسط الجديد ، يبدو له مضاعف القساوة : فهو ، اذ يدخل الى الحزب بكل صفاء ونقاوة تفكير ، يشعر أنه مهان ومخدوع .

من جهة اخرى ، تعجز الجماهير عن تقدير ضخامة التضحيات التي يفرّضها المفكر على نفسه ، لحظة انضمامه الى الحزب الاشتراكي . وعندما روى Paul Göhre ، اثناء انمقاد مؤتمر Dresde ، كيف تمخّل عن وظيفته وعن ثروته حبّا بالقضية ، وكيف تنازل عن مركزه الاجتماعي الذي كان يحتله وعائلته آنثذ ، ردت عليه الصحف الاشتراكية قائلة : ان كل هذا لم يكن إلا من باب المواطن التي لا يعرف العمال استخدام سواها ؛ وانه ، اذا ما قدم المفكرون تضحيات ما ، فانما بانفسهم يفكّرون ، وليس بالقضية العمالية . باختصار ، لقد بقي الرفاق

لامبالين تجاه ما قام به Göhre من اجلهم. والواقع انه، وحول هذه النقطة بالذات، يصعب أن يتوصل المفكرون والبروليتاريون الى التفاهم والاتفاق فيما بينهم.

ولقد القيت التهم الاكثر خطورة وهولاً، ضد المفكرين في ألمانيا وفي فرنسا وإيطاليا، وحتى في بعض البلدان البلقانية.

هذا، واحتوى تاريخ الديمقراطية الاشتراكية الألمانية على مراحل، كان الاعضاء المنقفون خلالها عرضة للاحتقار العالمي. (فلتذكر فقط مؤتمر Dresde حيث بدت كل المسألة العقدة الخاصة بالكتيك، وقد تحولت الى «مسألة المفكرين»). وفي ايامنا هذه ايضاً، فان أولئك المدعويين هناك اكاديميون، غالباً ما يعاملون معاملة المشبهين.

كثيرون ايضاً هم المفكرون الذين اعتقدوا ان من واجبه ان يُظهروا للجماهير، أنهم اشتراكيون حقيقيون، على الرغم من ظروف أصلهم الاجتماعي القاسية، وجسيمة الخطورة، وعلى الرغم من ثقافتهم وتربيتهم العالية. كما ان الاصرار على رغبتهم بوضع أيديهم في أيدي العامل المقتشفة بأي ثمن، حتى ولو كان باخفاء أصلهم، ليس بالتحديد، برهاناً مشجعاً من قبلهم.

ولكن، لننق الخطأ فـ Merlino على حق عندما بنهنا، بسخرية، الى ان هذه الحالة من الامور لا تدوم، إلا للحظة نجاح المفكرين، في احتكار ادارة الحركة المالية. وابتداء من هذه اللحظة، يبدأون بالشعور بحالة من الامن، على الاقل، في علاقاتهم مع الجماهير ولا يعودون بحاجة، بعد الان، للتشكّر والتسّوّر.

ومن العدل الاعتراف، بأن للشك بامر المفكرين او عدم الثقة بهم، أوجهه الاجتماعية، ولو كان في قسم كبير منه، مصطنعاً. فمن جهة، يشجع هذا الشك عدداً لا بأس به، من المفكرين المنحرفين، لتوجيه مسيرتهم وتوجههم نحو شواطئ أخرى. وهم، بانضمامهم الى الحزب، يعتقدون انهم يقومون بعمل مستحب. ومن جهة أخرى، فليس اكثر شؤماً، بالنسبة للمال، من اباحة قيام قيادة مستقلة من المفكرين.

ان الدراسات الجامعية ليست سهلة التحصيل بالنسبة لافراد النخبة فقط، الذين اعطتهم الطبيعة مواهب استثنائية. فان كل بروليتاري، ذي معدل وسط من الذكاء، يستطيع، اذا ما تأمنت له الوسائل الضرورية، ان يكتسب لقبا جامعا، بالسهولة نفسها التي يكتسب بها البورجوازي المتوسط الذكاء.

بالاضافة الى ذلك، فان عدم الثقة الذي يغذيه العمال تجاه البورجوازيين المتحولين، تضاعفت شدته مرة عا هي عليه في الوقت الحاضر. وهذا أقرب الى الخير منه الى الشر: وبالفعل، فان هذا هو، بالنسبة للطبقة العاملة، السبيل الوحيد لتوفير خيبات الامل التي تولدها ثقة عمياء لا محدودة. وهذا لا يعني انه باقصاء المفكرين كليا عن الساحة، تستطيع الطبقة العاملة ان تكون بمنأى من كل الخيبات الممكنة.

ينتج عن كل ما قلناه، ان الصراع القائم ضد المفكرين في الحزب الاشتراكي، ليس فقط صراعا جائرا تماما، وانما ايضا صراعا في غير محله، سخيفا، غير معقول، على الرغم من كل الاسباب التي يمكن ان تبرره، في بعض الحالات الخصوصية.

مع هذا، فان الحركة العمالية الالمانية نفسها، والتي حققت درجة عالية جدا من التنظيم الفني، لن تستغني عن المفكرين. وهكذا، فمن الجائز التأكيد، ان الديمقراطية الاشتراكية الالمانية، وعلى الرغم من صفتها البروليتارية البحتة، وفي الوقت الذي يقوم على رأسها زعماء من اصل بروليتاري من وزن August Johannus Tilm و Ignaz Auer و Bebel .. وغيرهم، كانت قد خسرت الكثير من نفوذها وهيبتها، لو أنها أقصت المفكرين وأبعدتهم عن صفوفها.

يستطيع المفكرون، وحسب Mechring، ان يكونوا ذا فائدة كبيرة للبروليتاريا، بصفتهم منظرين ينرون طريقها، أكثر منهم متحالفين، قادرين على مساعدتها، في تحركها الاجتماعي.

فهو يقول: « اذا أراد المفكرون لعب دور المناضلين بالفعل والممارسة، وليس دور المنظرين في الحركة العمالية، فانهم يعرضون أنفسهم لان يُدفعوا

ويتراجعوا الى مرتبة ثانوية تماماً. ما هي الاعمية التي يمكن ان نكون، بالفعل، لانضمام بعض فئات من الجامعيين الذين لا يملكون سوى فكرة بسيطة وتقريبية عن الممارسة العمالية، الى حركة ما، نضمّ في صفّها عدة ملايين من العمال، كوتوا، بالعكس، فكرة واضحة ومحددة عن هذه الممارسة؟.

كما يستطيع المفكرون تقديم خدمات جليّ للعمال، اذا أرادوا الاكتفاء بالإعداد النظري لصراع الطبقات. فلهم ان يوضحوا شبكة العلاقات التاريخية التي تربط الحركة العمالية بعلم وصف الظواهر العالمي، وأن يحولوا دون ان تنيب عن انظار العمال الوحدة العضوية القائمة بين مختلف جهات حركتهم والمهدف المشترك الذي يتوجب عليهم جميعا التسابق في سبيل تحقيقه. وهكذا، تشتمل مهمة المفكرين على «ابقاء الغاية الرئيسية للحركة العمالية، حاضرة وحية، والعمل على المحافظة عليها، وخلق حالة من اليقين لدى العمال بانتصارهم السريع والاكيد، وتعريفهم بالعلاقات الاجتماعية: F. Mehring.

لن نأخذ موقع الدفاع عن ذكاء البروليتاريا، ضد اولئك الذين لا يرون في مهمة المفكرين، ضرورة تاريخية الا لانهم يشككون بالقدرة السياسية للعمال.

ان اياً كان تابع بقليل من الاهتمام تاريخ الحركة العمالية الدولية، يعرف كم هي ضخمة القدرات والارادات الحسنة التي تتمتع بها، بالتحديد، هذه الفئة من البروليتاريا، التي تعهدت بالنضال من اجل تحريرها، بواسطة قواها الخاصة. ويعرف ايضا الذكاء والشعور بالواجب والاندفاع في العمل المادى، وغير المتعب؛ وهذا ما يبرهن عنه العمال في كل البلدان.

ويبدو البروليتاري، من وجهة النظر الفنية، سواء كان مديراً لتعاونية او مستخدماً في نقابة مهنية، أو محرراً في صحيفة اشتراكية، وكأنه نموذجاً يمكن ان يستوحي منه، غالباً، زملاؤه البورجوازيون وهم يمارسون وظائف متطابقة. واذا ما سلّمت الاحزاب العمالية الدولية، في اكثر من مناسبة، اعضاءها المتحذرين من اصل بورجوازي، مهمة القيام بدراسة وشرح المسائل النظرية، وتوجيه السياسة العملية اليومية، فيجب ألا نرى، في هذا الواقع إلا نتيجة للتنظيم الاقتصادي للانتاج الحديث.

ومع ذلك، يتعارض هذا التنظيم، ودون أن يتمكن من تحريم العامل من إغاء ذكائه، مع الواقع التالي، وهو أن يصبح العاملُ الذكيُّ مفكراً.

وبالطبع، فإن الانتاج الحديث بحاجة لعامل اذكيا، تقدّمهم له البروليتاريا. ولكنه، بحاجة ايضا، لعامل مفكرين، اي لعامل اكتسب ذكائهم ثقافة مناسبة. وبما ان هؤلاء قد خرجوا من طبقة اصحاب العمل، طبقة البورجوازية، فليس من مصلحة الصناعة الخاصة اذن، فتح ابواب التربية على مصراعها أمام البروليتاريا. وبالإضافة الى ذلك، فإن هناك عددا كبيرا من ما لكي العقارات الذين يصرّحون، بتهكم وسخرية، بأن العامل الجاهل، برأيم، هو الافضل.

ينتج عن كل ذلك، ان الاشتراكي ذي الاصل البورجوازي، هو الذي يملك، دون غيره، ما تحتاج اليه البروليتاريا: الوقت وطرق تنمية تربيشه السياسية، الحرية في التنقل من مكان لاخر والاستقلال المادي الذي لا يمكن، بدونه، فهمٌ وادراك ممارسة النشاط السياسي، بالمعنى الصحيح والحقيقي للكلمة.

ما من شيء، مذهش يستدعي التعجب في هذه الوقائع، اذا ما بقي البروليتاري تايعا اليوم، الى حد ما، للمتحوّلين عن البورجوازية.

لقد تمّ انتخاب لجنة مهنتها دراسة مسألة الاراضي الزراعية في العام ١٨٩٤، وخلال انعقاد مؤتمر Francfort الاشتراكي؛ وقد ضمت هذه اللجنة تسعة اعضاء من المفكرين، من اصل خمسة عشر عضوا: انه تفاوت نسي ظاهرا، خصوصا اذا اخذنا بعين الاعتبار، ان العنصر العالمي شكّل تفوقاً عدديا، بالنسبة لعدد المتحوّلين البورجوازيين، في عداد اركان الديمقراطية الاشتراكية. إلا ان هذا التفاوت النسبي يلتقي تفسيراً له، اذ اعتقدنا، أن مسألة علمية ما لا يمكن ان تُحلّ إلا بواسطة اشخاص يمتلكون ثقافة علمية.

وهذا ما يحصل دائما في كل مرة يُقصد فيها دراسة مسألة قانونية اقتصادية او فلسفية، وباختصار، مسألة تفرض معلومات لا تُكتسب إلا بعد دراسات طويلة ومعقدة. ذلك لان من يقوم بالتحصيل العلمي الذاتي، لا يملك دائما اهلية كافية.

ان عملية تطبيق الديمقراطية المتنامية لمؤسسات الدولة، وتطبيق الاشتراكية التدريجية في الحياة الجماعية. مع تأمين ظروف عمل أفضل للعامل، من الممكن أن نجعل من اللجوء الى المفكرين أقل ضرورة، ودون التخفيف من مساعدة البورجوازية للحركة العمالية في كل مرة.

ولكن ههنا تكمن المسائل المتعلقة بمستقبل بعيد.

وبالانتظار، سوف يكون للعناصر البورجوازية التي تحسبها الاحزاب العمالية، دور من اكثر الادوار أهمية للقيام به. ان حركة عمالية سياسية خالية من الماديين البورجوازيين، هي حركة لا يمكن استيعابها، كما لا يمكن استيعاب بوليتاريا مجردة من ضمير الطبقة.

يصح هذا، بصورة خاصة، في المراحل الاولى لنشوء الحركة العمالية، وفي فترة شبابها ايضا. ولكنه ينطبق، وفي قسم كبير منه على الأقل، على كل أطوارها اللاحقة، وعلى كل الاطوار التي نعرفها حتى هذا اليوم.

القسم الخامس

محاولات الحدّ من سلطة الزعماء .

الفصل الاول

الاستفتاء

تبلغ الديمقراطية أوجها، من وجهة نظر القانون العام، في هذه المجموعة من المؤسسات القائمة في سويسرا، حيث يملك الشعب حق الاستفتاء والمبادرة في حق اقتراح القوانين.

إلا أن الأحزاب الديمقراطية، بشكل عام، وفي ما يتعلق بتنظيمها الداخلي، لم تعتمد مبدأ السيادة الشعبية المباشرة، في الوقت الذي لم تكن قد رفضته تماما، إلا بعد تردد طال أمده، وفي حالات استثنائية فقط. وانطلاقا من هنا، فإنها، إذن، أدنى مستوى من أكثر من كونتون سويسري.

فهكذا مثلا، لا تخضع الديمقراطية الاشتراكية، مداولات ومناقشات مؤتمراتها، أي الجمعيات العامة لندوبي الجبهات الاشتراكية، للتصديق اللاحق عليها، من قبل الحزب بكامله. وعلى عكس ما هو حاصل في فرنسا وفي إيطاليا حيث يتركز التصويت على عدد المنضوين من الاقليم المحلية المثلة بمندوبين، فإن قرارات المؤتمرات الألمانية لا تتخذ إلا بأغلبية المندوبين الحاضرين. نجد هنا، إذن، أن المبدأ البرلماني قد حلّ محلّ المبدأ الديمقراطي.

وبالطبع، فإن لكل عضو في الحزب الاشتراكي الحق بأن يعرض الرأي الذي يراه مفيدا، في المؤتمر السنوي... غير أن هذا الحق، حق اسمي بحت، إذ أن الاقتراحات الفردية المرسلة من قبل أعضاء الحزب، نادرا ما يتخذها المندوبون

بمعين الاعتبار. وعلى كل حال، فإن اعتماد مثل هذه الاقتراحات لا يتم مطلقاً. فهناك أيضاً، بعض الأفراد المنحرفين فقط، يستطيعون استخدام هذا الحق. ان اقتراحاً ما يستدعي جمع عشرة توقيعات لكي تمكن مناقشته، حتى خلال انعقاد المؤتمرات. فالمؤسسة الوحيدة التي تقترب من حق المبادرة في الاحزاب الاشتراكية الحديثة، هي التي يتوجب على قيادة الحزب، بواسطتها، ان تدعو لانعقاد مؤتمر استثنائي، عندما يطلب ذلك عدد معين من الاعضاء (١٥ قسماً في ألمانيا، ١٠ من المنتسبين في ايطاليا، اتحادان اقليميان او عشرون قسماً محلياً في بلجيكا).

لقد طبق الحزب الاشتراكي الايطالي الاستثناء، خلال فترة معينة، وخصوصاً في الحالات التي كان يتضمن فيها موضوع البحث مسائل لم يكن المؤتمر السابق قد اتخذ بشأنها أي قرار، أو لم يكن قد تدارسها بطريقة كافية الوضوح.

لقد لجأت الإدارة الى هذا الاسلوب أربع مرات في الفترة الممتدة من العام ١٩٠٤ لغاية العام ١٩٠٦.

وفي المرة الاولى، كان المقصود معرفة ما اذا كان للاقلييات، في التنظيمات المحلية، الحق في أن تنفصل عن الاغلبية لتشكيل اقسام تدعى اقسام مستقلة: فمن اصل ١٤٥٨ قسماً تمت استشارته، ٧٧٨ فقط تقدموا باجوبتهم (١٦٦ مع ٦١٢ ضد).

وفي الحالة الثانية، كان من المفترض استشارة الحزب حول موضوع المحاسبة، في كل من الماسونية والاشتراكية. ولكن هذا الحزب لم يشترك إلا في قسم ضئيل جداً في هذا الاستثناء. وفي كل مرة أرسلت فيها اغلبية الاقسام أجوبتها، كانت تعبر عن رأي غير مشجع، تجاه هذا الموضوع.

اما بالنسبة للمحالتين الباقيتين، فقد اشتملت احدهما على قضية محلية، خاصة بمدينة Milan، وكان موضوع الحالة الاخيرة هو تحديد مركز انعقاد احد المؤتمرات يمكن القول إذن، ان الاستثناء في ايطاليا قد استخدم بصورة

جد معتدلة، وجاءت نتائجه دون الوسط.

وفي انكلترا، انتهت النقابات المالية برفض مبدأ الاستفتاء بعد ان كان عدد كبير منها قد طبقه لفترة معينة من الزمن، وذلك لانه كان ينتج عنه نقص في استقرار التكيف المتبع، وضرر بالمالية العامة، وحيف بالنسبة للإدارة.

وفي ألمانيا، حيث أدخلت بعض الدوائر المختصة، وعلى الرغم من تحفظات الأغلبية، مبدأ الاستفتاء في عملية انتخاب المنتخبين إلى المؤتمرات، سرعان ما ندرك ان هؤلاء وحدهم كانوا قادرين على الامتثال، في تصويتهم، للأسباب الموضوعية البحتة، وكانوا، بفضل مشاركتهم في الاجتماعات، على علم بالمسائل الواجب مناقشتها وبموقف كل مرشح منها. بالإضافة إلى ذلك، فقد بدأت مقاومة مبدأ استخدام الاستفتاء في تعيين المنتخبين، على انه إجراء غير مناسب وخطر بالنسبة للحزب، لانه يخلط الفصل الانتخابي من سيادة الجمعيات العامة.

وفي هولندا حيث الاستفتاء الزامي لانتخاب ادارة الحزب الاشتراكي، كانت مشاركة الجماهير في تعيينها، في العام ١٩٠٩، ضئيلة جدا، لدرجة انها بالكاد شملت نصف الاعضاء المنتخبين بحق التصويت.

يمكن اختصار تاريخ الاستفتاء داخل الديمقراطية، بما يلي: تطبيق نادر ونتائج سيئة.

ومن هنا، فان الاستفتاء يُعطي سببا للانتقاد، ضمن الحدود والاسباب نفسها التي يشتمل عليها كل شكل من اشكال الحكم الشعبي المباشر. هذا، ويمكن سرد الاعتراضات التالية ضده، والتي تتمثل قبل كل شيء، بالنقص في اهلية الجماهير وجدارتها، والنقص في الوقت المادي المطلوب. يقول Bernstein وهو على حق في ما يقول، انه، وفي الوقت نفسه الذي تصبح فيه الوظائف السياسية والادارية، الاكثر اهمية، خاضعة وحدها للتصويت الشعبي، فان مواطن المستقبل السعيد سيجد على مكتبه، صبيحة كل يوم أحد، كمية كبيرة من الاسئلة، تفقده، بسرعة، كل تعاطف وتأييد للاستفتاء.

ولكن الاستفتاء، وفي المسائل التي تستدعي سرعة كبيرة في التقرير، يجد نفسه، بصورة خاصة، على تعارض مع الصفة السياسية والنضالية للحزب، لانه يقلل من سهولة التحرك.

من جهة اخرى، وفي الحالات ذات الاهمية الخاصة، فانه، عندما يُرغب مثلاً بتحديد الموقف الذي يتوجب على الحزب الاشتراكي اعتماده تجاه حرب يقترب اندلاعها، فيصطدم الاستفتاء بمعارضة لا تقاوم من قبل الدولة.

ولنصف اخيراً الى كل هذه المخاطر والموانع، هذا الخطر الاكثر جسامه على الاطلاق: عند وضع الاسئلة بطريقة فطنة الى حد ما، وعند الاحتفاظ بتفسير الاجوبة الغامضة التي.أثارها تلك الاسئلة الغامضة، يستطيع الزعماء، بسهولة، ايقاع الجماهير بالضلال، والقول عن لسانهم كل ما لم يتفوهوا به، فيما لو كانت لهم الحرية المطلقة في التعبير.

الى ذلك، اصف ان الاستفتاء يشجع سيطرة المغامرين المهرة بالطابع المطلق الذي يحلّى به، ويكونه بمنأى من كل انتقاد. ان سلطة الثوبابرية نفسها تنفرع، بالواقع، عن الاستفتاء. ومن جهة اخرى، تفترض هذه المؤسسة بيروقراطية بغاية الدقة، لان تاريخ هذا النظام الانتخابي، يُعلمنا كم هي سهلة مسألة تزوير نتائج اي استفتاء. هذا، وفي الوقت نفسه الذي تدور فيه العمليات الاستثنائية بانتظام كلي، فانه لن يكون لنتائجها اية قيمة ابضاحية مطلقة، لان المناقشة المحركة تنقصها على الدوام. وللانتهاء، لنقل انه يستحيل على هذه النتائج ممارسة أي تأثير على السلطة التنفيذية على الاطلاق.

الفصل الثاني

بديهية الرفض

ان انحلال الضمير الديموقراطي لدى الزعماء، يمكن تأخير، دون أي شك، اذا لم نقل توقيفه، بواسطة عوامل ذات الصفة الفكرية البحتة او الايدولوجية. « ما دامت ادارة وتمثيل الحزب يتواجدان بين أيدي اشخاص هموا في التقليد الكبير للاشتراكية » (H. Ströbel). ويتعاير اخرى، ما دام الحزب مستمرا، فهمه فكرة اشتراكية قوية، يستطيع الزعماء، ويستطيعون فقط، المحافظة على مشاعرهم الديموقراطية، في بعض الظروف، واعتبار أنفسهم وكأنهم مجرد خدم للجماهير.

لقد سبق وتكلمنا عن الاساليب، وبعضها ذات فعالية كافية، التي كانت قد اقترحت بقصد منع ترقي بعض الزعماء ذي الاصل البروليتاري. إلا انها مع ذلك، لا تكفي، اذ ان من الواجب ايضا التوصل الى جعل الزعماء، ذي الاصل البرجوازي، بروليتاريين، اذا صح التعبير، وانتزاع كل امكانية لهم في الرجوع الى وسطهم السابق، وارغامهم على التمثل بالبروليتاريين، والنزول الى مستوى أولئك الذين يعتقدون انهم سوف يكونون المرشدين او الموجهين.

لقد تم تصور مجموعة من الاجراءات المادية والمثالية، من اجل منع قيام ادارة متسلطة داخل الاحزاب الديموقراطية.

وفي معرض حديثه عن الطلاب الاشتراكيين الايطاليين، قام Bakounine

بتحديد الدور الذي يتوجب على المتحولين البورجوازيين الشباب ان يلعبوه، حسب رأيه، في صفوف البروليتاريا: فهم ليسوا بمرشدين، ولا انبياء، ولا معلمين، لا اطباء ولا مدعين.

ان ما يتناسب مع المفكرين الشباب هو ان يكونوا مولدي الفكرة التي تمجّل بها حياة الشعب، وان يرفعوا تطلعات البروليتاريا الباطنية والقادرة، على حد سواء، من حالة الانقباس الى حالة الوضوح.

لقد كان باكونين يرى ان الحركة العمالية لا تستطيع، في بعض البلدان كإيطاليا وروسيا مثلا، ان تتخطى وتنهرب من مشاركة المفكرين البورجوازيين ومساعدتهم. ولكنه كان يطلب بالحاح، بأنه يتوجب اخضاع أولئك الذين يُفترض ان يكونوا الخصام الاشتراكية بالولادة، لقواعد صارمة جدا، عندما ينضمون اليها. انطلاقا من هذا الكلام، يجوز اعتبار باكونين وكأنه البشر بمجيء تولستوي Tolstol.

«ان طريقة الحياة تحكم عالم الافكار وتحدد الارادة». بهذه الخلاصة - الحكمة المأخوذة من المفهوم المادي للتاريخ، يصف باكونين موقفه من تلك المسألة.

ويضيف قائلا: «اذا أراد الرجل المولود والمتزعزع في وسط بورجوازي ان يصبح صديقا شريفا ومخلصا للعالم، اي اشتراكيا يلاحق تحرير الطبقة فمن لا يمكنه شيئا، فانه لا يستطيع ان يقوم بذلك إلا بشرط واحد: يجب ان يرفض، الى الابد، كل العادات وكل اباطيل الحياة البورجوازية؛ ان يقف دون تحفظ الى جانب العمال، وينذر عداوة ابدية ضد البورجوازية. واذا أحس بأنه عاجز عن فعل ذلك، فانه يتمكن، ايام السلم النفسي وتحت زخم «الدوافع المعنوية، تقديم دعم لقضية العمال. لكن شعوره السابق بالتضامن مع الطبقة البورجوازية، سيستيقظ لديه، بكل قوّة، عند كل نزاع، مهما كان بسيطا. وهكذا، فانه، وبعد ان يكون قد أفضل نفسه، يفضل معه ايضا الحزب العمالي».

هكذا اذن، ولاسباب نفسية، كان باكونين يتشدّد بالطلب الى «الاشتراكيين

البورجوازيين»، الى «المفكرين»، بالتخلي المطلق عن طريقة حياتهم ومعيشتهم السابقة. فقد كان يعتقد، بالفعل، ان العالم الخارجي يمارس تأثيراً قاطعاً على العالم الداخلي، عالم الضمير.

الكفر بالذات، والتضحية والتنازل عن كل أشكال الوجود البورجوازي، تلك كانت الشروط التي كان يتوجب على المرشدين العمال أن يراعوها طيلة المسيرة الطويلة لتاريخ الثورة في روسيا.

لقد أوضح Netchaieff في المقطع الاول من كتابه الخاص بالعالم الثوري (١٨٧١)، المبدأ التالي، وهو ان من واجب الثوري الحقيقي ان يعتبر نفسه وكأنه رجل خلق ووقف حياته في سبيل القضية. «فليست له مصالح شخصية، ولا مشاعر ولا تودّد ولا أملاك ولا حتى اسم. فكل ما فيه مأخوذ من قبل مصلحة واحدة، مستقلة عن سائر المصالح، من قبل ميل واحد، وفكرة واحدة هي الثورة». تلك كانت رغبة وجنوح نحو النسيان التام للحياة البورجوازية السابقة.

لقد كان الإذلال النفسي الخارجي الذي وضعته نزعته، وكُدت لاحقاً، بين الاشتراكيين الروس اسساً لتحركهم، أكثر أهمية ايضاً من ذلك الإذلال الداخلي: وهذا ما عرفه باكونين بصورة عرضية، بأنه: «الاشغال الشاقة في حياة الشعب».

وكان إلغاء الفرائز البورجوازية وإبطالها إحدى المسلمات التي حكمت، لفترة طويلة، تاريخ الاشتراكية الروسية. كما كان يتوجب على الرسل المفكرين، الوافدين، في غالب الاحيان، من العائلات الأكثر نبلاً، ان يقوموا بهذا الإلغاء، عندما يدخلون الى فئة «الشعب»، وان يجهدوا للالتحام كلياً مع الروثيناريات. تلك كانت نظرية أنصار الشعب، هذه النظرية التي كانت نتائجها العملية تستقبل بحمية وبطولة عظيمتين.

هذا، وكان هناك علماء ومعلمون واسياد ومطالبات يهوديات، وشابات نبيلات، يسحبون جيماً الى القرى النائية، يتخلّون عن موقعهم الاجتماعي، مودعين كل الامكانيات الفكرية في المدينة الى غير رجعة، راضين متابعين

تحصيل علومهم وطريقة سلوكهم البورجوازية؛ ويسعون في تلك القرى، وهم يعملون كمزارعين أو صائمي عجالات واقفال أو بياطرة... إلى الحصول فيها على معرفة عميقة، قدر المستطاع، بأمور الشعب، وعلى كسب ثقته، وينتهون بأن يصبحوا مستشاريه في الظروف الحياتية المتنوعة، ودائما يقصد خدمة هدفهم الثوري الأعلى.

وبعد العام ١٨٧٠، ظهرت حركة مشابهة، بأقل قوة منها، بين الاشتراكيين المكونين لبلدان أخرى، وبشكل خاص، الاشتراكيين الإيطاليين الذين صنفهم كارل ماركس، ولهذا السبب، بأنهم «خارجون على طبقهم هذا، وأظهرت هذه التسمية التهكمية المهينة، الاشتراكيين الإيطاليين على عكس ما هم عليه. ولقد كانت عقيدة باكونين تتكلم عن الخروج على الطبقة، ليس كحدث تاريخي، وإنما كسلمة نفسية يتوجب على النشاط الاشتراكي، تغيير البروليتاريين أن يتجانس ويتوافق معها.

وانطلاقا من هذا المفهوم، لم يكن الخارج على طبقته أذن، رجلا مردولا من المجتمع، مفلسا أو منقوص النبوغ، أو، باختصار، منحطاً رغبا عنه: لقد كان بالعكس، منحطاً ساقطاً بكامل إرادته، فردا قطع علاقته بمجتمعه عن سابق تصور وتصميم، من أجل أن يتكيف مع وسط غريب ومعاد لطبقته الأصلية. لقد كان فردا خرج بنفسه على طبقته، وأوحى بالاحترام، حتى ولو وضعنا جانباً الهدف الذي يصبو إليه، نتيجة روح التضحية وصلابة اقتناعاته الثابتة.

لقد كان بورجوازيو الحركة العمالية الإيطالية الأولى من الخارجين على طبقتهم، حسب معنى باكونين للكلمة فقط، وليس حسب المعنى الذي يصفهم به كارل ماركس. هذا واقع تاريخي لا يوجب علينا تقديم برهان لإثباته أن Carlo Caffero، الزعيم الأكثر شهرة في القسم الإيطالي للدولة، والذي كان يتحدر من عائلة نبيلة وغنية جدا، وضع كل ثروته الضخمة بتصرف الحزب، مكتفيا بأن يعيش بوهيميا فقيرا. ولذلك، يمكن اعتباره، عن حق، وكأنه النموذج لهؤلاء الاشتراكيين المثاليين.

إن مثالية كهذه، تنتج عن الاقتناع بأن التجانس الاجتماعي التام والمطلق بين

كل الاقسام التي يتألف منها الحزب الاشتراكي النوري، يشكل السبيل الوحيد الواقعي، والمضمون تقريباً، ضد بعض اتجاهات عماء الاكثر خطورة. ومن هذا الواقع، اكتسب نمط الحياة القيمة التي للـ المعنوية، واعتبر كصمام امان غايته منع، او على الاقل، وقف ازدياد أشكال الاوليفرشة داخل الاحزاب العمالية.

وفي أيامنا هذه، فان بديعية الرفض او مبدأ التسليم به، حتى بمداورات كلامية خجولة، لم يعد محظوراً، إلا من قبل بعض الرومانسيين المنحرفين التابعين لتيار الغوضوية في الاشتراكية. إلا انه يبقى معمولاً به في بعض الاوساط العمالية للاحزاب الاشتراكية الفرنسية والالمانية، بشكل ملطف، الى حد ما.

وفي أحد مؤتمرات اتباع Guesde في شمال فرنسا، تم اصدار قرار يقضي بأن من واجب النواب أن يقضوا حياتهم وسط رفاقهم.

وفي ألمانيا، نجد ايضا افكاراً مشابهة لهذا القرار، في مسألة الخطر المطلق، المطبق على اعضاء الحزب، بادانة في الصحف البروجوازية والاشتراك او الانضمام الى أي مجتمع بروجوازي كان.

ومن البديهي القول، ان من نتيجة هذه المحاولات، خلق تعصب حزبي، على الرغم من كونها قليلة الفعالية والتطبيق، ولا تعال سوى الجانب الايديولوجي للمشكلة، وهي، بالتالي، عاجزة عن اقامة تحديد كامل بين الزعماء والمجاهير البروليتارية، من وجهة نظر الذهنية والتحرك.

الفصل الثالث

الوقاية من النقابية

تقول النقابية بضرورة نقل مركز القوة لفعل البروليتاريا الثوري، وذلك عن طريق احلال النقابة المهنية محل الحزب السياسي، اذ يُنْهَم بها انها هيئة محايدة سياسيا، اي انها لا تلتزم بأي حزب سياسي، وهي بالتالي، اشتراكية بفعل العقيدة التي تستوحي منها، وبفعل الهدف الذي تقترحه لنفسها.

انها لمزية كبيرة للنقائين ان يفهموا ما سيعيب نقابة منعزلة من الضرر، وهي مجردة من أية نظرية عامة، ونحيا من يوم لآخر فقط، وان يمتدحوا، بقوة، الوحدة الثابتة للطبقة العمالية المنتظمة داخل النقابات، ووحدة الفكرة الاشتراكية ايضا.

ويبني النقايون أن ينشروا بين العمال المنتسبين الى النقابة، الاقتناع بأنه لا يمكن للنقابة ان تبلغ هدفها، بصورة قاطعة، إلا بابعاد الرأسمالية، أي بوضع حد للنظام الاقتصادي الراهن. (وحول هذه النقطة، فهم على اتفاق، لمرة واحدة، مع الرجال السياسيين الماركسية).

لكنهم يريدون ايضا، ان تكون النقابة ليس فقط ملجأ وملاذ للفكرة الاشتراكية، وانما ايضا المحرك الاول للعمل الاشتراكي. (وحول هذه النقطة، فانهم يتعارضون، علانية، مع باقي تيارات الاشتراكية المعاصرة).

وهم يودون كذلك، ان تمارس ليس فقط سياسة نقابية، بل المعنى الضيق للكلمة. وانما ايضا، سياسة اشتراكية، بشكل خاص.

فهكذا اذن، تسمى النقابية لوضع حد نهائي لازدواجية الحركة العمالية، بإحلال هيئة متكاملة تمثل خلاصة الوظيفة السياسية والوظيفة الاقتصادية، محلّ الحزب الذي تقتصر وظائفه على الامور السياسية الانتخابية، وعلى الجمعيات المهنية الاقتصادية البحتة.

وليس المقصود اذن، تبعا للنقابية، اعطاء الحركة العمالية اساسا آخر غير التنظيم، لان هذا الاساس الاخير هو، بالعكس، اساس لا بدّ منه.

تعتقد النقابة ويحق، انه ليس بإبطال التنظيم نستطيع ان نلغي الامراض والمخاطر الناتجة عنه. كما انه ليس بسحب دم الجسم الانساني نستطيع ان نقى نسّم هذا الدم او امراضا اخرى من امراض الدورة الدموية. وبصبح هذا وذلك من عقاقير المشعوذين ذات نتيجة واحدة: الموت: موت الجسم الانساني، من جهة، وموت الجسم الاجتماعي والسياسي، من جهة اخرى.

ويكمن الحل، بالاحرى، في إيجاد سبيل او طريقة ما تعيد الخطأ الرئيسي الملازم للتنظيم الى حده الأدنى، أي الخطأ المتمثل بسيطرة الاقلية على الاغلبية.

وما هي مدرسة سياسية جديدة ينتمي اليها العديد من الرجال الاذكياء، المثقفين وذوي الشهامة، تؤكد انها وجدت في النقابية الترياق للتخلص من الديمقراطية التسلطية. ولكن هل يمكن ان يكون الترياق ضد الاليفرشة كما في منهج يصدر، هو الآخر، عن مبدأ التمثيل؟ يبدو ان هذا المبدأ نفسه يتعارض، بطريقة جد صارمة، مع جوهر النقابية الديمقراطية. وبعبارة اخرى، نقاسي النقابية نفسها وتعاي، برأينا، من تناقض ظاهر.

هذا، وتكمن جدارة النقابية واهليتها الكبرى في رؤيتها الواضحة والعميقة لمخاطر الديمقراطية البورجوازية. وبارتياب علمي حقيقي، نزعّت الحجاب عن السلطة التي تمارسها الديمقراطية على الدولة، مُظهرة ان هذه السلطة ليست سوى زعامة الاقلية، وانها، بالتالي، على تناقض حاد مع متطلبات الطبقة العاملة.

وتدعي الديمقراطية أنها تنابع استغلال الجماهير المنتجة عبر أوليغارشية
محترفي المهارة والذكاء . (G. Sorel) .

لقد تحولت كل الصراعات التي خاضتها النقابية الدولية ضد الديمقراطية
الاشتراكية الألمانية، وضد المفكرين الايطاليين والفرنسيين، وضد النقابات
المهنية القائمة على الطراز البروقراطي الى صراع ضد الديمقراطية (زعامة
الشعب وقيادته) الديمقراطية، حسب آخر تحليل لها .

ولكن النقابية تخطيء عندما تنسب الى الديمقراطية البرلمانية الموانع التي
تصدر عن مبدأ التفويض عامة .

وبحق، يقول Mantica ان النقابيين أنفسهم لم ينجحوا في التخلص من
الحمل الذهني الذي تحمله كل اولئك التابعين لأي حزب كان، سواء اعتمد
الطريقة الانتخابية ام لا . وليس الحزب النقابي سوى حزب اشتراكي اعيد
النظر فيه، أو اخضع لتصحيح ما شاء ذلك أم أمي . هذا، ويريد النقابيون
التوقف حيث لا يسمح منطق الامور بالتوقف . فكل ما قد كتبه حول
الاحزاب السياسية بشكل عام، وحول اخيههم البكر، الحزب الاشتراكي،
بصورة خاصة، ينطبق على انفسهم وعلى كل تنظيم آخر، دون استثناء، من
حيث هو تنظيم ليس الا .

ويعد الاطلاع على كل هذا وأخذه بعين الاعتبار، يمكن القول ايضا، انه،
وبقدر ما تسعى النقابية الى تغيير نقطة محور السياسة العالمية نحو العمل النقابي،
بقدر ما يتضاءل كونها بمنأى عن خطر إفساد نفسها والتحول الى أوليغارشية .

ومن السهل على الزعماء، حتى داخل المجموعات النقابية الثورية، ان يباغثوا
حسن نية رفاقهم الرؤوسين . فيمكن لأمين صندوق احزاب ما، ولأمين سر
جمعية، وحتى المتواطئ مع المؤتمر او الرفيق المكلف بتأمين الدفاع عن حاجز
ما، يستطيع هؤلاء خيانة وكائنتهم، بسهولة وخطورة اكبر من امكانية خيانة
نائب او مستشار بلدي اشتراكي .

وغالبا ما ألح النقابيون الفرنسيون، وبعض من الشدة، على العمل المدعو

مباشراً*، كما على السبيل الوحيد يجعل الطبقة العاملة تتحرك كجمهور مستقل لا يمثل أشخاص ثالثون، كما ألقوا، وبالدرجة الأولى، على إبعاد كل تمثيل لا يمكن أن يكون إلا «خيانة» وتزلفها وتحولاً عن الخط المستقيم. إلا أنهم، فوق ذلك، يحرصون نظريتهم، حكماً، بالحزب الاشتراكي وحده، وكأنه لا يجب أن تصدر النتائج نفسها عن الأسباب نفسها عندما يظهر فعلها على ساحة الحركة النقابية. فهم يفكرون وكأنهم كانوا محصنين ضد فعل القوانين الاجتماعية، في الوقت الذي تملك فيه هذه القوانين فعالية علمية.

تركز البنية العضوية لل نقابات العمالية، على الأساس نفسه الذي يركز عليه الحزب العمالي السياسي: تمثيل مصالح الجماهير، عبر أفراد منتخبين خصيصاً لهذه الغاية. ففي الاوقات التقريرية، للصراعات القائمة من اجل زيادة الاجور مثلاً، لا تمثل الجماهير نفسها بنفسها، اذ يكون لها من يمثلها آنذاك. ولا توجد هناك، نتيجة لذلك، ونعت اي شكل كان، نقابات دون ممثلين، ودون ادارة خاصة، كما لا يمكن استيعاب ذلك ايضا.

ان ادارة نقابية مهنية، هي احيانا مركز تحول مناسب جدا نحو ميدان السياسة. ففي المانيا، يشغل خمسة وثلاثون قياديا من قيادتي النقابات مركزا في البرلمان؛ وفي انكلترا سبعة وعشرون فقط، اما في فرنسا، فقد اصبح امينا السر الأولان الدائمان لاتحاد عمال الحديد نائبين.

هذا، ويقدم الاضراب، وهو التحرك المباشر للبروليتاريا، والذي يمتدحه النقابيون كونه الدواء الشافي من كل الامراض التي تقاسمها الحركة العمالية، يقدم فرصاً ممتازة للرجال ذوي الميل السياسي، لكي يظهروا مواهبهم في التنظيم وقدرتهم على القيادة.

وكذلك الامر بالنسبة للاضراب السياسي، اي الاضراب العام. فعالمها ما يكون الاضراب الاقتصادي بالنسبة لزعماء الطبقة العاملة المحترفين كما تكون

• العمل المباشر : l'action directe وهي حركة موجودة فعلا في فرنسا في ايماننا هذه. (المترجم).

الحرب بالنسبة للعسكريين المحترفين. فهذه وذالك يوفران نجاحات سريعة وعظيمة.

لقد توصل الزعماء العمال الى أعلى المسؤوليات، الفخرية منها والمربحة، لأنهم قادوا اضرابا كبيرا. وهذا ما يلفت انظار الشعب نحو اشخاصهم، وانتباه الرأي العام والحكومة.

كما يعود الفضل في المركز السياسي الذي يحتله John Burns حالياً في انكلترا، وفي قسم كبير منه، للشهرة التي جلبتها له فطنته الاستراتيجية الكبيرة، عندما كان على رأس حركة اضراب عمال المرافئ، في لندن، العام ١٨٨٩. لقد اعطى آنذاك اساسا صلبا لشعبية المستقبلية، وكسب، بشكل خاص، ولدى فئات العمال المنظمين، تلك الثقة التي قادته، فيما بعد، من محترفه المتواضع، كصانع الات، الى قصر الملك الوزاري.

هذا مثل، من بين أمثلة أخرى عديدة، لدعم تأكيدنا بأن الاضراب، وفي حالات كثيرة، وبدل ان يكون حقلا لعمل الجماهير الموحدة والنديجة، سهل، بالعكس، مسيرة التاييز، ويشجع تشكيل النخبة من الزعماء. ان النقابية حزب مكافح في حدود تفوق حدود كفاح الاشتراكية ونضالها. كما انها ايضا بحاجة لادارة اكثر من حاجة الحزب الاشتراكي نفسه لها.

واذ يرفض النقابيون نظام التمثيل الديمقراطي والبيروقراطية، فهم يريدون استبدالها بـ «التكتيك الاكثر كفاحا لجيش التحرير الثوري، التكتيك المبني على دهاء الزعماء وفطنتهم الملموسة». كما يقولون إن الزعيم العامل الحديث يجب ألا يكون بيروقراطيا. ويضيفون ان زعماء الاضرابات الكبار، كزعماء الثورات الكبار، فيما مضى، يبرزون بغتة من الظلمة.

يتوافق هذا المفهوم مع الحقيقة التاريخية. الا ان حله سيكون ثقلا جدا، فيما لو كان ممكنا تقديم الدليل بأن واختفاء وغياب قادة الاضرابات عن الساحة بعد انتهاء الاضراب مباشرة، قد قوبل بلا مبالاة وبلا أي اهتمام. ولكننا نعرف ان العكس هو الذي يحصل في معظم الحالات: فاستفادة منهم

بالمركز الذي اكتسبه لانفسهم، لايمد يفكر الزعماء إلا بامر واحد: وهو تأمين سلطة دائمة.

لقد رأينا أيضا افرادا أصبحوا نافذين ومؤثرين، لانهم حصروا نشاطهم بمجرد القيام بالدعاية النظرية لصالح الاضراب، وبالعامل المباشر. ولم يبق عليهم سوى الارتفاع الى ما فوق مناكب الجماهير، لقطف ثمار شجرة الحياة المذهبة.

ولقد دخل Aristide Briand، المولود في Nantes، من عائلة متواضعة تتعاطى التجارة، الى الحزب الاشتراكي في باريس، وصرعان ما أصبح شعبيا بالقرب من الجماهير العمالية، وذلك بدفاعه عن مبدأ الاضراب العام والاضراب العسكري. وانتهى بان اكتسب شهرة وسلطة كبيرتين الى حد أنه لم يشعر بالحاجة إلا لبضع سنوات فقط لارتقاء سلم الانجاد والوصول الى مركز رئيس مجلس الوزراء في بلاده.

وتكن التقاية العدا ضد ديموقراطية الحزب الاشتراكي والنقابات والسلطية، لان هذه الديموقراطية، برأيا، تشوه المبدأ الاساسي للحركة العمالية، الى حد تحويله الى كاريكاتور، ويقول هذا المبدأ ان الحقل الديموقراطي لا يمكن ان ينتج إلا ثمارا او ليفرشة.

لا نستطيع اية حركة على الاطلاق، أن تبرز حق وقدرة الجماهير في ان تحكم نفسها بنفسها، كما تبرزه الحركة النقابية فقط. فحيث تكون الادارة العليا للحركة بين ايديها، كما هي الحال في فرنسا، فانها تعلق اهمية كبرى على واقع أن دور سلطتها سيقصر على تأمين تنفيذ ما تم التداول بشأنه في الجمعيات العامة.

انطلاقا من هذا، فان الاتحاد العام للعمل (مركزه الاساسي في باريس)، هو جهاز اداري، انما هو جهاز تنسيق وتوزيع النشاط الثوري للطبقة العاملة، كما يدعي الزعماء ايضا، ان هذا الاتحاد غريب عن «المركزية» و«السلطية»، على حد سواء. ويقولون ان كل زخم انما ينتج وينطلق فمن الجماهير، اما في

بعضهم، فإن عملهم يقتصر على نقل هذا الزخم ليس الا .

وفي حالات الاضراب، لانتعاب اللجنة الاتحادية دور الادارة، بالمعنى الصحيح والحقيقي للكلمة، وانما تلعب دور الوسيط الذي يؤمن التضامن العمالي، دون عنصر « تنشيط » و « استقطاب » .

هذا من الناحية النظرية. اما في ما يخص التطبيق والممارسة، فان النقابيين الفرنسيين انفسهم يشكون من ان الجباهير تنتظر ان تاتيها المبادرة من فوق، في كل المسائل التقريرية، وتبقى مكتوفة الأيدي ما لم يأتيها اي شيء .

وغالبا ما تأخذ سيطرة الزعماء في النقابة اشكالا مخفية، كما في كل المجموعات التي تمتاز بإيديولوجية ديمقراطية جلية .

اما في فرنسا، ومن اجل حماية زعماء النقابات من أية علاقة نجسة، فانه يحظر عليهم ترشيح انفسهم للانتخابات النيابية. ويتوجب عليهم ان يبقوا على اتحاد مستمر مع الجباهير؛ كما يتوجب على نشاطهم ان يدور في العلن وعلى مرأى من الجميع. ويبقى ان متطلبات وظائفهم تُرغمهم، في غالب الاحيان، على اقامة علاقات معينة مع أجهزة الدولة، تصب في مصلحة النقابات نفسها. هذا، وبما ان مركزهم اللابرومائي يكمن غالبا في أنه، وبدلا من التعامل مع الحكومة في وضع النهار من اعلى المنصات البرلمانية حيث يستطيع الشعب بكامله الاستماع اليهم، فانهم يتداولون في الامور سرا، ومن وراء الكواليس.

الا ان لنظرية الجباهير التي تبشر بها النقابية، وجه آخر يجدر بنا توضيحه.

لا يحتضن التنظيم النقابي مجمله سوى أقلية من العمال الممكن تنظيمهم: ١١٪ في ايطاليا، ٢٣٪ في انكلترا، ٤٢،٣١٪ في السويد، وهي اهل نسبة. ومن بين هؤلاء العمال، فان اولئك الذين يشاركون مشاركة فعلية في الحياة النقابية، يشكلون بدورهم اقلية ليس الا .

من هنا، يشتكي النقابيون ويبتهجون، في الوقت نفسه، من هذا الواقع الذي يوحى لهم بمشاعر ليس من السهل التوفيق في ما بينها، لافتقارها الى الصلة المنطقية. كما يفرحون لتخلصهم من حل اللامباين، ومن اولئك الذين لم

ينضجوا كفاية بعد، لاستيعاب النقابية. ان هذه الطريقة في رؤية الامور تسوحي، دون شك، من الفكرة القديمة التي تشل بموجها الجماهير العريضة غير المتجانسة فكريا كل حركة ونشاط. وهكذا، تبقى الاقليات الواعية وحدها شرة ومقدمة.

لو كان النقابيون منطقيون، لاستخلصوا من ترتيب الافكار هذا، النتيجة التالية، وهي ان يحمل الحركة البروليتارية الحديثة، لا يمكن ان يكون الا من صنع الاقليات الخيرة الواعية. ولكن الاتجاهات الديمقراطية لعصرنا تمنعها من تبيان وتوضيح نتيجة مشابهة، او على الاقل، من الاعتراف بها صراحة. ولو فعلت ذلك لتعارضت ووقفت بمواجهة الديمقراطية، ولأعلنت، دون مراوغة، مناصرتها للنظام الاوليفرشي.

ومع ذلك، يظهر الطابع الاوليفرشي للحركة النقابية في انها تطلب، هي الاخرى، من الجماهير، ولو لأسباب لا علاقة لها بالديموقراطية، الطاعة المطلقة لأوامر النخبة المنظمة: « ليس على اللامبالين، وبفعل تهاونهم في تبيان ارادتهم، الا الاذعان للقرارات المتخذة ». (E. Pouget). كما حافظت التنظيمات العمالية الفرنسية التابعة للنقابة الثورية، وعلى غرار النقابات الاصلاحية في المانيا وانكلترا، على سلامة مبدئها الذي حصل المنظمون بموجبه على حق قيادة غير المنظمين.

يمكن ان نورد هنا، ان عناصر الحركة العمالية الفرنسية العظماء، لا يملكون هذا التزايد من السلطات الذي تتمتع به الرتب الحكومية المناسبة، في بلاد اخرى، كالمانيا بشكل خاص. انه واقع صحيح، يعود لاسباب عدة: مزاج الشعب وضعف التنظيم.

وهناك، في فرنسا حتى، مسافة كبيرة بين النظرية والتطبيق. ولتقل اولا ان الزعماء يمارسون فيها نفوذًا قويا على الوفاق المنتظمين، بواسطة الصحف التي لا تقوم الجماهير بتحريرها، كما هو معروف من الجينينج.

وبالاضافة الى ذلك، فانه يوجد فيها ترتيب اداري تسلسلي لرتبة معاون

زعم. كما ان عدد النقابيين المتسبين للاتحاد العام للعمل، هو حوالي ٣٥٠ ألفا، بينما هو سبعة آلاف فقط بالنسبة للمشاركين في الجهاز المركزي الذي يدعى «صوت الشعب». وهؤلاء هم المناضلون الأكثر حيوية، اعضاء مكاتب ومجالس النقابات... والذين يتم بواسطتهم بث وانتشار الفكرة الاتحادية».

هذا، وقد تم فهم فكرة الاضراب العام نفسه في فرنسا، في بداية الامر، وكأنه شكل من اشكال السلوك التسلسلي. كما صدر عن مؤتمر Nantes المنعقد في العام ١٨٩٤، حل تم التصويت عليه، يقضي بأنه يتوجب التحضير للاضراب العام بدقه، من قبل لجنة مركزية، قوامها احد عشر عضوا، ومن قبل عدد كبير من لجان محلية مساعدة؛ من هنا يجب ان تأتي اولاً كلمة ترتيب، وبالتالي، ادارة الحركة.

اما اليوم، فيقوم النقابيون برفض هذا المفهوم، بسبب طابعه العقوي وهم ملزمون، على الرغم من التناقض النظري الذي يقومون فيه، على التوافق معه في الممارسة العملية.

ولقد بلغت البذور العقوية لهذه النظرية، من الآن وصاعداً، اقصى درجات نموها وانتشارها لدى بعض منظري النقابية الفرنسية، الذين يمثلون ميلا قويا لعلم الجمال، وبصورة خاصة، لدى Edouard Berth.

وكلما اكتسبت النقابية قوة، كلما ظهرت لديها كل هذه النتائج التي تميز اليوم نظام التمثيل. وما نحن نعرف، منذ الآن، زعماء النقابية الفرنسية الذين تقبلوا انتقادات الرفاق، بحساسة مرهفة، لانوازيها سوى حساسية زعم من زعماء الاتحاد التجاري، الانكليزي. هذا، وان النقابي الشاب، وعلى الرغم من كونه ولد معارضا لتسلط الشيوخ، لا يمكنه التخلص من النزعات الاوليغارشية التي تبرز داخل كل تنظيم.

وهكذا تصبح مسألة المحافظة على السلطة، القانون الأعلى، حتى بالنسبة للنقابيين، الى درجة انهم يعتمدون مبدأ عدم التحرك في هذه المناسبات، الا

بفطنة وتحفظ دبلوماسيين. ولقد وجد Georges Sorel نفسه هذا التعبير :
« انحطاط تدريجي للتقنية ». وكتب أيضا هذه الكلمات : « يأخذ الاتحاد العام
للعمل مظهر الحكومة العمالية أكثر فأكثر ».

الفصل الرابع

الوقاية من الفوضوية

يعود الفضل الى الفوضويين في كونهم كانوا أول من ألح بشدة على النتائج التطبيقية والاوليغارشية للتنظيمات الحزبية.

يتمتع الفوضويون برؤية واضحة لأخطاء التنظيم، أكثر من تمتع الاشتراكيين بها وحتى النقاديين. ولقد حاربوا التسلط كونه مصدر كل عبودية واستخدام على الاقل، اذا لم نقل مصدر كل امراض العالم. فكل اكراه بالنسبة اليهم هو مرادف للسجن والشرطة.

كما انهم يعرفون الى أية نقطة تفشل فردية الزعماء وتشل اشتراكية الجماعات. وفي سبيل الافلات من هذا الخطر، رفض الفوضويون، وهل الرغم من الموانع التي يفرضها سلوك مشابه في الممارسة، تشكيل حزب، بالمعنى الضيق للكلمة، على الاقل. فلا ينتظم اتباعهم تحت اي شكل ثابت، ولا يوجد في ما بينهم حسن سلوك. فهم لا يعرفون تعهدات ولا واجبات، كالانتخابات مثلا والمساهمات المالية والجمعيات النظامية.

ان مثال الزعيم الفوضوي، وتبعاً لهذه الصفة، يجب ان يختلف، بشكل ملموس، عن مثال الزعيم الاشتراكي، كما تكون خلال الخمس والعشرين سنة الاخيرة. ولا تتمتع الفوضوية بأي تنظيم حزبي قابل لتقديم ايرادات معينة، كما لا تقود الطريق الذي تسلكه الى ايجاد البرلمانية. لهذا اذن، يجد الطموح الشخصي

فيها حقلا أقل اتساعا، ومحاولات أقل أهمية. فيجب الانتظار أيضا الى ان تصبح المثابة أكثر قوة، بشكل عام، لدى الزعيم الفوضوي، منها لدى الزعيم الاشتراكي. تلك نتيجة تصدر منطقيا عن نظرية الوسط.

وكونه غريبا عن ممارسة السياسة بكل آلامها وأهوائها، بكل شهواتها وجاذبيتها، فهو، بالضرورة، أكثر موضوعية في أحكامه الصادرة بحق الرجال والأشياء، أكثر تأملا، أكثر انغلاقا على نفسه، ولكنه أيضا، أكثر حلما وأكثر غربة عن الحقيقة. كما نجد بين زعماء الفوضوية، العديد من الرجال العلماء، المثقفين والمتواضعين، والذين لم يخسروا معنى الصداقة الحقيقية، والذين برهنوا عن رغبة في تمحيها والتمسك بها: انهم رجال مخلصون وذوو نفوس كبيرة، أمثال Pierre Kropotkin و Ellsée Reclus و Enrico Malatesta وغيرهم أيضا أقل شهرة.

ولكن مسألة ان يكونوا الزعماء الفوضويون، بشكل عام، متفوقين معنويا على زعماء الاحزاب المنظمة، ومناضلين على الساحة السياسية، لا يمنع من ان نرى لديهم بعضا من الصفات والادعاءات الخاصة بهؤلاء، بنقض النظر عن الحزب الذي ينتمون اليه. ان تحليلنا نفسيا لمزاج كل منهم يقدم، بسهولة، الدليل على ذلك. ولم يكف الصراع النظري ضد كل تسلط وضد كل اكراه، الصراع الذي ضحت من اجله العديد من اليورجوازيين سنوات طوال من حياتهم، لم يكف لخلق طموحهم الطبيعي الى السلطة.

كل ما يمكن قوله، هو ان ادوات السيطرة التي يستخدمها الزعيم الفوضوي، تعود لمصر تجاوزته الاحزاب السياسية. ان الاساليب هي اساليب رسل وخطابة: القدرة البراقة للفكرة، عظمة التضحيات، عمق المعتقدات. وهكذا يمارسون سيطرتهم ليس على التنظيم، وانما على النفوس. كما انها لا تنتج من معطياتهم الفنية، وانما من تصاعدهم الفكري ومن تفوقهم المعنوي.

حتى ان الفوضويين، وهم يدافعون عن انفسهم لرهبتهم بتشكيل حزب سياسي، يعلنون ذواتهم انصارا لمبدأ التنظيم في الحقل الاقتصادي.

ويعترف البعض منهم، علانية، بضرورة قيام ادارة فنية للجماهير، في

الوقت الذي يعلن فيه البعض الآخر ايضا، بأن تحويل عمل الزعماء الى مجرد وظائف ادارية، هو عمل كاف لانهاء هذه الانشقاقات مرة واحدة، تلك الانشقاقات الخطيرة جدا على التنظيم والتي تمكر صفو العلاقات القائمة في ما بين الزعماء والجماهير. وكأن التفوق الفني والاداري للزعماء لم يكن يكفي لوحده لبناء زعامتهم وسيادتهم على الجماهير، من دون سائر العلاقات الاخرى ١.

لم يذهب باكونين، نفسه الى حد استثناء مبدأ التنظيم ومبدأ حسن السلوك؛ فقد كان يريد فقط ان يكون هذا وذاك اختياريين، بدلا من ان يكونا تلقائيين، ينطلقان من الذات.

ولقد كان يفهم النظام القوضوي على أنه اتحاد فرقاء دائم. وكان يمتدح، بالمقابل، تأسيس مجلس للجمعية الثورية، مؤلف من مندوبين اثنين، عن هذا الاتحاد او من مندوب عن الشارع ومندوب عن الهيكلين بتفويض يجعل صيغة الامر ويختار المجلس المؤلف، حسب هذه الطريقة، من داخل صفوفه، اللجان التنفيذية الخاصة بكل فرع من فروع ادارة الجمعية الثورية. هذا، وتعلن العاصمة، فيما بعد، لباقي اقسام البلد، أنها لا تود مطلقا ممارسة أية زعامة او سيادة عليها. وبالعكس، فانها تدعوها لتنظيم نفسها تنظيما ثوريا وارسال مندوبين عنها، الى مكان الاجتماعات المتفق عليه، من اجل تشكيل اتحاد الجمعيات واتحاد الكومونات والاقاليم، وتأسيس سلطة ثورية قوية للوقوف بوجه كل تحرك ممكن.

لقد لاحظ ماركس ان اللجان التنفيذية، وفي سبيل تحقيق اي عمل كان، يجب ان تكون مزودة بسلطان ومدعومة بالقوة العامة. وما من سبب لوجود برلمان اتحادي، الا اذا كان مكلفا بتنظيم هذه القوة. وبالإضافة الى ذلك، يستطيع هذا البرلمان توكيل السلطة التنفيذية للجنة واحدة او لعدة لجان. وهكذا، تجد هذه اللجان نفسها محاصرة بصفة تسلطية تزيد الحاجات التي يولدها الصراع من قوتها. وبالإجمال، يصبح مشروع باكونين، بكامله، مطبوعا بحكم استبدادي تسلطي للغاية، حسب ما يقول ماركس.

وعلى غرار التلقائيين، يمتدح القوضويون : التحرك المباشر ، الذي يعتنونه

باهمية والمبدأ المعنوي»: «يسمح التحرك المباشر، وبمعكس التكتيك المتبع في المفاوضات والاتهامات المتبادلة وطريقة الحكم ونظام التفويض، بمتابعة تحسين قدر العمال، وبالتالي، تحرير البروليتاريا من الرأسمالية والمركزية السياسية، عن طريق العمل الشخصي والمباشر للعمال أنفسهم». (Mühsam).

وعلى الرغم من ذلك، نرزع الفوضوية، بالدرجة نفسها التي للحزب الاشتراكي، تحت وطأة قانون التسلط، ما ان تتخلى عن التفكير الإبحث، وما ان يجتمع المتضمنون اليها في جمعيات تهدف الى ممارسة اي نشاط سياسي كان.

لقد أظهر F. Domela Nlenwen huls، الاشتراكي الفوضوي ذو النزعات الفردية الصافية، انه كان يملك ادراكا حادا بالمخاطر التي تتعرض لها الفوضوية: كان هذا على أثر تأسيس الدولية الفوضوية الجديدة، في مؤتمر Amsterdam في العام ١٩٠٧، عندما وقف بوجه Fluc حجاج الايطالي Enrico Malatesta الفوضوي التابع لمدرسة باكونين.

فبعد ان اظهر Malatesta قدرة المجتمع البرجوازي، لاحظ انه يجب تسهيل النصر النهائي لهذا المجتمع، من ان تتركه في حضرة قوى العمال غير المنظمة. وخلص من ذلك الى القول، بضرورة مواجهة التنظيم الشديد للاغنياء بتنظيم اكثر قوة ايضا للفقراء.

وصرخ Nlenwenhuls بوجهه قائلا له: «اذا كانت تلك هي فكرتك، فانه باستطاعتك الذهاب بأمان لدى الاشتراكيين. فهم لا يقولون عكس ذلك ابداً».

هذا وكانت قد ظهرت دلائل هذه الذهنية الدبلوماسية التي تميز كل زعماء الاحزاب السلطوية، خلال المؤتمر الفوضوي الاول، وحسب كلام الفوضوي الهولندي.

وكان Ostrogorski قد اقترح باحلال نظام الجمعيات المؤقتة التي لا تتألف الا بقصد تحقيق هدف معين، والتي تذوب لحظة بلوغه، باحلالها محل التنظيم الحزبي الذي يؤدي دائما الى اشكال مغايرة للديموقراطية. وقد رأى في اعتماد

هذا النظام سبيلا لاعادة تلك النزاهة، وذلك الاخلاص، وذلك الموضوع للصراعات السياسية التي تنقصها اليوم.

ان تحليل الاحزاب السياسية، الذي انصرفنا اليه حتى الآن، يحتم علينا، والخاله هذه، الشك بفعالية هذا الاسلوب. فاعتاده لن يشكل تقدما محسوسا في الوقت نفسه الذي يصبح فيه ممكنا الغاء التقلبات التي يولدها التطور التاريخي والضرورة. فاذا وعدت الفوضوية التي تشكل الرؤيا الاكثر تجردا ومثالية للمستقبل، العالم بنظام تستثنى منه كل حصرية للسلطة، فانها لم تعرف كيف تقدم العناصر المنطقية لهذا النظام في نظريتها.

ملاحظة: كلمة النقابية تعني الحركة النقابية (syndicalisme) وكلمة نقابة (syndicat).

القسم السادس
خلاصة البحث :
النزعات الاوليفرشية للتنظيم

الفصل الاول

القاعدة المحافظة للتنظيم

عند بلوغنا هذه النقطة من البحث، نرى يبرز مسألتين تقريريتين أمامنا: يمكن تلخيص اولاهما كما يلي: هل ان مرض اوليفرشية الاحزاب الديمقراطية عضال؟ وهذا ما سنقوم بدراسته في الفصل التالي.

هل يستحيل على حزب ديمقراطي اتباع سياسة ديمقراطية، وعلى حزب ثوري اتباع سياسة ثورية؟ أجب علينا، ان نعتبر، ليس فقط الاشتراكية كما هي، بل أيضاً السياسة الاشتراكية وكأنها نظام خيالي؟ تلك هي المسألة الثانية، وهي تقتضي جواباً سريعاً موجزاً.

في الحقيقة، وفي الوقت الذي يخضع فيه الحزب الديمقراطي لادارة اوليفرشية، فانه يستطيع، دون شك، وضمن حدود معينة ضيقة جداً، ان يؤثر على الدولة، بالمعنى الديمقراطي للكلمة. وهكذا، تجد الطبقة السياسية القديمة للمجتمع والدولة، بصورة خاصة ايضاً، نفسها مرغمة على القيام بنوع من اعادة النظر لعدد كبير من القيم: ففي الوقت الذي يقوم فيه ديماغوجيون بقيادة وتوجيه الجماهير، تتضاعف الاهمية النسبية الى هذه الاخيرة. كما نعتاد اجهزة التشريع والادارة التنازل والاذعان، ليس فقط للدعوات الآتية من فوق وحسب، وانما ايضاً للمتطلبات الناشئة من تحت.

يمكن ان يؤدي هذا، وغير الممارسة والتطبيق، الى موانع كبيرة نعرفها، استناداً للتاريخ الحديث جداً لكل الدول، ذات الانظمة البرلمانية. ويعني هذا الترتيب الجديد للامور، نظرياً، تقدماً عظيماً، من وجهة نظر القانون العام، فيصبح هكذا، اكثر تطابقاً وتجانساً مع مبادئ العدالة الاجتماعية.

الا ان هذا التطور سيصطدم بمجازر يوقف تقدمه، عندما تنجح الطبقات القيادية في استالة اعدائها من اقصى اليسار الى فلك الحكومة، لكي تجعل منهم مشاركين ومساعدين لها. ان التنظيم السياسي يقود الى السلطة، ولكن هذه الاخيرة هي، دائماً، محافظة. وعلى كل حال، لن يكون التأثير الذي يمارسه حزب معارض على مأكينة الدولة، الا تأثيراً بطيئاً، تعيقه بعض الامور في غالب الاحيان، ويحدد حدوده في النهاية، ضمن الحدود نفسها التي تواجهها طليعة الاوليغرشية.

ولكن هذا الاثبات لا يُضعف ولا يستنفذ مهمتنا التي تشتمل على استمرار البحث في مسألة ما اذا كان التنظيم يقدم ظاهرات اوليغرشية، حتى على صعيد السياسة الخارجية.

أن تصبح، اليوم، السياسة الداخلية للتنظيمات الحزبية محافظة، بشكل مطلق، او هي في طريقها الى ذلك، ذاك هو الامر الذي ينشج، بوضوح، عن التحليل الذي انصرفنا اليه للتو، ولكن من الممكن ان تكون السياسة الخارجية لهذه الاجهزة، المحافظة سياسة جسورة وثورية. -

كما انه من الممكن ايضاً، ألا تكون المركزية اللاديمقراطية للسلطة بين ايدي بعض الزعماء، سوى اسلوب تكتيكي تم هتاده بهدف القضاء على الخصم بسهولة اكبر وفي الوقت المحدد. ومن الممكن كذلك، ألا يلقي على عاتق الاوليغرشيين الا مهمة مؤقتة، هي تربية الجماهير من اجل الثورة، وألا يكون التنظيم، هكذا، سوى وسيلة وُضعت لخدمة مفهوم اشمل.

ولكن افتراضاً كهذا، يقف موقف المتعارض مع طبيعة الحزب نفسها، هذا الحزب الذي يسمى، بالعكس، الى مد التنظيم الى اوسع درجة يمكن ان يتصورها.

وبقدر ما ينمو التنظيم، والحالة هذه، بقدر ما يصبح الصراع، في سبيل المبادئ الكبيرة، مستحيلاً.

ان ما يلاحظ هنا، هو ان النزاعات العميقة في الآراء، داخل الاحزاب الديمقراطية الحاضرة ينقص نشوبها، على صعيد الابتكار، وبأسلحة نظرية بحتة، وتحول بسرعة، الى طعن لاذع وحملات شخصية. هذا، وتشكل الجهود المبذولة لحجب هذه الانشقاقات والاختلافات التي تمرق الحزب، النتيجة التي لا مفر منها للتنظيم الموجه تبعاً لمبادئ بيروقراطية: فيتوجب على هذا التنظيم، وبالشكل غرضه الاساسي على جمع أكبر عدد ممكن من الاعضاء، ان يعتبر، بالضرورة، كل صراع قائم في سبيل الافكار الظاهرة داخل الحزب، وكأنه عائق يحول دون تحقيق اهدافه، اي عائق يستدعى تحاشيه بكل الاساليب الممكنة.

هكذا، نجد هذه النزعة نفسها وطيدة قوية، بفعل الصفة البرلمانية للحزب، لانه اذا تاق كل حزب لاحتضان اكبر عدد ممكن من المنتسبين، فان البرلمانية تطمح ايضا وتتوق للحصول على أكبر عدد ممكن من الاصوات. ويمكن، والحالة هذه، الخلل السياسي لتحرك الحزب، في الحركة التي تنزع نحو تجنيد اعضاء جدد. وما هو، بالفعل، الحزب السياسي الحديث؟ انه تنظيم منهجي للجماهير الانتخابية. للحزب الاشتراكي، وبصفته تجمعا سياسيا يسمى لتجنيد الاعضاء والناخبين في الوقت نفسه، مصلحة حيوية في ان يكسب دائماً اصواتاً وانصاراً جديداً.

ان كل خسارة في عدد الاصوات أو الاعضاء، وحتى كل خسارة في عدد المنتسبين، تضعف النفوذ السياسي للحزب. ومن اجل الانحياز هؤلاء الاشخاص، الجدد، الذين لا يزالون بعيدين عن عالم الاشتراكية المثالي، او عن الديمقراطية يُمتنع عن تطبيق سياسة مبادئه، دون التساؤل عما اذا لم يكن من طبيعة الزيادة الكمية للتنظيم حل ضرر لنوعيته.

وتكمن آخر حلقة في السلسلة الطويلة للظواهر التي تقلد جوهر الحزب السياسي طابعاً محافظاً عميقاً، في علاقته مع الدولة.

ان الحزب المالبي، وقد ولد لمحاربة السلطة المركزية لهذه الدولة، وانطلاقاً من المفهوم القائل بأن الطبقة العاملة لا تحتاج الا تنظيمياً واسعاً وقوياً، انتهى، هو الآخر، باعطاء نفسه مركزية قوية، مستندة على القواعد نفسها التي للدولة: السلطة والطاعة. وقد اصبح، هكذا، حزب الحكومة، اي انه، وقد نُقِمَ كحكومة صغيرة، يأمل في ان يتمكن يوماً من جعل مسؤوليات حكومة على صعيد الدولة.

ان الحزب السياسي الثوري هو دولة ضمن دولة: فهو يتبع الهدف المعلن بتدمير الدولة الحالية، ليقم مكانها دولة مختلفة تماماً. وفي سبيل بلوغ هذا الهدف، الذي له مع ذلك طابع «الدولة»، بصورة أساسية، يستعين هذا الحزب بالتنظيم الاشتراكي الذي يكمن تربيته الوحيد، بالتحديد، في انه يحضر بطريقة جلودة، انما منهجية، لتدمير تنظيم الدولة بشكله الحالي.

يتقوم الحزب التخريبي بتنظيم الثورة الاجتماعية داخل كادراته. ومن هنا بالذات، تظهر جهوده اليومية في تدعيم ونقوية مواقفه، في توسيع انتشار ماكينته البيروقراطية، وفي تجميع وتراكم رساميله. لذا، فكل موظف جديد، وكل امين سر جديد ارتبط بالحزب، هو، نظرياً، عميل جديد للثورة. وبما ان كل قسم جديد هو كتيبة جديدة، فكل الف قرنك تم استبناؤه من اشتراكات الاعضاء او من ايرادات ومداخليل الصحافة او من هبة قدمها محسن متعاطف، هو خزينة حرب جديدة من اجل الصراع والنضال ضد الخصم.

ولكن موجبي هذا الجسم الثوري القائم داخل الدولة، والمدهوم بالبلبلى اياها، والمستوحى من روح الطاعة التي يستوحى هو نفسه منها، لا يستطيعون، على المدى الطويل، من ادراك الواقع التالي، وهو ان يقولوا ان تنظيمهم، ومهما كان التقدم الممكن لتحقيقه في المستقبل، لن يكون أبداً، اذا ما قورن به، سوى نسخة طبق الاصل، ضعيفة وصغيرة جداً، عن التنظيم الرسمي للدولة.

ينتج عن ذلك، وفي الحدود التي يتمكن بها الانسان من استباق واستشراف الامور، ان كل محاولات هذا الجسم لقياس قواه مع القوى المعادية، سوف يحكم عليها بالفشل المحتم.

وهكذا، نجد النتيجة المنطقية لهذا الالتياب نفسها في تعارض مباشر مع الآمال التي كان مؤسس الحزب قد بنوها، في الوقت الذي كانوا يشيرون فيه هذا الحزب، فوق «أجوان المعمودية». وبدلاً من أن يكسب الحزب لأغلبية ثورية عملت قواه وتضامن بينه على مضاعفتها، شهد، في داخله، ولادة ظاهرة متعارضة كلياً: نريد أن نتكلم هنا عن العلاقات الحميمة التي تبتت لدينا، بين نمو الحزب وبين التهيّب والتبصر المتناميين واللذين يوحيان له سياسته.

فالخزب المهذّب دوماً، من قبل الدولة التي يتعلّق وجوده بها، يجتهد في تمحاشي كل ما يمكن اثارته وتحريضها ضده، بكل وعي وادراك. ونتيجة لذلك، تخضع النظرية نفسها، ولتقل علم الحزب، لبعض التعديلات والتغييرات لئلاّ نجاة تلتيف حدتها وقساوتها، اذا ما فرضت مصلحة التنظيم الخارجية ذلك. وبهذا يصبح التنظيم العصب الخيوي الوحيد للحزب.

وفي سنوات وجوده الاولى، لم يكن يتعب هذا الاخير من ابراز طابعه الثوري، ليس فقط بالهدف الذي كان يصبو اليه، وانما ايضاً بالسبل التي كان يعرف اختيارها في كل مناسبة، دون أن يكون له دوماً ميلا مبدئياً تجاهها.

لكنه، وقد اصبح قديماً او ناضجاً سياسياً، اذا اردنا، لم يتردد ابداً في تعديل اول اعتراف له، عندما اعلن عن نفسه ثورياً فقط، وفي افضل معنى للكلمة.

ان هذا الحزب نفسه، والذي لم يَخْفَ يوماً ان يعلن، بصوت مرتفع امام بنادق المنتصرين في باريس، عن تضامنهم الحاسي مع انصار الكومون، Commune، يعلن اليوم ايضاً، امام العالم بأجمعه، انه يرفض الدعاية المناهضة للمكريتياريا، في كل الاشكال التي تسمح بوضع احد اعضاءه في نزاع امام قانون العقوبات. ويضيف قائلاً: انه لا يرغب بتحمل اية مسؤولية عن النتائج التي يمكن ان تحدث من جراء ذلك.

ان شعور المسؤولية هذا، يبدأ بالظهور فجأة في الحزب الاشتراكي الذي يقارم ايضاً، بكل السلطة التي يتمتع بها، التيارات الثورية القائمة في داخله،

والتي واجهها، حتى الآن، بعين متساعة. وهو يتنكر للتيسار المعارض
للتسكريتاريا بأسم المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه، والتي يشعر بكل نقلها
الآن، ثم انه يرفض الاضراب العام، ويتنكر، من جديد، كل المجازفات
المنطقية التي قام بها، فيها مضى..

ومن البديهي القول، ان الحزب، وبهذه الطريقة، يتوقف عن الحركة كلما
اتسع تنظيمه واشتدت قوته، هذا، في الوقت الذي يقدم فيه تاريخ الحركة
العالية الدولية، أمثلة عديدة لدعم بحثنا. مما يستدعي القول، انه يحضر اندفاعه
الثوري، ويصبح هامد الحركة وثقلها، كسولاً، ليس فقط من باب العمل
وانما ايضا على صعيد التفكير.

هذا ويلتحم بقوة متزايدة مع ما يسمى «التكتيك القديم والمجيد»، اي مع
التكتيك الذي سمح له بزيادة حجم صفوفه، وهكذا يصبح نفوره منبأ،
تدريجياً، بوجه كل تصرف عدائي او تهجمي.

ان الخوف من ردة الفعل التي تلازم الحزب الاشتراكي، تشل كل حركة
عنده، اي كل مظهر من مظاهر قوته، وتنزع منه كل فعالية في نضاله اليومي.
وبتعبير آخر، فان النزعات المحافظة الملازمة لكل شكل من اشكال التملك
تظهر ايضا داخل الاشتراكية.

لقد عمل رجال الحزب بعرق جبينهم طيلة نصف قرن لخلق تنظيم نموذجي.
وما هو اليوم، يضم ثلاثة ملايين عامل، اي اكثر مما يتجاسر وأمل. وهكذا،
جهز الحزب نفسه ببيروقراطية تراحم بيروقراطية الدولة نفسها، بوعيتها
لواجباتها، بنشاطها وخضوعها للترتيب الاداري التسلسلي.

ان تكتيكها فاعلا، مقداما، يصبح ذا طبيعة تعرض كل شيء للخطر؛
حصيلة عمل عدة عشرات من السنين، الوجود الاجتماعي لعدة آلاف من الزعماء
ومساعدتهم... وباختصار، فهو يعرض الحزب بكامله للخطر.

وهكذا، فان الفكرة باعداد تكتيك جديد على هذا المتوال تصبح، اكثر
فاكر، بعيدة ولا يعد التنظيم، في هذه الحالة، سبيلا لان يصبح هدفا مجد ذاته.

ويمكن الانشغال، من الآن وصاعداً، بإبعاد كل ما يمكن ان يكون قابلاً للسلل والوقوف بوجه عجلات ماكينة الحزب، وتهديد شكلها الخارجي، ان لم يكن بنيتها بالذات، المملة بالتنظيم.

وفي الوقت الذي يرى فيه الحزب نفسه مهاجماً ومرغماً على الدفاع عن نفسه، فانه يفضل، عند الحاجة، التخلي عن مواقع مهمة، كان قد اكتسبها سابقاً، ورفض حقوق قديمة، من ان يتجاوب مع مهاجمة الخصوم بطرق يمكن ان تعرض الحزب للخطر.

وكلما تضاعفت حاجته للسكينة والاطمئنان، كلما هزلت قواه الثورية، واصبح حزباً محافظاً يستمر في استخدام المصطلحات الثورية. ولكنه لن يقوم، عملياً، بأية وظيفة أخرى الا تلك التي يقوم بها حزب معارض دستورياً.

لم يكن كل هذا موجوداً، بالطبع، في تفكير كارل ماركس، كما لم يعد كل هذا من الماركسية. ولو ان ماركس ما زال حياً حتى اليوم لوجبت عليه الثورة ضد فساد كهذا. وكان من الممكن أيضاً، الا يجحد، بدوره، وهو المغنون بمشهد هذا الجيش المؤلف من ثلاثة ملايين رجل مؤمنين به، اي شيء يقوله امام مخالفة كبيرة، كهذه، للمبادئ المعلنة من قبله. وعلى كل حال، ففي حياة ماركس سوابق عدة لا تستثني امكانية فرضية مشابهة. ولذلك عرف كيف يغمض عينيه، أقله امام العامة، عن الاخطاء الجسيمة التي ارتكبتها الديمقراطية الاشتراكية الالمانية في العام ١٨٧٦.

ان المرحلة الراهنة وطابع الحزب الذي لم يعد سوى تنظيم يكرس نفسه كلياً لاكتساب اعضاء جدد، ومستواه المتدنّي بالنسبة للدولة، كل هذا، يسهل تحلي الهدف المقصود والمشتغل على الغاء الدولة الحالية، عن مكانه رويدا رويدا، هدف جديد، هو التداخل والانسلاخ الى اجهزة الدولة، عبر رجال الحزب وافكاره.

ان الصراع الذي يقوده الاشتراكيون ضد الاحزاب ذات الطبقات القيادية، لم يعد مفهوماً كصراع مبادئ، وانما كصراع تنافس ومزاوجة. فيتنافس

الحزب الثوري اذن، مع الاحزاب البورجوازية، على الصراع من اجل السلطة، ويفتح صفوفه ايضا امام انتساب كل الافراد الذين يمكن ان يستفيد منهم على هذا الصعيد، او الذين هم، بكل بساطة اقدر على تقوية وتوسيع كتابته في الصراع الذي يقوده.

ويتجه حقه، في بادىء الامر، ليس نحو الخصم الذي يختلف واياء حول «المفهوم»، وانما نحو المزاكين الاقوياء، نحو اولئك الذين يطمحون الى الهدف نفسه: وهو السلطة، بعد ذلك، وعلى اثر العلاقات المتنوعة التي يقيمها الحزب مع العناصر التي تخالفه الرأي، والتي تؤثر عليه وتحمله نتائج خطيرة ومستديمة، فانه لا يحسر فقط بكارته السياسية، وانما يجازف ايضا لخسارة طابعه الحزبي، والتحول هكذا، الى مجرد تنظيم بسيط. (اذ يفترض اي حزب ان يتفق اولئك الذين يتألف منهم، حول القيادة المطلوب اتباعها لبلوغ الاهداف الموضوعية والممارسات المشتركة).

الفصل الثاني

الديموقراطية وقانون الاوليغرشية الصارم

في الوقت الذي تعتقد فيه معظم المدارس الاشتراكية انه من الممكن، في مستقبل بعيد تقريباً، تحقيق ديموقراطية حقيقية، وفي الوقت الذي يظن فيه معظم اولئك الذين يبشرون بالافكار الارستقراطية في السياسة، ان الديموقراطية ليست اقل تحقيقاً على الرغم من المخاطر التي تظهرها، يوجد هناك، من جهة اخرى، تيار محافظ، في عالم العلم، ينكر، بحزم وفي كل الاوقات، وجود امكانية من هذا الطراز.

لقد سبق لنا وقلنا ان هذا التيار يتمتع باعتبار كبير، وخصوصاً في ايطاليا، حيث يقوم بتمثيله رجل ذو شأن عظيم، هو *Gustavo Mosca* الذي يعلن صراحة ان ترتيباً اجتماعياً معيناً مستحيل دون وجود طبقة سياسية، اي دون وجود طبقة مهيمنة سياسياً، طبقة اقلية.

ان اولئك الذين لا يؤمنون بانه الديموقراطية، لا يتعبون من وصفها بالاسطورة الباطلة، ولا من التأكيد على ان كل تعابير اللغة التي تحمل معنى (كسيطرة الجاهل، الدولة، حقوق المواطن، التمثيل الشعبي، الامة) توضح، فقط، مبدأ قانونياً، ولا تعني دولة حقيقية قائمة.

انهم يدافعون عن النظرية التي لولاها لم تكن الصراعات الابدية بين الارستقراطيات والديموقراطيات التي يكلمنا عنها التاريخ، سوى صراعات بين

أقلية قديمة تدافع عن استثماراتها، وأقلية جديدة طموحة، كانت تسعى، بدورها، للوصول إلى السلطة، سواء باختلاطها بالأولى أو بالحلول مكانها.

وانطلاقاً من هذه النظرية، فإن هذه الصراعات القائمة لا تدوم إلا بمجرد تعاقب الاقليات على السلطة. كما يمكن مقارنة الطبقات الاجتماعية التي تنصرف، تحت أعيننا، لمعارك ضخمة جداً على مسرح التاريخ، معارك لها في الخلافات الاقتصادية سببها الأبعد، بمجموعتين من الراغبين الذين يقومون بتحقيق حركات غير مجددة.

تفرح الديمقراطية وتعجب بنفسها، عندما تعطي المسائل الهامة حلاً سلطوياً. فهي متعطشة للعظمة وللسلطة في الوقت نفسه. وما إن ينتصر المواطنون ويحتلون بالحرية، حتى يحولون كل طموحهم لاستئلاك استقرابية ما.

لقد قال Gladstone يوماً، إن حب الحرية لدى الشعب لا يوازي سوى حبه للنبالة والحسب. ويمكن القول أيضاً، إن أعظم كبرياء عند الاشتراكيين يكمن في القدرة على صيانة الطاعة واستمرارها، هذه الطاعة التي لا تعني سوى خضوع الأغلبية لأوامر الأقلية، أو، على الأقل، للأنظمة الموضوعة من قبل هذه الأخيرة، تنفيذاً للأوامر الصادرة عن تلك.

هذا وقد اعتبر Vilfredo Pareto الاشتراكية وكأنها سبيل مناسب لخلق نخبة جديدة داخل صفوف الطبقة العاملة، ورأى في الشجاعة التي يواجه بها زعماء الاشتراكية الاضطهاد والمصاهب، علامة نشاطهم. كما رأى فيها الشرط الأول والأساسي الذي يجب على «الطبقة السياسية» الجديدة استيفاءه.

ومن المناسب القول، في كل مرة، إن «نظرية دوران النخبة» الموضوعة من قبل Pareto لا يمكن الموافقة عليها دون تحفظ، عندما يقصد تعاقب صرف للنخبة، لا مزيج دائم، يذيب ويساوي باستمرار بين الأعضاء الجدد.

إن الحاجة لمجموعة اجتماعية مسيطرة هي أمر معترف به، دون شك، منذ زمن بعيد جداً.

ومع الأخذ بعين الاعتبار ان مفهوم الطبقة سيصبح يوماً مجرداً من كل صفة اقتصادية، فان مدرسة Saint - Simon لم تكن تتصور مستقبلاً خال من الطبقات.

لقد كانت تعلم بخلق ترتيب جديد مبني على امتيازات مكتسبة (وليس على امتيازات الولادة)، بفعل تلك الرجال لها، وهم «الأكثر حبا الأكثر ذكاء» والأكثر قوة، وهذا تشخيص حي للتقدم الثلاثي للمجتمع». وهؤلاء هم «القادرين على ادارة هذا الترتيب في اوسع ميدان له».

لقد كان اتباع Saint - Simon يرغبون بأن يكون على رأس دولتهم الاشتراكية أولئك المدعوين «الرجال الشهباء»، ذوي الاهلية في توفير عمل اجتماعي لكل شخص. وفي سبيل اخذ العلم بالقدرات الخاصة لكل فرد، كانوا يعدون للملف السري لكل منهم.

ولم يتردد احد تلامذة St. - Simon الأكثر اقتناعاً والمناصر المتحمس «السلطة الجديدة»، في التأكيد على أن من واجب اغلبية الرجال الطاعة لآوامر من هم اقدر منهم. وكان مرغواً في قوله هذا، على الدفاع عن نفسه من الاتهام الموجه اليه بأنه يريد، بعقيدته هذه، تمهيد الطريق امام حكم مستبد: لقد كان يقول ان هذا العمل من واجبه، وان عليهم القيام به، أجباً للأمور السامية او بآنانية شخصية سواء بسواء. ولهذا السبب أيضاً، يشعر الرجل دائماً انه بحاجة لسلطة اجتماعية يمكنه الاستناد عليها، في الوقت نفسه الذي يشعر فيه انه يستطيع ان يعيش وحيداً منعزلاً.

ان ضرورة القيادة من جهة، وضرورة الطاعة من جهة ثانية، مبررتان بأسباب ميتافيزيقية، ما وراثية. وهكذا، لن تكون السلطة سوى، تحول سياسي من الحب الذي يوحد كل الرجال بالله. وهل تستطيعون ان تفضلوا لما هذا الاستقلال الحزين الذي يعزل المشاعر والآراء والجهود، والذي ليس سوى الانانية المصحوبة بكل الامراض التي تولدها؟ ١٩.

ان نظام اتباع St - Simon هو، من جهة لاخرى، نظام سلطوي وتراثي.

ولقد كان تلامذته اقل انزعاجا من قيصرية نابليون الثالث ، لدرجة ان معظمهم قد انضم اليها لاعتقاده انه يرى فيها تحقيق بعض مبادئ اشتراكية الاقتصاد .

اما مدرسة Fourier ، فقد ذهبت الى ابعد من ذلك ايضا . لقد تصور Fourier ، بدقة متناهية ، نظاما متكاملا ومعقدا ، وانشأ تسلسلا حكوميا تبعا لنموذج الجداول الموضوعة على اساس دوائر من «الف درجة» ، تشتمل على كل اشكال الحكم الممكنة ، ابتداء ، من «الفوضوية» حتى «الحكم المطلق» ، مع «اعلى المقامات» و«اعلى الوظائف» لكل منها .

ولقد قام Sorel باستخلاص الرابط البسيط الذي يربط الاشتراكية بـ «فكرة Fourier St - بلويس فيليب في عصر نابليون الكبير . وأظهر ان تدابير Simon الخيالية لا يمكن ان تولد وتزدهر الا على صعيد فكرة السلطة .

اما اشتراكيو المرحلة اللاحقة ، والاشتراكيون الثوريون قبل كل شيء . فقد قاوموا امكانية قيام حكومة ديمقراطية تستند على الاغلبية في الوقت الحاضر ، دون ان ينكروا قيامها في المستقبل البعيد ايضا .

لقد كان باكونين الخصم المعارض لكل مشاركة من الطبقة العاملة في عملية الانتخابات . وكان مقتنعا بالفعل ان اكثر الانظمة الانتخابية حرية ، لا يمكن ان تكون الا وهما باطلا ، في مجتمع يحكم الشعب فيه من قبل اغلبية مالكة في ظل الوضع الاقتصادي القائم . «ان من يقول سلطة ، يقول سيطرة ، وتفترض كل سيطرة وجود جمهور محكوم» .

كما نعرف الديمقراطية ايضا ، بأنها أسوأ الانظمة البورجوازية .

فالجمهورية التي عرضت علينا كاشكل الاكثر ارتفاعا للديموقراطية البورجوازية ، تملك في اعلى درجة ، وحسب Proudhon ، «هذا الاندفاع الحكومي العصبي الحقيق ، الذي يعتقد انه يستطیع عمل كل شيء» ، دونما عاقبة تذكر ، لانه قادر دائما على تبرير اعماله الاستبدادية بواسطة حجة القيام بها لخير الجمهورية وللصالح العام . حتى ان الثورة السياسية نفسها ، ليست سوى عملية «انتقال للسلطة» فقط .

ان العقيدة العلمية الوحيدة القادرة على التبيح بان لدينا جوابا جديا مقنعا على كل النظريات، القديمة منها والحديثة، والتي كد الضرورة الثابتة «لطبقة سياسية» هي العقيدة الماركسية..

فهي تقوم بمقارنة الدولة مع الطبقة الحاكمة يستخلص باكونين، تلميذ ماركس، من هذه المقارنة، النتائج الاكثر تطرفاً: ليست الدولة سوى اللجنة التنفيذية لتلك الطبقة، أو ليست الدولة سوى «نقابة تألفت للدفاع عن مصالح السلطة القائمة». هذا اذا اردنا استخدام تعبير احد النيو - ماركسيين المجدد. وهذا رأي يتقرب جدا من نظرية Gaetano Mosca المحافظة.

وبالفعل، لقد استخلص هذا الاخير من المعطيات الشخصية اياها، التخمين نفسه، بمنأى تماماً عن سرد الشكاوى والملمات بشأن واقع يعتبره، ليس فقط واقعا لا مفر منه، وانما ايضا، واقعا مغبداً للمجتمع.

ولنذكر بالمناسبة، ان هناك اشتراكا فرنسياً عرف كيف يجد الطريق المزدية الى الحكم، ودفع الفكرة الماركسية، بشأن الدولة، الى اقصى حدودها: لقد نصح العمال، بشكل خاص، بالتخلي عن الصراعات الاقتصادية المنفردة والمحلية، كما نصصحهم بالتخلي عن الاضرابات الجزئية، من اجل ان يقوموا بهجوم شامل على الدولة بواسطة الاضراب العام، اذ انه، ومن اجل ضرب البورجوازية، كما كان يقول، يجب تدمير الدولة. Briand.

ان النظرية الماركسية، مضافاً اليها الايمان بالفعالية الثورية لدى الجماهير، والايمان بالنتائج الديموقراطية لتطبيق الاشتراكية على وسائل الانتاج، تؤدي منطقياً الى مفهوم نظام اجتماعي جديد متجده مدرسة Mosca نظاماً خيالياً.

واستناداً الى يقول الماركسيون، فان غط الانتاج الرأسمالي يحول الغلبة الكبرى للسكان الى يروليتاين، ويهدد، هكذا، الطريق امام حفاري قبره، وذلك لان البروليتاري، وما ان يصبح راشداً وناضجاً، فانه سرعان ما يستولي، بالفعل، على السلطة السياسية، ويعمل بحول الملكية الخاصة الى ملكية الدولة. الا انه بنتيجة هذا العمل يقوم بالقضاء نفسه، اذ يسقط، هكذا، كل

التفاوتات والفوارق الاجتماعية، وبالتالي، كل الخلافات والخصومات الطبيعية.

ويمكن القول، بتعبير آخر، انه ينبغي وجود الدولة في كل ما تمتاز به كدولة. فلقد كان المجتمع الرأسمالي المنقسم الى طبقات، بحاجة للدولة، بقصد تنظيم الطبقة الحاكمة، ومن اجل تأمين دعم نظام الانتاج لها، هذا النظام المبني على استغلال البروليتاري والمنتجوب مع حاجات ومصالح تلك الطبقة. فنهاية الدولة تعني، اذن، وبكل بساطة، نهاية وجود الطبقة الحاكمة.

غير ان المجتمع الاشتراكي الجديد، الخالي من الطبقات، والذي سيقوم على انقراض الدولة القديمة، سيحتاج، هو الآخر، لمثلين مننخبين.

سيقال لنا هنا، ان نشاط وعمل هؤلاء الممثلين يمكن ان يتأ في حدود ضيقة جداً، وذلك بفضل رعاية القواعد الواقية التي وضعها جان جاك روسو J. - J. Rousseau في كتابه «العقد الاجتماعي» والتي عادت وظهرت، في ما بعد، في «اعلان حقوق الانسان»، وبفضل التطبيق الحازم، بنوع خاص، للمبدأ الثابت في امكانية فسخ وابطال كل المهات الموكولة. ولكن يبقى ان الثروة الاجتماعية لا تمكن ادارتها وتسييرها بطريقة مرضية، الا بواسطة بيروقراطية واسعة. تبرز هنا، والحالة هذه، الاعتراضات التي تقود، تبعاً لتفكير سليم منطقي الى نفي امكانية وجود دولة دون طبقات.

ان ادارة ثروة هائلة، وخصوصاً عندما يكون المقصود ثروة تخص المجموعة، تمنح من يقوم بها درجة من السلطة نوازي، على الاقل، تلك التي يتمتع بها من يدير ثروة خاصة. هذا، وتساءل الانتقادات المتوقعة، الموجهة ضد النظام الاجتماعي الماركسي، عما اذا كان يستحيل على الفطرة التي تدفع الملاكين، في ايماننا هذه، لترك ثرواتهم المكسبة ميراثاً لاولادهم، ان تحرض مديري الثروات والممتلكات العامة في الدولة الاشتراكية على الاستفادة من سلطتهم الهائلة، لتأمين تعاقب ابناءهم، من بعدهم، على تسلم المهات التي يشغلونها في الوقت الحاضر؟

ان تشكيل اقلية جديدة حاكمة سيكون ايضاً امراً مشجعاً للغاية، بالطريقة الخاصة التي سيتم بها التحول الاجتماعي بمقتضى المفهوم الماركسي للثورة.

يتوقع ماركس انه سيكون هناك مرحلة انتقال ثورية بين تدمير المجتمع الرأسمالي وقيام المجتمع الشيوعي، وهي مرحلة اقتصادية، تقابلها مرحلة انتقالية سياسية « لا يمكن للدولة خلالها ان تكون الا ديكتاتورية البروليتاريا الثورية ». أو أننا، ولكي نستعمل تعبيرا أقل تلطيفاً، نشهد آنذاك قيام ديكتاتورية الزعماء الذين سيملكون الحيلة والقوة لانتزاع صولجان السيطرة باسم الاشتراكية، من بين أيدي المجتمع البرجوازي المحتضر.

ولقد توقع برنامج الحد الأدنى لحزب Mazzini الجمهوري قيام الديكتاتورية الثورية. وسببت هذه النقطة، بالذات، قطع العلاقة بين إيطاليا الفتاة وعناصر Carbonari الاشتراكية.

هذا واعترض الفلورنسي Filippo Buonarrotti، وهو صديق Gracchus Babouef، بكل قواه، على المشروع القاضي بمصر سلطة Carbonari بين يدي شخص واحد. فقد تسنت له الفرصة، وهو الذي شارك مشاركة بطولية في الثورة الفرنسية لبعض من الوقت، ان يرى عن كثب الثوار المنتصرين، وهم يسعون للمحافظة على عدم المساواة، ولتشكيل استقراطية جديدة. أما السبب الرئيسي الذي برر بموجه كلامه هذا، فكان ان الديكتاتورية الفردية لم تكن سوى خطوة تسمح بالوصول الى الملكية.

ولقد حل على Mazzini واصدقائه بان كل التغييرات السياسية التي كانوا يحملون بها، كانت ذات طبيعة قطعية بحتة، وكانت تبقي فقط ارضاء حاجاتهم الشخصية، واكتساب وممارسة سلطة لا محدودة قبل اي شيء آخر.

لهذا السبب عارض Buonarrotti قيام الفتنة المسلحة التي نظمها Mazzini في Piémont في العام ١٨٣٣، بموجب قرار سري يحرم فيه على رفاقه اتباع كاربوناري، مد يد المساعدة للمتمردين الذين لا يمكن لانتصارهم المحتمل الا ان يُعطي الضوء الأخضر لولادة استقراطية جديدة طموحة، حسب رأيه. لقد كتب ايضا يقول: « لا تختلف جمهورية Mazzini المثالية عن الملكية، الا فيما تشتمل على مقام أقل، او مهمة انتخابية أكثر ».

لا تتميز ديكتاتورية الفرد، بصورة اساسية، وتبعا لنتائجها، عن ديكتاتورية مجموعة اوليغرشية، ومن البديهي، والحالة هذه، ان يكون مفهوم الديكتاتورية في الجهة المقابلة لمفهوم الديموقراطية. فالرغبة بوضع تلك في خدمة هذه، هي كما لو كنا نرغب باستخدام الحرب كوسيلة اكثر فاعلية للدفاع عن السلام، او استخدام الكحول للنضال ضد الادمان عليه.

ومن المحتمل جداً، ان تعمل مجموعة اجتماعية ما جهدها للمحافظة على ادوات السلطة الجماعية، فيما لو كانت تملكها. فلقد اشار Thèophroste سابقاً، ان اعظم رغبة عند الرجال المسكين بزمام السلطة في دولة شعبية، تكمن في تأسيس سيادتهم الخاصة، رويداً رويداً، على حساب السيادة الشعبية، اكثر منها في اكتساب الثروات وتكديسها.

وبالفعل، فمن الممكن التخوف من الا تستبدل الثروة الاجتماعية الطبقة الحاكمة، الظاهرة والمحسوسة التي تتواجد في ايماننا هذه بصورة علنية، باوليغرشية ديماغوجية تعمل في الخفاء، وتتصرف مسترة بقناع المساواة المزور.

كما يجب الاعتراف بأن الماركسيين يملكون عقيدة اقتصادية، وفلسفة في التاريخ، قابلتين لاجتذاب اولئك الذين يفكرون ولغت انظارهم. ولكنها يتركانهم في فهم خاطيء، ما ان يلتحقوا بالعمل في ميدان القانون العام والقانون الاداري، ناهيك عن الميدان النفسي.

وفي كل مرة ارادت فيها النظرية الاشتراكية احاطة الحرية الشخصية بضمانات معينة، كانت تنتهي الى ظلمات الفوضوية الفردية الداكنة، او الى اقتراحات لا يمكنها ان تجعل من الفرد الا عبداً للجاهل.

ولندكر ههنا مثلاً: ففي سبيل تأمين ادب مرتفع واخلاقي للمجتمع الاشتراكي، ومن اجل الغاء كل انتاج ادبي متهور، بالدرجة الاولى، اقترح Bebel تعيين لجنة اختصاصية تقرر ما يجب وما لا يجب طباعته.

لكنه، ولكي يستيق اي ظلم ويحمي حرية التعبير عن الكلمة، أضاف الى هذا الاقتراح، اقتراحاً آخر، وهو ان يعرف كل كاتب ان له الحق بالاحتكام

الى المجموعة، عند اي انقاص من حقوقه. ومن العيث القول، ان طريقة كهذه، سوف تجعل المجتمع امام استحالة فنية وفكرية في امكانية الحكم على عمل ما يستحق النشر أم لا، لانها ستفرض لذلك طباعة ملايين النسخ من الكتب الاكبر حجبا وتوزيعها على العامة لهذا الغرض.

ليست المشكلة الاشتراكية مشكلة اقتصادية وحسب. وبعبير آخر، فهي لا تسمى فقط الى حل مسألة معرفة ما اذا كان ممكناً، تحقيق توزيع عادل للثروات، وتحديد ابعاده. انها تفرض ايضاً مشكلة ادارية، مشكلة ديمقراطية، سواء كان ذلك بالمعنى الفني والاداري للكلمة، ام كان بالمعنى النفسي لها.

أن نواة كل هذه المجموعة من المسائل التي انصرفت الاشتراكية لخلها، تكمن في المسألة الفردية دون سواها..

لقد أخطأت الاشتراكية واخفقت، لعدم ادراكها الالهية التي تظهرها مشكلة الحرية لجنسنا البشري. وكذلك الامر نفسه، بالنسبة لكل المفاهيم السابقة للاشتراكية التي نسبت ان تحل كل مصادر التوضيع العديدة التي تسبقت لاعطاء مثل هذه النتيجة، وذلك لانها انبهرت بمغلفة الشهد الذي وفرته لها حصيلة طروحاتها.

هذا ولم ينفصل الحزب الهاملي الالمانى الشاب عن الديمقراطية البورجوازية التي كان يقتفي اثرها حتى ذلك التاريخ، الا بعد ان نبهه احد الاصدقاء المختصين الى الاخطار التي كان يجري اليها.

لقد كتب Rodbertus في رسائله المفتوحة الموجهة الى لجنة جمعية Leibzlg الالمانية ما يلي: «انتم تنفصلون عن حزب سياسي لانه، كما اعتقدتم عن حق، لا يمثل مصالحكم الاجتماعية كغاية. انتم تنوون، بدوركم والحالة هذه، تأسيس حزب سياسي جديد. هذا جيد. ولكن، من يضمن لكم الا ينتهي أخصام طبقكم يوماً، بالتسلل الى الحزب الذي تؤسسون والاستيلاء عليه».

تختصر ملاحظة Rodbertus هذه، جوهر الحزب السياسي نفسه، ومن اجل معرفة مدى صحة ذلك، من المناسب دراسة العناصر التي تدخل في تركيبة حزب ما.

ليس الحزب وحدة اجتماعية، ولا حتى وحدة اقتصادية. تتألف قاعدته بالاعتماد الى برنامجها الذي يمكن ان يكون التعبير النظري لمصالح طبقة محددة. الا ان أياً كان، في الواقع، يستطيع الانضمام الى حزب ما، اتوافقت مصالحه الخاصة او لم تتوافق مع المبادئ المعلنة في برنامج هذا الحزب.

وهكذا، فان الحزب الاشتراكي مثلاً، هو الممثل الايديولوجي للبروليتاريا، ولكنه ليس هيئة طبقية، نتيجة لذلك: فهو، بالحري، ومن وجهة النظر الاجتماعية، مزيج من الطبقات، مؤلف من عناصر لا تقوم كلها بوظيفة واحدة، في الاسلوب الاقتصادي المعتمد. غير ان البرنامج يفرض، مع ذلك، وحدة اجتماعية ظاهرية، كونه برنامج طبقة معينة.

كما يوافق كل الاشتراكيين، امثال هؤلاء نظرياً ومهما كان موقعهم الاقتصادي في الحياة الخاصة، على افضلية طبقة كبيرة: هي طبقة البروليتاريا. حتى ان العناصر غير البروليتارية، او التي ليست بروليتارية تماماً، والمنضمّة الى الحزب. تعتمد هي الاخرى، وجهة نظر الطبقة العاملة، وتعترف لها بأنها طبقة لها وزنها ونفوذها.

من المتفق عليه ضمناً اذن، هو ان اعضاء الحزب غير المنتمين للطبقة التي يقوم بتمثيلها، سيتنازلون عن مصلحتهم الشخصية، في كل مرة يجد فيها هذا الحزب نفسه في صراع مع مصلحتها. وتخضع، ميدانياً، العناصر غير المتجانسة «لفكرة» الطبقة الغريبة عنها.

تلك هي النظرية، اما على صعيد الواقع، فان الموافقة على البرنامج لا تكفي لتسهيل صراع المصالح العميق، القائم بين رأس المال والعمل.

ويتواجد، والحالة هذه، بين اعضاء الفئات الاجتماعية المنفردة التي التحقت بالانتظيم السياسي للعالم، بعض من الذين سيعرفون كيف يضحوا بأنفسهم في الوقت المناسب، اي كيف «ينتقلون من طبقتهم». لكنهم، على الرغم من التفاهم الظاهر مع افكار البروليتاريا، سوف يستمرون بالمحافظة على جذورهم الاقتصادية في مصالح متناقضة.

ان صاحب القرار، عند تضارب المصالح، هو قوتهم المحترمة، أي العلاقات التي يظهر وزنها مع متطلبات الحياة الرئيسية، بحيث ان شيئا لم يقف، بالدرجة الاولى، بوجه ولادة صراع اقتصادي بين اعضاء الحزب البورجوازيين وبين البروليتاريين، وهو صراع يؤدي، اذا ما توسع، الى خلافات وانشقاقات سياسية. ان التناقض الاقتصادي يخلق النية الايديولوجية القسوية، فيصبح البرنامج، اذ ذاك، حرفاً ساقطاً، ويقوم صراع طبقات حقيقي داخل الحزب، وفي ظل الرأية الاشتراكية.

تُعلمنا التجربة ان البورجوازيين الاشتراكيين لا يُخضعون دائراً مصالحهم الخصوصية لمصالح الطبقة المنتخبة، في سلوكهم تجاه اشخاص هم اصلاً في خدمتهم. ان اصحاب العمل والصناعيين الاشتراكيين، وعلى الرغم من حسن نيتهم الشخصية، وعلى الرغم من الضغط الذي يمارسه الحزب عليهم، فانهم لا يتصرفون مع مستخدميهم وعلمهم الا بعكس ما يتصرفون مع زملائهم الذين تفرغ منهم وظائفهم الاقتصادية، أي مع أولئك الذين يفكرون «بورجوازيًا» لا اشتراكيًا.

الا ان هناك خطراً آخر ايضاً: يمكن ان تقع ادارة الحزب الاشتراكي بين ايدي رجال تختلف نزعاتهم التطبيقية تماماً، عن البرنامج العمالي. ينتج عن ذلك ان الحركة العمالية تتصحح، اذ ذاك، في خدمة المصالح المتعارضة، من جهة لآخرى، مع مصالح البروليتاريا. يكبر هذا الخطر، بنوع خاص، في البلدان حيث لا يستطيع الحزب العمالي ان يستغني عن مساعدة (وادارة) رأسماليين مستقلين عنه اقتصادياً. وفي المقابل، يبقى الحزب ضعيفاً في البلدان حيث لا يحتاج فيها لامثال هؤلاء الاشخاص، أو أنه، على الأقل يتركهم بعيداً عن ادارة شؤونهم.

عندما يكون الزعماء، من اصلي بورجوازي او عمالي، مرتبطين بينية الحزب نفسها، بصفتهم مستخدمين فيه، فان مصلحتهم الاقتصادية، عندئذ، تتطابق، بشكل عام، مع مصلحته. الا ان هذا لا يلغي سوى مظهر واحد من مظاهر الخطر. اما المظهر الآخر، الأكثر جسامه، فانه يكمن في الخلاف المعلن بين

جمهور المنتسبين ومجموعة الزعماء، ويتمتع كلها كبر الحزب ونما، وهو، بالنتائي، خطر عام، لا يمكن تجاهله.

لا يمكن تعريف الحزب، بالضرورة، استناداً لمجموع الاعضاء المسجلين فيه، وانطلاقاً من تركيبته الخارجية وماكينته، ولا حتى نسبة للطبقة. فهو يتفصل، رويداً رويداً، عن الطبقة التي يمثل، اذ يصبح هدفاً بحد ذاته، له غاياته ومصالحه الخاصة.

ان مصالح الجاهير المنظمة التي يتألف منها حزب ما، بعيدة عن ان تتطابق مع مصالح البيروقراطية التي تجسده.

ان مصلحة هيئة المستخدمين يمكن ان تفرض، وفي ظروف سياسية معينة، سياسية دفاعية تراجعية، حتى في الوقت الذي تتطلب فيه مصالح الطبقة العاملة سياسة هجومية وجريئة. ونادراً ما يحصل العكس في حالات اخرى.

ان كل عضو من اعضاء المجموعة، نشأ عن مبدأ تقسيم العمل، يخلق لنفسه، ما ان يشتد ساعده، مصلحة خصوصية، مصلحة تكمن في ذاته ولاجله، وهذا قانون اجتماعي محتم لا يقبل الجدل. الا انه لا يمكن ان تتواجد مصالح خصوصية داخل الهيئة الجماعية، دون ان تجد نفسها، للحال، في تعارض مع المصلحة العامة. اكثر من ذلك ايضاً: ان هناك فئات اجتماعية تشغل وظائف مختلفة تنزع نحو الانعزال، او نحو اعطاء نفسها اجهزة قادرة على الدفاع عن مصالحها الخاصة، وتحويلها أخيراً الى طبقات متمايزة.

ان القواهر السوسيولوجية التي رسمنا خطوطها العامة هنا، وفي الفصول السابقة، تقدم اذن لحملات اخصام الديمقراطية نقاطاً عديدة قابلة للانتقاد.

كما تبدو وكأنها توضح ان المجتمع لا يمكن ان يستمر ويدوم دون وجود طبقة «حاكمة»، وان هذه الاخيرة، هي الشرط الضروري لوجوده، ان الطبقة الموجهة تشكل العامل الوحيد في المجتمع الذي يظهر ان تحركه يمكن ان يدوم كفاية في تاريخ النمو الانساني.

وطبقاً لهذا المفهوم، فان الحكومة، او اذا اردنا، فان الدولة لن تكون شيئاً

آخر غير تنظم مؤلف من اقلية، تفرض، بدورها، على باقي اعضاء المجتمع « النظام القانوني » الذي يبدو وكأنه تبرير او تصديق قانوني للاستقلال الذي توزع تحته الجباهير، بدلا من ان يكون انطلاقا لتسبيل الاغلبية.

وستجد هذه الاخيرة نفسها دائما في استحالة، او ربما في حالة عجز منها، لحكم نفسها بنفسها.

وفي الوقت الذي تنجح فيه الجباهير المتساءة من تجريد البورجوازيين من سلطتهم، فان ذلك ليس سوى امر ظاهري فقط، حسب Mosca: فترز اذ ذاك، وبصورة دائمة، اقلية جديدة منظمة داخل صفوف الجباهير، ترتفع الى مصاف طبقة قيادية. وهكذا تجد اغلبية الرجال نفسها مرغمة « على تحمل سيطرة اقلية صغيرة نائمة منها، تستخدمها قاعدة ومتطلعا للوصول الى عظمة الاوليفرشية. يمكن ان نقول هنا ايضا، ان قدرية التاريخ هي التي تحكم تلك الاغلبية، وتركها دوما تحت راحة الاقلية.

ان المبدأ الذي تحل بموجبه طبقة حاكمة محل طبقة حاكمة اخرى، والقانون الذي استنتجناه منه، والفاصل بان الاوليفرشية تشبه الشكل المبني مسبقا للحياة المشتركة للتكتلات الاجتماعية الكبيرة، ان هذا المبدأ وهذا القانون يتمايان ويقويان المفهوم المادي للتاريخ بدلا من اضعافه.

لا يوجد هناك اي تناقض اساسي بين العقيدة القائلة بان التاريخ ليس سوى صراع مستمر للطبقات، وبين العقيدة القائلة بان صراعات الطبقات ستؤدي دائما الى خلق اوليفرشيات جديدة، تنصهر وتذوب في الاوليفرشيات القديمة.

كما ان وجود طبقة سياسية لا يتنافى مع الماركسية التي تعتبر كدلسفة التاريخ: وبالفعل، ليس هذا الواقع سوى نتيجة العلاقات القائمة بين مختلف القوى الاجتماعية التي تتنازع السلطة والزعامة.

لقد كان الاشتراكي الروسي Alexandre Herzen الذي كانت اماله الادبية تقدم فائدة سيكولوجية كبيرة، يدعي انه ابتداء من اليوم الذي اصبح فيه

الرجل ملحقاً بالملكية وأصبحت فيه حياته صراعاً مستمراً من أجل المال، انقسمت المجموعات السياسية في العالم البورجوازي إلى معسكرين: الملاكون المنشئون بملائيتهم، والمواطنون الذين يرغبون بانتزاع أملاك هؤلاء، كونهم لا يملكون شيئاً، ولا يتمتعون، لذلك، بالقوة الضرورية. من هنا كان البخل، من جهة، ومن جهة ثانية كان الحساد.

وليس التطور التاريخي إلا تنابع معارضات دائم لا يتوقف، بالمعنى البرلماني للكلمة، وهذه المعارضات التي تتوالى على السلطة، الواحدة منها تلو الأخرى، منتقلة هكذا، وبسرعة، من الحسد إلى البخل.

لهذا السبب، لا تأتي الثورة الاجتماعية بأي تعديل في البنية الداخلية للجواهر. ولن يصبح نصر الاشتراكيين نصراً للاشتراكية التي تملك وتموت في لحظة انتصار أقسامها بالذات.

يسأل النبا همتا، أن تصنف هذا الأسلوب بالأسلوب الهزلي - المأساوي، عندما نعلم أن الجواهر تكفي باستبدال زعيم بزعيم آخر، وأنه لا يبقى للعالم في هذه الحالة، إلا شرف المشاركة بجمع انفار للحكومة.

وهكذا، تتحول الثورة الاجتماعية، كالثورة السياسية، إلى عملية تغيير قندلفت، كما يقول المثل الإيطالي، في الوقت الذي يبقى فيه كل شيء على حاله.

لقد حدد Fourier المجتمع الحديث بقوله، أنه يشبه تركيبة آلية يسود فيها التهور الفردي الأكثر جوحاً، هذا التهور الذي لا يقدم أية ضمانات للفرد ضد اغتصاب الجواهر، ولا للجواهر ضد اغتصاب الفرد.

يبدو أن التاريخ يعلمنا أن ليس هناك حركة شعبية تستطيع أن تسبب تحولات عميقة ومستمرة في الجسم الاجتماعي للعالم المتمدن، مهما كانت فاعلة ومقدامة. ويعود هذا، لأن العناصر السائدة داخل هذه الحركة، أي الرجال الذين يوجهونها ويقودونها، ينتهون بالابتعاد تدريجياً عن الجواهر، وينتهون ناحية الطبقة السياسية الحاكمة، ليدوروا في فلكها. وهم يجلبون لها، بعضاً من

« الأفكار الجديدة »، بالإضافة الى مزيد من قوة الابداع والحنكة العملية،
فينفثون فيها، هكذا، شبابا جديدا.

وفي مجال استعمال تعبير Mosca دائما، فان « الطبقة السياسية »، تملك
شعورا دقيقا للغاية، لا جدال حوله، بإمكانياتها واساليب الدفاع عن نفسها،
فهي تظهر قوة اجتذاب وقدرة استيعاب فعاليتين، نادرا ما نبقان دونما تأثير
حتى على الخصوم الأكثر بأسا والأكثر تصلبا، اما من وجهة النظر التاريخية،
فان مناهضي الرومنسية على حق تماما، عندما يختصرون تخوفهم في هذا الهجاء
اللاذع: « ما هي الثورة؟ انها اناس يطلقون النار على بعضهم البعض، في
أحد الشوارع: مما يكسر الكثير من زجاج النوافذ، ويؤدي فقط لاستفادة
عمال تركيب الزجاج منها، دون غيرهم، فالهواء ينقل الثيران من مكان لآخر.
ومن يبقى فوق، يضع الآخرين تحت » (Th. Gantier).

الفصل الثالث

احكام نهائية

ان وجود الزعماء ظاهرة ملازمة لكل اشكال الحياة الاجتماعية. فلن يتوجب على العلم، اذن، ان يبحث فيها اذا كانت هذه الظاهرة شيراً ام شراً، او بالحري، ايا من الاثنين فقط، الا انه، في المقابل، لا فائدة علمية كبيرة في القول ان كل اسلوب حياة يرتكز على الزعماء، انما هو نظام يتنافى ومسلّمات الديموقراطية الاساسية.

لقد بتنا نعرف الآن، ان قانون الحاجة الشارعية للاوليغرشية، يُبنى، بالدرجة الاولى، على سلسلة من الوقائع الناتجة عن التجربة. وككل القوانين العلمية الاخرى فان قوانين علم الاجتماع تصدر من الملاحظة المبينة على مبدأ التجربة والاختبار. ولكن، ومن اجل ان ننزع طابع الوصف عن الحقائق - المسلمات، واعطائها ميزة التفسير التحليلي الذي يحول، وحده، صيغة ما الى قانون، فان اعادة الظواهر الممكن التثبت منها، تبعاً لقاعدة التجربة الى وجهة نظر موحدة، ليست كافية: يجب البحث ايضاً عن الاسباب الموجبة. وهذا هو، بالتحديد، هدف بحثنا.

بعد ان اطلعنا، والحالة هذه، على نزعة الزعماء نحو تنظيم انفسهم، والتحالف في ما بينهم، وبعد اطلاعنا ايضاً على اعتراف الجماهير الساكنة والصامت بهم، يمكننا القول في هذه الخلاصة، ان السبب الرئيسي للظواهر الاوليفرشية القائمة

داخل الاحزاب الديموقراطية، يكمن في الواقع التالي، وهو انه لا بد، فنياً، من وجود الزعماء.

ان طريقة التصرف التي بدأت بفضل نماذج وظائف الحزب، انتهت الآن لصالح مجموعة من الصفات التي اكتسبها الزعماء، بفعل انفصالهم عن الجماهير. ولقد اصبح الزعماء الذين برزوا في البداية فجأة، ولم يمارسوا وظائف الزعيم الا بصفة اضافية ومجانية، زعماء محترفين. وقد تبعت هذه الخطوة، وللحال، خطوة ثانية، اذ سرعان ما اصبح الزعماء المحترفون، زعماء ثابتين لا يتزعزعون.

وتعبد الظاهرة الاوليفرشية التي وكّدت هكذا، اذن، وفي قسم منها، تفسيراً نفسياً، أي انها نتجت عن تحولات نفسية، تلك التحولات التي خضعت لها مختلف شخصيات الحزب طيلة حياتها. كما تفسر ايضاً، وبالدرجة الالى، بما تمكن سمعته بسيكولوجية التنظيم ذاته، أي بالضرورات ذات الصلة التكتيكية والفنية التي نتجت عن تضامن كل الجسم السياسي المنتظم. يمكن صياغة القانون الاجتماعي الاساسي الذي يحكم الاحزاب السياسية (مع اعطاء اوسع تفسير لكلمة «سياسية») كما يلي: ان التنظيم هو المصدر الذي تولد منه سيطرة المنتخبين على الناخبين والمفوضين على المفوضين، والمنتدبين على من ينتدبهم. من يقول تنظيم، يقول اوليفرشية.

يقوم أي تنظيم حزبي بتمثيل اوليفرشية قادرة مركزة على قاعدة ديموقراطية. ففي كل مكان، يوجد ناخبون ومنتخبون. ولكننا نجد أيضاً، في أي مكان، سلطة لا محدودة تقريباً للمنتخبين على الناخبين الذين ينتخبونهم. ان البنية الاوليفرشية تخضع المبدأ الديموقراطي الاساسي. فهناك المظلوم وهناك من سوف يكون مظلوماً. ولا يزال هذا الخلاف الاساسي بين الحقيقة والخيال، سرّاً بالنسبة للجماهير.

وعالماً ما يعتقد الاشتراكيون، وبكل اخلاص، ان نغمة جديدة من الرجال السياسيين، سوف تفي بوعدها افضل من النخبة السابقة. ان فكرة تمثيل مصالح الشعب، هذه الفكرة التي تنمك بها الاغلبية المطلقة للديموقراطيين، وتبرع خاص، الجماهير العالمية المريضة في البلاد التي تنكلم الالمانية، ليست

سوى وهم يولده انعكاس خاطئ للضوء، انعكاس مراب.

في إحدى أهم صفحات كتابه حول تحليله لللدون كيشوتبة، الحديثة، يكشف لنا، Alphonse Daudet، أن القائد الشجاع Bravida قد توصل، رويدا رويدا، لاقناع نفسه، وتحت تأثير الشمس المحرقة، انه كان في Shanghai، وأنه قام بكل انواع المفاخرات التاريخية. تلك هي حالة البروليتاري الحديث تقريبا: فهو ينتهي، وتحت التأثير المستمر الذي يمارسه عليه و افراد، هم اكثر ثقافة وفطنة في الكلام، باقناع نفسه انه يكتبه التراخض وراء صناديق الاقتراع، فيوكل قضيتة الاقتصادية والاجتماعية لندوب ما، من اجل ضمانة مشاركته المباشرة في السلطة.

ان تأسيس اوليفرشيات داخل الاشكال المتعددة للديموقراطية، ظاهرة عضوية، وبالتالي، نزعة يعالي منها كل تنظيم، اشتراكيا كان او فوضويا. لقد سبق وذكر Haller ان الطبيعة، وفي ظل اي شكل من اشكال الحياة الاجتماعية، تخلق، من تلقاء نفسها، علاقات سيطرة وتبعية، كما ان تفوق الزعماء في الاحزاب، الديموقراطية والثورية، هو واقع يجب أخذه بعين الاعتبار في كل موقف تاريخي، حاضرا كان هذا الموقف، ام مستقبلا.

لن تصبح المجاهير سيدة أبداً الا بطريقة مجردة. فالسألة المطروحة اذن، ليست ان نعرف كيف يكون ممكنا تحقيق ديموقراطية مثالية. يجب علينا التنازل، بالاحرى، الى اي حد وضمن اية حدود تكون الديموقراطية امرا مرغوبا فيه، ممكنا وقابلاً للتحقيق، في وقت محدد.

نذكر، في هذا الخصوص، ملاحظة هامة، وهي ان مسألة الرغبة تكمن في صميم ميدان السياسة، وتتجاوز، لهذا السبب، حدود كتابنا هذا. الا اننا، وعند طرحنا لمسألتى الامكانية وقابلية التحقيق في الظروف المعطاة، قلنا نلامس، اذ ذاك، المشكلة الاساسية للسياسة التي تعتبر علما.

ان من لا يفهم ذلك هو، وبتميم Sombart، اما رجل اعمى ومتعصب الى

Bravida هو احدى شخصيات قانونس دودي في كتاب تحليله لللدون كيشوتبة...

حد انه لا يرى ان التيار الديموقراطي يولد كل يوم نجاحات لا نزاع حولها،
واما مجرد من التجربة والادراك، حتى انه لا يعترف ان كل نظام وكل حضارة
يحملان، بالضرورة، طابعاً ارسقراطياً.

ان خطأ الاشتراكيين الكبير، الخطأ الصادر عن معلوماتهم النفسية المنقوصة،
يكمن في انهم يبرهنون عن تفاؤل زاهر وثقة لا محدودة، بالنسبة للمستقبل، في
الوقت نفسه الذي يبرهنون فيه عن تشاؤم مفرط بالنسبة للحاضر.

ان المفهوم الواقعي للظروف الذهنية للجهاير، يكشف لنا، بوضوح كلي،
ان المواد الانسانية التي لا يمكن للسياسيين والفلاسفة حججها عن مشاريعهم
الخاصة باعادة البناء الاجتماعي، ليس من طبيعتها تبرير تفاؤل متزايد.

هذا، وتستمد الاحزاب الاشتراكية حياتها، كالتنقيات العمالية، من الحياة
الاجتماعية. كما انها تنفعل بقوة كبيرة ضد كل محاولة لتحليل بنيتها وطبيعتها،
كما لو كان المقصود اخضاعها للتشريح العلمي. وعندما يتوصل العلم الى نتائج
مغايرة لايدبولوجيتها، فانها تثور بكل قواها وفعاليتها ضده، علماً بان دفاعها
هذا، انما هو دفاع ضعيف للغاية.

اما ممثلو هذه التنظيمات الذي يحرم عليهم تفكيرهم العلمي وامانتهم
الشخصية، انكار النزعات الاوليغرشية في الديموقراطيات، بصورة مطلقة،
فانهم يسعون لتفسيرها عن طريق نوع من العودة الى الاصول، هذه العودة التي
لم تنجح الجهاير بعد في التخلص منها.

ويقولون انه اذا ما زالت الجهاير مصابة بداء الاوليغرشية، فذلك، لانها
كانت محكومة، طيلة قرون، بالعبودية، ولم تتمتع يوماً بوجود مستقل سيد.
ولقد سعى الحزب الاشتراكي، بسرعة، لرد الصحة اليها واعطائها كل
القدرات والامكانيات التي تحتاجها، لحكم نفسها بنفسها.

ما من شيء اقل علمية من الافتراض القائل بانه، وعندما يستأثر
الاشتراكيون بالسلطات العامة، يكفي ان تمارس الجهاير رقابة خفيفة، من
اجل ان توفق بين مصالح الزعماء ومصالح المجموعة. كما يمكن اضافة

افترض آخر مناهض للعلم وللماركسية على السواء، تقدّم به Jules Guesde (الذي يقول عن نفسه، مع ذلك، انه اشتراكي)، ويمثل بمعرفة انه، وكما صنعت المسيحية من الله انساناً، فسوف تجعل الماركسية من الانسان الهاً،...

ان عدم نضوج الجماهير الواضح، ليس ظاهرة عابرة فقط تخفي مع التراجعات التي يحققها تطبيق الديموقراطية غداة الاشتراكية، انما هو، بالعكس، مغمور بمعجز كبير يحول دون ودون حل كل المشاكل المتنوعة، التي تبرز، وذلك لان الجماهير تعيش حالة من عدم التنظيم، وتحتاج لتقسيم العمل ولتخصص في القيام به، ولادارة واحدة واعية. فلقد كتب Proudhon من سجنه في العام ١٨٣٠، قائلاً: سود الجنس البشري ان يكون محكوماً، فسيكون له ذلك. انني ارجل من بني جنسي. هذا، ويولد الفرد، وفي طبعه ميل لان يكون موجّهاً ومحكوماً. كما يزداد هذا الميل، كلما انقسمت الوظائف الحياتية وتشعبت. ومثلها يصح هذا على الفرد، فانه يصح ايضا على المجموعة الاجتماعية.

اما ان نستخلص من كل هذه التأكيدات والمعتقدات العلمية، النتيجة القاضية برفض كل بحث حول حدود القدرات الاوليغرشية (دولة، طبقة، حاكم، حزب...) التي يثن تحتها كل فرد، فذلك يصح اعتراف خطأ كبير. كما انه من الخطأ ايضا الامتناع بوجوب رفض كل مشروع يائس في ايجاد نظام اجتماعي، يجعل التحقيق الكامل لمفهوم السيادة الشعبية امراً ممكناً.

عند كتابتنا لهذا الكتاب، لم تكن عندنا النية (كما سبق وقلنا منذ البداية) بتبيان مسالك وطرق جديدة.

لقد بدا لنا ان من الضروري فقط استخلاص الحل المتشائم الذي يقدمه لنا التاريخ بشأن هذه المشكلة. كما رغبنا البحث في ما اذا كانت الديموقراطية، وضمن أية محدود، مثالا لا قيمة له البتة، بالنسبة للتاريخ الانساني، سوى القيمة التي للمقياس المعنوي الذي يتيح بتقدير درجة الاوليغرشية اللازمة لكل نظام اجتماعي. وبعبارة أخرى، في ما اذا كانت الديموقراطية، وضمن اية حدود ايضا، مثالا لا نستطيع انتظار نرجته الى حقيقة.

لقد كانت نيتنا ايضا اسقاط بعض الالهام الديموقراطية البسطية التي تربك العلم وتوقع الجواهر في الضلال. كما رغبتنا اخيراً في توضيح بعض النزعات السوسولوجية التي تعارض حكم الديموقراطية وحكم الاشتراكية معاً.

كما لم ننكر، وفي كل مرة، الا تكون كل حركة عمالية ثورية، محركة روح ديموقراطية مخلص، قادرة على المساهمة باضعاف النزعات الاوليفرشية: فلقد أسر القروي الواردة سيرته في احدى الخرافات، الى اولاده، وهو على سرير الموت قائلاً لهم: ان هناك كنزاً مطموراً في حقله. فقاموا، بعد وفاته، بالتنقيب عن هذا الكنز عاملين ليلاً نهاراً لا يجاده. الا ان اتعابهم ذهب كلها سدى، ولكنهم نجحوا باكتساب نوع من الرخاء وسعة العيش، لكثرة ما عملوا وجهدوا دون كلل ولا تعب.

ان كنز الخرافة هذا، يمكن ان يكون رمزاً للديموقراطية. فهي، بدورها، كنز لا يستطيع شخص البتة اكتشافه. ولكن متابعة الابحاث والتنقيب المستمر، والتفتيش عن ايجاد ما لا يمكن ايجاده، كل هذا، يوفر عملاً مفيداً وخصباً لصالح الديموقراطية.

لقد رأينا، بالفعل، وداخل الحزب الديموقراطي العالمي، ولادة النزعات التي كان مدعو لمحاربتها.

كما رأينا، وبفضل تنوع العناصر التي تؤلف الحزب وعدم تساوي قيمة كل منها، كيف تؤدي النزعات، موضوع البحث، وفي غالب الاحيان، الى تصرفات تقرب جدا من الاستبداد والظلم.

اما بخصوص الاساليب الملحوظة لانقاء الاوليفرشية، فيكشف لنا التاريخ، ملياً، عجزها وقلة فاعليتها في هذا المجال. ففي كل مرة أريد فيها مواجهة سيطرة الرعاء عن طريق القوانين، انتهت هذه الاخيرة، وليس الرعاء، بالانطواء والانكماش.

ولكن الا يحتوي مبدأ الديموقراطية نفسه على مسكن لمرض الاوليفرشية، اذا لم نقل، على الدواء الشافي منها؟ لقد اعلن Victor Consédérant، عندما

صاغ اشتراكيته «الديموقراطية السلمية»، بأن هذه الاشتراكية لا تعني سيطرة المجتمع من قبل الطبقات الدنيا للشعب، وإنما هي حكم وتنظيم المجتمع لمصلحة الجميع، عن طريق مجموعة من المواطنين. وأضاف قائلاً:

«ولكن الأهمية العددية لهذه المجموعة، يجب أن تتضاعف مع درجة النمو الاجتماعي».

وتُبرز هذه الملاحظة الأخيرة نقطة هامة جداً، وهي أن الأمر الخاص للديموقراطية، بشكل عام، وبالحركة العمالية بشكل خاص، إنما هو بالفعل تقوية وتخفيض القدرة الفكرية لدى الفرد، في النقد والمراقبة.

نحن نعرف إلى أية نقطة تعيد البروقراطية المضطربة للأجهزة الديموقراطية، النتائج المفيدة لهذه القدرة. ولكن يبقى أن الحركة العمالية، ونظراً للمسلمات النظرية التي تصرح بها وتدافع عنها، غالباً ما تولد عدداً معيناً من الرجال الأحرار الذين يرغبون، على خلاف زعمائها، بمراجعة القاعدة التي تدعم سلطتهم سواء مبدئياً أم فطرياً. كما أنهم، وهم المدفوعون بمعتقداتهم أو بجزائهم، لا يتعبون من ترداد السؤال الأبدي المتمثل بالباعث النهائي لكل المؤسسات الانسانية.

ولسوف يتزايد مع ذلك، هذا الميل الفطري للبحث الحر، الذي يشكل أحد أهم عناصر الحضارة، كلما تحسنت الظروف الاقتصادية للجماهير، وأصبحت أكثر ضمانة، وكلما أصبحت هذه الجماهير أكثر استمداً وتقبلاً للنتائج بفوائد الحضارة والمدنية، وفي أوسع الحدود.

إن تربية أكثر اتساعاً وشمولاً تفرض قدرة أكبر على المراقبة.

ألا نلاحظ، حتى في أيامنا هذه، أن سلطة الزعيم على رفاقه، بالنسبة للأغنياء، ومهما كانت في بعض الأحيان كبيرة، ليست دائماً سلطة لا محدودة، إلا في الطبقات الفقيرة؟

بشكل عام، يجد الفقراء أنفسهم في حالة من العجز الدائم أمام زعيمهم، إذ لا تسمح لهم ثقافتهم الدنيا بمعرفة دقيقة للاتجاه الذي يتبعه، ولا بتقدير تصرفاته

قبل قيامه بها .

فعلى عاتق علم التربية الاجتماعية اذن ، تقع مهمة رفع مستوى الجماهير لجعلها قادرة ، وفي حدود الممكن ، على معارضة النزعات الاوليفرشية التي تهددها .

نحن اذن ، واستنادا على لا اهلية الجماهير النامة ، مرغمون على الاعتراف بوجود قانونين منظمين :

اولا : النزعة الايديولوجية للديموقراطية ، نحو النقد والرقابة .

ثانياً : النزعة المضادة والفاعلة للديموقراطية ، نحو خلق احزاب اكثر تعقيداً وتمايزاً ، اي احزاب مبنية اكثر فاكثر على اهلية اقلية ما .

كما ان كل تحليل عميق للاشكال التي تظهر فيها الديموقراطية في ايامنا الحاضرة ، هو مصدر لحيات امل مريرة ، ولاخلال العزم وتشطيط الهمم .

واذا اردنا الحكم على الديموقراطية ، فيجب ان نقيس قيمتها المثالية الا انطلاقاً من الارستقراطية الصرفة .

وللأسف ، ليست الاخطاء الملازمة للديموقراطية ، الا اخطاء اكيدة ومثبتة للغاية ، الا ان ما هو صحيح ايضاً ، هو انها ، وكشكل من اشكال الحياة الاجتماعية ، تشكل أهون الشرور ، لأن المثالية المطلقة ستكون ارستقراطية رجال ذوي اخلاق حسنة ، وقدرات فنية كبيرة . ولكن اين نجد هذه الارستقراطية ؟ اننا نجدها احياناً ، ونادراً جداً ، وكأنها نتاج غلبة ما . الا اننا لا نجدها مطلقاً حيث يسود مبدأ الوراثة . وكذلك ، يجب اعتبار الملكية الصرفة ، وكأنها تجسيد لعدم قابلية التحسن . فهي ، من وجهة النظر المعنوية ، ادنى مرتبة من الديكتاتورية الديمقراطية حتى الاكثر ثورية منها .

يمكن القول ، اذن ، ويقدر ما سوف ندرك الانسانية المنافع التي تقدمها الديموقراطية ، ولو منقوصة ، زيادةً عن الارستقراطية ، بقدر ما يتضاءل الاحتمال القائل بأن الاعتراف بأخطاء الديموقراطية يسبب عودة الى الارستقراطية .

وبالطبع ، فان هذه الاخيرة تملك صفات ومميزات لا تُكتسب الا بالتربية .

وان الديمقراطية قد تُخطئ، في تجاهلها، في تعريفها، في تشويهها أو في دفعها نحو المغارقة. ولكن، وبصرف النظر عن هذه الصفات المكتسبة في حسن التصرف وحسن الطوك، يمكن القول ان الديمقراطية تعاني بالتحديد، من عجزها في التخلص من امراضها الارستقراطية.

فمن هنا، تظهر كل هذه المخاطر، التي سبق وتكلمنا عنها. ومن هنا ايضا، تستطيع دراسة شجاعة فقط، مجردة من اي غرض، ان تنقل منها الى حد ما، اذا لم نقل ان تقضي عليها تماماً.

ان الثباتات الديمقراطية التي نعانيها في التاريخ، تشبه التمرجات المتلاحقة التي تنكسر كلها امام صخرة واحدة. وهي تولد في كل لحظة تموجات اخرى. انها مشهد مشجع ومخزن في الوقت نفسه.

هذا، وتبدأ الديمقراطيات بالنحول، تدريجياً، ما ان تبلغ حداً معيناً، من النمو والقدرة، وذلك باعتمادها الروح الارستقراطية، وغالباً ايضاً، باعتمادها الاشكال الارستقراطية التي كانت قد حاربتها فيما مضى. ولكن متهمين جداً يقفون، باستمرار، ضد الخيانة، وينتهون بالانحراط في الطبقة الحاكمة القديمة، بعد عهد من المعارك المجيدة ومن سلطة لم تكافأ، تاركين اماكنهم لمعارضين جدد يحملون عليهم، بدورهم، باسم الديمقراطية. ومن المحتمل الا نلقى هذه اللعبة المخيفة نهاية البتة.

محتويات الكتاب

الصفحة	
١	مقدم
١٧	القسم الاول
	الزعما في التنظيمات
	* الباب الاول:
	الاسباب الموجبة فنياً وادارياً
١٩	الفصل الاول: مدخل: ضرورة التنظيم
٢١	الفصل الثاني: استحالة حكم الجماهير آلياً وفنياً
٢٥	الفصل الثالث: الحزب الديمقراطي الحديث كحزب منافيل، التضال.
٢٩	* الباب الثاني: الاسباب النفسية الموجبة.
٤١	الفصل الاول: الحق المعنوي في التفويض
٤٥	الفصل الثاني: حاجة الجماهير الى الزعما
٥٥	الفصل الثالث: امتنان الجماهير السياسي
٥٩	الفصل الرابع: حاجة الجماهير الى التكرار
٦٥	الفصل الخامس: سميات الزعما الاضافية
٧٥	* الباب الثالث:
	عوامل ذهنية
	التفوق الذهني للزعما المحترفين
	عدم اهلية الجماهير العقلية والحقيقية
٨٥	القسم الثاني:
	طابع الزعما المتسلط
٨٧	الفصل الاول: ثبات الزعما
٩٩	الفصل الثاني: قدرة الزعما والحزب المثالية

١٦١	الفصل الثالث: الزعماء، والصحافة
١٦٣	الفصل الرابع: موقف الزعماء تجاه الجماهير
١٦٥	الفصل الخامس: الصراع على السلطة بين الزعماء
١٤٩	الفصل السادس: البيروقراطية - النزعات المركزية واللامركزية..
١٦١	القسم الثالث:
	ممارسة السلطة وتأثيراتها النفسية على الزعماء
١٦٣	الفصل الاول: التحول النفسي لدى الزعماء
١	الفصل الثاني: الايديولوجية البونابرتية..
١٦٧	الفصل الثالث: تعريف الحزب والزعيم وانا هو الحزب
١٨١	القسم الرابع
	التحليل الاجتماعي للزعماء
١٨٣	الفصل الاول: مدخل صراع الطبقات وتأثيره الفاعل على البيروقراطية
١٩٣	الفصل الثاني: الزعماء الاشتراكيون المتحدرون من اصل بورجوازي
٢٠٩	الفصل الثالث: التحولات الاجتماعية الناتجة عن التنظيم
٢٢٣	الفصل الرابع: الحاجة الى التمايز داخل الطبقة العمالية
٢٢٩	الفصل الخامس: الزعماء العماليون المتحدرون من اصل بروليتاري
٢٤٣	الفصل السادس: الاحزاب العمالية والمسألة المساءلة: مسألة المفكرين
٢٥٥	القسم الخامس:
	محاولة اخذ من سلطة الزعماء
٢٥٧	الفصل الاول: الاستثناء
٢٦١	الفصل الثاني: بديية الرفض
٢٦٧	الفصل الثالث: الوقاية من النقاية
٢٧٧	الفصل الرابع: الوقاية من الفرضية
٢٨٣	القسم السادس
	خلاصة البحث:
	النزعات الاوليفرشيبة للتنظيم
٢٨٥	الفصل الاول: القاعدة المحافظة للتنظيم
٢٩٣	الفصل الثاني: الديمقراطية وقانون الاوليفرشيبة
٣٠٨	الفصل الثالث: احكام نهائية

الاحزاب السياسية:

دراسة سوسيولوجية

التمويل: ٣٠٠٠ ل.ل.

دار البحوث والدراسات
مركز البحوث والدراسات والنشر والتوزيع
بغداد - العراق - ٢٠٠٧